مهام خلف الخطوط

حروب رجال الظل

سلسلة حرب الأشباح الذئاب

JMA

الاستخبارات - الأمن - التجنيد

حُرُوبُ رِجَالِ الظِّلِّ

(مهمات خلف الخطوط)

ـ الاستخبارات، الأمن، التجنيد ـ

الجزء الثاني من سلسلة حرب الأشباح "الذئاب"

بقلم

أدهم عبدُ الرحمن الأسيف

[١٤٤١/٤/٤ - ٢٠١٩/١٢/١]

إهداء

أهدي عملي المتواضع للقائد الأول خير البشر صاحب الرحمة وصاحب الملحمة محمد ﷺ، ثم إلى والديَّ وإخوتي وأهل بيتي والأمة جمعاء، وبشكل خاص إلى حُماة الثغور ثم الأجيال القادمة التي نرى نور النصر متوهج على يديها متَّقد، وبكل تأكيد بإذن الله هي ستكون من يمتلك زمام المبادرة وتغير وجه العالم لمجد متجدد يعيد للأمة مكانتها وينتزع حقها وحريتها وكرامتها.

شكر

أود توجيه شكرٍ خاص لأشخاص كانوا عونًا لي في إتمام الكتاب منهم:

الصـديـق الـغـالي عـز الـدّين الـشّـــامــي والأخ الـحـبـيـب أبـو المـغـيـــرة الأوســـي.

كذلك الشـــكر موصـــول لمكتبة الأمة ودار الحكمة وبالعموم مكاتب المحرر على ما يقدموه من مجهودٍ طيب وطبعًا لا ننسى سلسلة المكاتب الدعوية التي لها أثر عظيم في سبيل النهوض.

كما أني أشـكر مركز نورس للدراسـات فلقد اسـتفدت منه بشـكلٍ جيد من خلال اهتمامه بأمور كنا نجد صـــعوبة في إيجادها قبل عمل المركز ولا أخفي قولي بأني أعتبره ثروة ثورية يجب أن نمتلك العديد منه.

وأخيرًا أتوجه بالشـكر الجزيل لكل من يتعاون ويسـاهم في نشـر الكتاب وأرجو من الله أن يكتبه له سهمًا في الخير، وأنوه أن الكتاب لا يحمل حقوق طبع ونشر فقد نذرته لله وأرجو من أي دار ومطبعة تقوم بطباعته أن لا تأخذ أكثر من سعر التكلفة إلا الشيء البسيط.

المصادر

||تـنـويـه||

إن كثير مما سـيأتي في الكتاب هو اجتهاد شـخصـي و محاولة في فهم وتطوير إدارة الصـراع، استنتجتها من خلال التفكير العميق وتجربة بسيطة ثم التعمق في كتب هامة اختصت في هذا المجال وهي غزيرة بالعلم والمعرفة، لكن بالعموم لا يمكن تسـمية الكتاب جمع أو ترتيب لمجموعة كتب ومراجع سـابقة البتة وذلك أن كثير من الأمور قمت بتعديلها وصـياغتها بما أفهمه من منطلق شرعي ثم واقع أعيشه بتجاربه، ثم أحداث وإمكانيات تطورت وتتطور بشكل متسـارع لم تكن في السـنوات السـابقة معروفة للمهتمين بهذا الباب والفن، كما أني انفردت بكتاب يجمع ثلاثة علوم مرتبطة ببعضـها بشـكل وثيق حيث حاولت تقديمه بشـكل أكاديمي ومفهوم بسـلاسـة، ومع ذلك فإني أنصـح بقراءة الكتب والمراجع (كونها تحتوي على علم غزير وتوثق أمور تحتاج مجلدات وقد أغنتني كما سيرى القارئ بنقولات تعزز وتؤكد كثير من الأفكار إن كانت سابقة أو مقترحة بشكل جديد) التالية:

- فن التجسس
- الموسوعة الأمنية
- رسالة FBI
- الاستدراج
- حرب العقول
- حروب الظل
- منهج شامل للاستخبارات والمراقبة والاستطلاع
- الفكر الاستخباراتي الإسلامي
- تاريخ المخابرات من الفراعنة
- تاريخ المخابرات الإسلامية عبر العصور
- إضاءات على أمن وصقور التنظيمات
- المختصر في أمن الحركة والاتصالات
- المخابرات والعالم
- مسائل في فقه الجهاد
- علم النفس والمخابرات
- موقع الإسلام سؤال وجواب
- الموسعة العسكرية الإسرائيلية

الفهرس

إهداء 3
شكر 4
المصادر 5
الفهرس 6
المقدمة 11
تمهيد 14
باب الاستخبارات 22
الاستخبارات 24
جهاز المخابرات 31
أجهزة المخابرات 34
- وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية CAI 35
- جهاز المخابرات الروسي KGB 38
- جهاز المخابرات البريطاني MI6 40
- جهاز الموساد الإسرائيلي 40
- جهاز المخابرات الصينيMSS 41
- وكالة الاستخبارات الفرنسية DGSE 41
- جهاز دائرة الاستخبارات الألمانية BND 42
- جهاز المقاومة الفلسطيني 42
- الفصائل الشامية 45
مبادئ الاستخبارات 46
المجتمع والاستخبارات 56
طرق الاستخبار 62
الجاسوسية 65
- تعريف 65
- مفهوم التجسس 65
- تاريخ التجسس 65
- أهداف التجسس 68
- طرق التجسس 70

◈ الجاسوس 78
◈ الناموس 78
◈ متطلبات في الجاسوس/الناموس/العين 79
◈ قصص شهيرة في الجاسوسية 82
المراقبة 104
◈ تعريف 104
◈ مفهوم المراقبة 104
◈ مبادئ المراقبة 104
◈ أهداف المراقبة 105
◈ أساليب المراقبة 106
◈ أشكال المراقبة 106
◈ طرق المراقبة 107
◈ متطلبات المراقبة 109
الاختراق 111
◈ تعريف 111
◈ مفهوم الاختراق 111
◈ الاختراق بين التسلية والحرفة 111
◈ مبادئ الاختراق 113
◈ أهداف الاختراق 115
◈ عمليات الاختراق 115
◈ أنواع الاختراق 118
أهداف المخابرات 121
أفرع المخابرات 138
صفات قائد جهاز الاستخبارات 140
صفات رجل الاستخبارات 146
◈ نصائح مفيدة وبسيطة لرجل الاستخبارات 149
صور من المخابرات الإسلامية 151
باب الأمن 173
الأمن 175
◈ تعريف 175

◈ مفهوم الأمن 175
◈ أهمية الأمن 176
◈ المبادئ العامة للأمن 178
الاستدراج 181
◈ تعريف 181
◈ مفهوم الاستدراج 181
◈ مبادئ الاستدراج 182
◈ أهداف الاستدراج 183
◈ طرق الاستدراج 184
◈ متطلبات الاستدراج 185
الاستجواب 187
تدابير الأمن الشخصي 196
تدابير أمن التواصل الإلكتروني 198
أنواع الأمن 204
أشكال الأمن 206
واجب الفرد تجاه أمن جماعته 207
واجب الجهاز تجاه أمن أفرده 209
صور من الأمن الإسلامي 210
باب **التجنيد** 219
التجنيد الاستخباراتي 221
أهداف التجنيد الاستخباراتي 223
مبادئ التجنيد الاستخباراتي 224
الأشكال العامة للتجنيد الاستخباراتي 225
صفات مطلوبة في المُجَنِد 227
صفات مطلوبة في المُجَنَد 228
متطلبات في المُجَنَد 229
طرق التجنيد الاستخباراتي 230
1. التجنيد المباشر 230
2. التجنيد الغير مباشر 231
3. التجنيد الإيحائي 232

4. التجنيد العكسي 233
5. التجنيد الإلكتروني 234
حول التجنيد الاستخباراتي 235
صور من التجنيد الإسلامي 239
خلف الخطوط 241
◈ تعريف ومفهوم 241
◈ مبادئ خلف الخطوط 242
◈ أهداف خلف الخطوط 245
◈ مواصفات أفراد خلف الخطوط 248
◈ بُنية مفصل خلف الخطوط 250
◈ بُنية مجموعات خلف الخطوط في أرض العدو 252
◈ الشكل التنظيمي لمفصل خلف الخطوط 253
◈ مراحل العمليات لخلف الخطوط 256
◈ مثال بسيط جدًا لعملية مفترضة 257
◈ الأمن العام لمختلف الأفراد 261
صور من عمليات خلف الخطوط 267
◈ صور من سرايا النبي ﷺ 272
الخاتمة 283

المقدمة

بسم الله مولانا قدوس السموات والأرض ناصر عباده المخلصين ولو بعد حين، والصلاة والسلام على صاحب المرحمة والملحمة الضحوك القتال سيد ولد آدم وأعظم قائد عرفته البشرية جمع بين الحزم واللين وجعل لكل مقام مقال، ورضوان الله على آل بيته الأطهار وصحابته الأخيار والتابعين لهم وعلى نهجهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

تختلط في صدري مشاعر متناقضة كما هو الحال عند معظم أبناء الأمة المستضعفة المضطهدة، هي مزيج بين القهر والألم في ظل تكالب المجرمين علينا وبين الأمل والاستبشار بالنصر الموعود الذي لا نشك لحظة أنه آت ورب السماء يكاد يأذن للفرج أن يتنزل علينا ما دمنا نستحق تلك الرحمة من ربنا الكريم الرحيم، من صور تلك المشاعر المضطربة في صدري ليس الشك حول حقيقة النصر إنما هل نستحقه؟، هل وصلنا لدرجة نكون جديرين بهذه المنحة؟، ربما الجواب يأتي سريعًا أننا لا نستحق لو فكرنا بعقولنا القاصرة الضعيفة مقارنة بتحقيق حق العبادة على وجهها الكامل، لكن وقبل أن يتمكن الوسواس من الضمير والنفس أستذكر أن الله يعاملنا برحمته وليس بأعمالنا فيطمئن القلب خاشعًا راجيًا العفو والمغفرة، حقيقة لولا فضل الله علينا لما ثبتنا بعد هذه السنوات ونسأله الثبات حتى الممات، لو فكرنا بالمعطيات البشرية لما استطعنا أن نكمل المسير في هذا الدرب الشائك أو على الأقل لما وجدنا ساعة فيها راحة، لكن الواقع يقول أننا وبرغم ما نتعرض له وما لا يطيقه بشر غيرنا في هذا الزمان إلا أننا نتسامر ونفرح ونضحك ونعيش كأنها حياة طبيعية وليس الموت فيها يُظلنا!! وهذا لسببين والله أعلم، أما الأول فهو أن الله تبارك وتعالى ربط على قلوبنا وثبتها رغم فراغها من آلام متدفقة وفقدان أحبة متتالي، والثانية هي صدق وتصديق حديث النبي ﷺ أن الجهاد سياحة وهذا والله رأيناه ونعيشه بعينه فصلى الله على من لا ينطق عن الهوى.

إن درب الجهاد وهذه الثورة المباركة شائك، بل شائك جدًا لكن من فضل الله علينا أنه يمنحنا لذة في القلب لا يمكن أن نصفها أو نتخيلها فهي شيء حسي يتغلغل في مسمات الجسد يسري

في العروق وكأن القضـية وقود تعطينا طاقة كلما شـارفنا على الانهيار، وهذه الرحمات الكبيرة والعظيمة ليسـت كل شـيء بل رحمات الله تعالى لا تنتهي لو أردنا النظر بعين الحقيقة في واقعنا، فبرغم كل شيء إلا أنها فاتورة صغيرة مقابل لو كنا ركنا للدنيا وخرنا واستسلمنا، فها هي مناطقنا المطهرة المحررة تنعم بالحرية المنضـبطة المنبثقة من الفطرة السـليمة، ها نحن نستطيع قول ما يرضي ربنا وتطبيق ما أمرنا به وهذا ما كنا لنحلم به في ظل بني نصيرية بل لولا فضـل الله فإني أكاد أجزم أن اليوم سـوريا متشـيعة عن بكرة أبيها، لن نتحدث عن الكرامات الكثيرة التي لا تنتهي مع التأكيد على وجود تجاوزات ومخالفات وغيرها قد ترتقي للطامات في بعض الأحيان، لكن المنصـف يدرك أن هذا كله أهون من ليلة في حكم النصـيرية والروافض والشيوعيين، وأن الإصلاح هنا أسهل بملايين المرات من التفكير به لمجرد التفكير في ظل أولئك المجرمين.

لكن نحاول دائمًا ذكر أخطائنا حتى لا نغتر بحسناتنا وكلما شعرنا بأن الكلمات الناقدة ستصل درجة من النفور الغير مشـروع سـارعنا للتذكير بالإيجابيات حتى نحافظ على المكتسـبات ولا نفرط بها، وهكذا من وجهة نظري يجب أن نبقى في نصح دائم ونقد بناء متواصل آخذين بعين الاعتبار القواعد الثلاثة: متى – كيف – أين.

إن الأمة اليوم في ولادة جديدة ومخاضـة بكل تأكيد عاشـها من هم قبلنا لكن على النحو الذي يناسـب التاريخ والزمان، وكما أنهم نجحوا في النهوض فلا بُد لنا من النهوض بإذن الله، فقد كانوا مستضعفين مثلنا وعدوهم متفوق كعدونا وما بين أيديهم لا يقارن بما بأيدي عدوهم كما هو الحال اليوم، لكن لو راجعنا سـيرهم لوجدنا أن عوامل النهوض أخذوا بها على وجهها السـليم وهذه العوامل جعلها الله سـبحانه وتعالى متوفرة إلى قيام السـاعة، فالله تعالى حينما كلف عباده التكاليف وفر لهم القدرة وحاشـى أن يأمرهم بما لا يطيقونه رغم أن هذه الدنيا دار ابتلاء ومحن واختبار إلا أنها خاضـعة لسـنن وقوانين ربانية، هي سـنن كونية وشـرعية فإن حققناها كان النصر يقينًا حليفنا وإن قصرنا بإحداها تقصير جحود أو تقصير كسل أو غباء فلا شك أن النصر للأقوى بين معسكري القتال .

ونحسب أننا نعمل جهدنا في تحقيق السنن مع تقصيرنا الغير مقصود والذي نرجو من الله أن يغفره لنا كما يغفر لنا الخطأ والنسيان بشرطهما، ويومًا سيأتي لنسجد لله شكرًا على نصره المؤزر أو نلهج بحمده في جنة أعدها للمتقين بعد اختبار في حياة هي كطرفة عين نسأل الله أن يجعلنا من أهل الجنة بجوار النبي ﷺ وأصحابه الذين تحملوا أضعاف ما نظنه اليوم، ضنك وضيق فثبتوا وصبروا حتى نهضوا بدولة أذلت إمبراطوريات كبيرة كانت استعبدت البشر لقرون طويلة، تلك الامبراطوريات الفارسية والرومانية واليونانية كم تشبه القوى العظمى في زماننا، وحالة الاستضعاف التي كان عليها العرب بالعموم ثم المسلمين بعد الرسالة كم تشبه حالنا اليوم إلى حد ما، وبرغم ذلك إلا أن ذلك الزمان لا يقارن بزماننا مطلقًا فنحن نمتلك ما قارب على ملياري مسلم! صحيح هي كغثاء السيل لكن هي ميزة يجب أن نستثمرها، كما أننا نمتلك آلاف المقاتلين وهذا ما كان في العصر الأول، ونمتلك موارد ما سخرت لغيرنا، ونمتلك الكثير الكثير والفرص ليس كما يظنها البعض ضئيلة! بل هي اليوم أكثر وفرة وأسهل اقتناصًا، فنحن لا نحتاج سوى استراتيجية حقيقية وترتيب أولويات سليمة ثم اهتمام بما يستحق الاهتمام به وترك ما لا يغني وعدم الانخداع بالبهرجة المخادعة أو التأثر بالخداع الذهني والحرب النفسية، ولعل هذا ما نجح به من كان قبلنا، وما زلنا نحن نفقده كليًا أو جزئيًا، وللأمانة فإني مع ذلك أستشرف مستقبلًا قريبًا فيه من الخير الكثير أولها تحقيق ما سبق ذكره بل لا بُد لنا من تحقيق ذلك كسبيل للنهضة والتمكين إن شاء الله.

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه-قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُلُّ كَلَامٍ أَوْ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُفْتَحُ بِذِكْرِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرُ -أَوْ قَالَ: أَقْطَعُ -». [حسنه النووي وابن حجر].

لذنا نبدأ باسم الله ..

تمهيد

إن وجه العالم تغير بشكل كبير ومتسارع، فيما يبدو أن الصراع تغيرت أدواته، إلا أن الحقيقة لا شيء تغير بشكل جذري!، إنما تغيرت فقط الاهتمامات والاعتماد الحربي على الأدوات الأنسب.

حتى نحن في معادلة الحرب تغيرنا بنسب متفاوتة وبغض النظر إن كانت تغيرات سلبية أو إيجابية، إلا أن التغيرات طرأت وتطرأ بشكل مستمر، نحاول فهم المعادلة لعلنا نستطيع مسك زمام المبادرة مجددًا، سنفشل كثيرًا قبل أن نحقق النجاح الذي لا بُد لنا من تحقيقه في سبيل البقاء، وهنا نقصد بالبقاء كأمة ذات مكانة وليس البقاء بأجساد خاوية من الكرامة والعزة، فلو كانت مجرد حياة أي حياة، لكان من السهل رفع الرايات البيضاء في إشارة للضعف وفقدان الإرادة التي تغذي روح الفداء ثم استمتعنا بالحياة الفانية.

لم يعد يخفى على أحد أن الدور الاستخباراتي صار أوضح من الشمس مع العلم أنه لم يغب لكن كما قلنا، فيما يبدو أن القرن الأخير توجه الاهتمام للاستخبارات وأدواتها بشكل كبير بل وفي بعض الأحيان يكون الدور الوحيد في بعض الحروب!، حقيقة لا أريد الاستفاضة التي ستغنيني عنها فقرات الكتاب، لكن أود لفت الانتباه لأمر قد لا نتطرق له في الكتاب، وهو ما يجعل هذا العلم كحرفة أو مهنة!، وهل الأمر مقتصر على الانبهار ثم حب العمل يكون كافيًا لإتقان الحرب الصامتة كفن من الفنون الفتاكة؟

والجواب ببساطة أنها ليست كذلك، إنما هي موهبة يكتشفها المرء بنفسه وتبدأ في الغالب من مساورته الشكوك، هل هو مصاب بالانفصام؟ فلا مبرر لديه يريح ذاته في معرفة سبب تغير أسلوبه في التعامل ومحاولة جمع المعلومات الغزيرة بطريقة غير لافتة من صديق أصلًا هو غير مفيد! (يظنها الفضول، الفضول فقط)، ثم لماذا يجمع هذه المعلومات التافهة من ذاك الشخص! ولمَّ يختلق جواسيس يراقبونه في الطريق ثم أشغل نفسه في عملية التملص! ، ما الحاجة لديه وما الرغبة التي تحتاج منه أن يشبعها في خلق طرق تجعله يعيش في هاجس رجل

التخفي والتمويه والتضـليل!، وحتى بدون أن يعرف أنها كذلك بالفعل، فقد يبقى من الصـغر وحتى يبلغ من العمر ما يبلغ لا يزال يعتقد أنه نوع من أنواع المرض الطارئ، إلى أن يبدأ الأمر يأخذ منحىً آخر تمامًا وأفكار تطارده قريبة من فطرته الخاصـة وربما فيها مشـاعر جياشـة من الشـعور بالانتماء لدينه أو قوميته أو وطنه، هذا حال معظم رجال الاسـتخبارات أو الأمن، وكذلك حال باقي الحرف والفنون تأتي وكأنها مولودة مع الإنسـان فيسـير في أجوائها ولو لم يمتهنها كانت عسكرية أو سياسية أو إدارية.

"حقيقة إن الكتابات كثيرة وفلسفاتها متشابكة في بحر الأفكار، لكن قليل منها ما يحقق الغاية بأبسـط الطرق وإشـباع الحاجة بأسـهل أسـلوب، ومن الحاجات الملحة أننا نحتاج ثورة فكرية على أكثر النواحي تهميشًا برغم أنها ركائز أساسية في سبيل النهوض".

فلو نظرنا في السـيرة النبوية لوجدنا أن النبي ﷺ علم أصـحابه بشـكل عام كل ما يلزمهم من العلوم الكونية وبمختلف المجالات، لكنه بأبي وأمي كان يختار أشخاصًا محددين لمهام محددة، سـواء كانت في الأمور العسـكرية أو الاسـتخباراتية أو خلف الخطوط أو غير ذلك، وتلك الاختيارات هي أصـل في اكتشـاف القدرات والعمل على تطويرها كما الكشـف عن المهارات واستثمارها فيما يصب بالمصلحة العامة.

فاختياره عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما كرجل استخبارات بمهمة جمع المعلومات وإعداد التقارير للنبي ﷺ يوم الهجرة لم يكن اختيارًا عشـوائيًا، كما كان اختيار عامر بن فهيرة لوجستي يقدم خدمات لضمان نقل المعلومات السرية وتأمين المخبأ السري للنبي ﷺ، واختيار أسماء بنت أبو بكر رضي الله عنهما كراصدة معلوماتية، واختيار عبد الله بن جحش أول أمير سرية استطلاع استخباراتية قادها لجمع المعلومات عن قوافل مكة عند موقع نخلة، لم تكن اختيارات عشـوائية وتكليف مهام إلا مناسـبة لأشـخاص مناسـبين، وسـيمر معنا كثير من الوقائع التي تدل على أن الاختيارات للمهام تطلبت معرفة بمهارات الأفراد ومواهبهم التي تم صقلها وتنميتها لتكون استثمارات نهضت بالأمة وأسـسـت دولة هزمت أكبر الإمبراطوريات في ذلك الزمن، كانت مهارات مشبعة بالعقيدة والإيمان بالله .

إذًا الحرفة الاستخباراتية والحس الأمني والعقلية العسكرية الفذة والحنكة السياسية، كلها موهبة من الله سبحانه وتعالى، تبدأ ظهور بوادرها في بشر دون غيرهم، هنا تحتاج هذه الموهبة صقلًا وتطويرًا لتواكب أساليب التقدم والتطور البشري والتكنولوجي، هذه الفنون العظيمة علم لم يأخذ حقه في الساحة الشامية رغم غزارة الكتب الدالة عليه وبرغم الكوادر الجاهزة للتأهيل والتدريب أو تطوير الكوادر المؤهلة المدربة.

كثير من الأمور التي نحتاجها يبدو أن اللامبالاة تحكمها على الأقل لفترة من الزمن قبل أن نسارع بالاهتمام لعدم تفويت الفرصة وفي الغالب نكون لتأخرنا أضعنا ظروفًا كانت تلزمنا لنحقق اقتناص الفرص بدون الشعور بأن الوقت يداهمنا ويكاد ينفذ ونحن محاصرين بالارتباك الذهني على الأقل، ومع ذلك فنحن كأفراد في هذه الأمة يجب أن نقدم ما يمكن تقديمه مهما حالت الظروف لمتغيرات تحط رحالها في تكبيل كثير من الأفكار، لا بدُ من طرد اليأس من خلال خلق عالم خاص فيه من الأحلام والأماني الكثير مستحضرين نهضتنا الأولى وثقتنا بالله تعالى، سنقع بالأخطاء أو بعبارة أدق يجب أن نختلق عوائق لنجرب قدراتنا في التغلب عليها، وبما أنها مملكة خاصة في خيالنا! دائمًا سننتصر أمام كل المعضلات لكننا سنكتسب مزيدًا من القدرات العقلية والمهارات النفسية، إذًا حتى هذا الفضول الخيالي في أذهاننا ممكن أن نستثمره بما ينفع.

وكوني فردًا وأعيش شيئًا من تلك الحالة إلا أنني برغم الانتصارات المزعومة "في خيالي" المتقد كنت مدركًا تمامًا لحجم النقص عندي، فكلما أقرأ كتاب أو مقال هنا أوهناك، كنت أقف منذهولًا مبهورًا، يا لله ما هذا العلم؟ (الاستخبارات) كيف سخر الإنسان الأدوات فيه؟، سبحان الله ما هذه القدرات؟ (خلف الخطوط) كيف يتزود المرء بتلك القوة والمهارة؟، الانبهار لا يكاد ينتهي حينما أنظر كيف أن الإنسان يتطور بشكل عام وعلى وجه الخصوص في فنون الصراع، بل كلها في كفة والتجربة النبوية في كفة راجحة لا مجال للمقارنة.

في الساحة الشامية خضنا تجربة فريدة من نوعها من الممكن القول بأنها خليط تجارب عدة ساحات، هذه التجربة شارفت على عامها العاشر، مررنا بمراحل ازدهار النصر والفتوحات

للمدن والمناطق، ومنذ عام ٢٠١٦ بدأنا نعيش حالة التقهقر والانحياز لكن مازلنا حتى الآن محافظين على عقيدتنا القتالية رغم كل المخاضات والعواصف وأظن هذا عامل ربح لا يقارن بغيره، حقيقة لا نعلم تحديدًا مآل السنة القادمة لكن نوقن أن النصر آت، فلا ظلم ينتصر ولا مظلوم قائم بواجبه يُهزم، هذا وعد الله تعالى.

من التجارب التي خضناها كانت حرب العصابات وكتبت لها كتابًا أسميته حرب الأشباح "الذئاب" لاقى رواجًا لم أتخيله ففهمت أن المقاتلين في ساحتنا متعطشين لأسلوب قتالي يعيد لهم عزهم بعد أن جربوا تكتيكات القتال الجبهوي أو بأسلوب القوات الشبه نظامية، لكن حز في نفسي أني بحثت فما وجدت من يقيم لي الكتاب أو يقدمه وكانت صدمة بالنسبة لي أن الأمة تفتقر لمنظرين وخبراء في هذا المجال ومن هو موجود فيصعب الوصول له أو يكون مغمورًا لا تصدره مواقع التواصل التي ابتلينا بها!، نفس ذاك الشعور يراودني وأنا شرعت أؤلف هذا الكتاب، فإني أعرف حجمي الصغير أمام من عركتهم التجارب وأعترف بكل فخر أني ما زلت في بداية الطريق الطويل الذي سبقني فيه كثير من أبناء الأمة الذين يعلمهم الله وأجهلهم بجهلي، ومع ذلك فإني أرجو من الله سبحانه وتعالى القبول والنجاح لهذا الكتاب كما كان سابقه وأكثر، وبالنتيجة فأنا أخوض تجربة وأسعى لتقديم واجب غير مقتصر على بضع عشرات من المعارك التي خضتها في ريف حلب الشمالي والشرقي وحلب المدينة الغالية التي أسأل الله أن يرزقنا العودة لها فاتحين، فلدي شعور يتملكني أني أستطيع إنجاز ما هو أكبر من ذلك وأن الوقت يداهمنا ومطلوب منا جهد مضاعف، فعلى الأقل نقدم تجربة جديدة في عالم الحرب وما خلف كواليسها.

حينما مارست أسلوب حرب العصابات أو الأشباح كما أحب تسميتها، وجدتها شيئًا يتغلغل في كل مسامات جسدي حبًا، لكن قهرني حقيقة عجزي عن الإحاطة بها، فكنت كلما تعمقت في العمل بالميدان وجدت أني ألعب على شاطئ يحتاج الغوص بعلم وجرأة، انتقلت للكتب والمقالات واستحضار التجارب من هنا وهناك وكلما تعمقت كلما فهمت أني ما زلت أحبو على شاطئ بحر غامض مليء بالكنوز والأسرار والمعرفة والتجربة والنجاح والإخفاق.

ومن الإخفاقات أننا تجرعنا المرارة في الساحة من عدو ذو باع طويل ليس فقط بالإجرام بل في الاختراق والعملاء والتجسس والحرب النفسية، روسيا الدولة العظمى والقطب الآخر من قوة العالم، نجحت مرات كثيرة في مهامها المظلمة على من بات يُطلق عليهم مصطلح "ضفادع" نسبة لأول شخص ظهر أن روسيا استطاعت تجنيده عكسيًا، ودرج المصطلح على كل من ينقلب على قضية الشعب الثائر ويقف بصف روسيا تحت بند المصالحة.

حرب خفية تحتاج منا مواكبة وتدخلًا سريعًا للعمل بندية أو على الأقل كبح جموح العدو وعدم تركه يسرح ويمرح دون عمل مضاد من نفس النوع إن لم يكن بنفس الأسلوب، ومن هنا بدأت أتسائل لماذا لا يكون لدينا جهاز مخابرات قائم بكل أركانه من عمليات الاختراق والتجسس والتجنيد وخلف الخطوط؟! (أقصد جهازًا متكامل الأركان)، يؤسفني أن قدراتي الآن ما أملك من علم نظري ومع ذلك أرى أنه من الضروري إفراغه على السطور، فهي مجرد محاولة ليكون علمًا نافعًا، أو أفكارًا ناجعة إن وفقني الله، ولست أدري إن كانت ستبلغ أحدًا أم نهايتها أحد رفوف المكاتب القديمة أو على موقع بالكاد زائريه يتصفحون محتواه، ليس مهمًا، فالمهم أني أحاول أن أقدم ما بوسعي في سبيل نهوض أمتي ونيل الحرية المنضبطة لشعبي وأن أرحل بعد ترك أثر نافع ولو شطب اسمي وأخذت الأفكار اليتيمة بالتبني.

أحببت تناول هذا الفن وترجمته إلى كلمات مقروءة بأسلوب سلس ماتع للقارئ حتى لا يشعر بالضجر في ظل فوضى متسارعة من تزاحم الأفكار وبلادة شديدة لدى الأمة تجاه القراءة، ووضعت مجهودي بجعله فقرات ممكن حفظها بسهولة، وبالمناسبة حقيقة عدم حب أفراد الأمة والعرب على وجه الخصوص للقراءة أدركه الأعداء تمامًا فكان لا بُد لهم من طريقة تحقق التخريب الفكري والثقافي وتشوه الهوية، وجدوا الحل من خلال مواقع التواصل الرائجة أو التي تم ترويجها، "فيسبوك وتويتر وانستغرام وسناب شات" ومثيلاتهم، يجد المتتبع المتفطن أنه ثمة خلل مقصود فيما يسمى ترفيه! خلل؟ بل هو خطر سنوضحه بالتفصيل ونقف عند خفاياه في عالم "الخوارزميات" والحزم المغلقة لنوضح أن وراء ذلك مخابرات متنوعة لجهات

عديدة تستطيع بل استطاعت تغيير أمور كثيرة ليس فقط على مستوى العالم الإسلامي بل شملت وطالت أممًا أخرى.

ومن السخرية التي لم أكد أجد لها تفسيرًا، هي ضياع أوقات كثيرة في ما تروج له تلك البرامج في صفحات الحسابات الشخصية كدعاية مفروضة لا يمكن إيقافها تكون عبارة عن مقاطع مرئية "للتسلية" فيمكث المسلم الدقائق الطويلة والساعات دون استخلاص فائدة مرجوة في حين نصف أي مدة يقضيها في مشاهدة هذه الأنواع من العروض الترويجية لو جعلها في القراءة لخلص بشيء مثمر يستزيد في ثقافته ومعرفته وتنمية ذاته، أو حتى لو جعل ربع المدة في مشاهدة مرئيات لدكاترة أو عباقرة مسلمين لأغنته وارتقى بها، مع عتبي على كثير من أولئك الأفاضل في عدم قدرتهم على جذب العوام من خلال طرق سهلة وبسيطة وترك حالة الملل أو تناول المواد بشكل جاف لا تدرك حاجة الحواس، ولا أقول الكل لكن الأغلبية .

فثمة خلف مواقع التواصل وعروضها خفايا غير تشويه الثقافة والدين والتراث وتسطيح عقول الأمة، خلفها شيء من التطبيع الناعم المسيس لصالح أمر يُراد، أو ربما أمر مرتبط بأمور متعلقة بدراسات استخباراتية وأخرى متصلة بعمليات فرز التجنيد بمختلف أنواعه وعلى رأسه التجنيد الابتزازي من خلال تلك الرسائل المجهولة في حقيقتها وفي ظاهرها حسناء تبحث عن اللهو مع شاب، أو شابًا مميزًا يبحث عن فتاة محافظة ليخترق عليها حياتها من أبواب العاطفة الكاذبة، الاحتمالات كثيرة في رأسي بعضها وجدت له جواب من خلال رسائل أصدقاء كانوا يراسلونني للاستشارة أو أحيانًا للخروج من مأزق!، وبعضها ما زلت أبحث لها عن إجابة تشبع فضولي .

وكما قلت وأحب أن أعزز الأمر في نفس كل فرد، فإن تشريفنا بنصرة القضية يتطلب منا صدقًا وإخلاصًا وجهدًا مضاعفًا، وكما ذكرت في الكتاب الأول "حرب الأشباح الذئاب" أن سبيل النهوض يتطلب خطوات مدروسة مبنية على قاعدة سليمة، ولأجل ذلك ومن منطلق قناعة أجد أن أهم خطوات التأسيس الصحيح للحالة الثورية أو الجهادية أو الحراك الشعبي، يكون من خلال إتقان فن التجنيد قبل إتقان السلاح والتكتيكات القتالية دون أدنى شك

عندي، لقد ذكرت في الكتاب السابق أن الحالة الثورية تمر بثلاثة مراحل (التجنيد – التوازن – الحسم) وغيري اختلف معي من حيث التسمية لتلك المراحل، وضحت فيها الخطوط العريضة التي اعتبرتها بمثابة عناوين بديهية في الحرب حيث لا يسع المجاهد والثائر أن يجهلها، ثم شرعت في تخصيص كتاب لكل مرحلة أضع كل جهدي واجتهادي فيه، وها أنا أضع بين يدي أمتي الكتاب الثاني الخاص بالتجنيد كفرع من عمل الاستخبارات إذ لا تجنيد بدون علم وعمل استخباراتي كما أنه لا سلامة بدون الأمن الذي يعتبر جزءً من الحياة الاستخباراتية، بكل حال الاستخبارات من وجهة نظري هي عصب وأساس لكل من يطلب النهوض بأقدام متشبثة غير مهتزة وهذا ما سيستخلصه القارئ.

قسمت الكتاب لثلاثة أبواب بسيطة، بدأت بالاستخبارات وما يتخللها من التجسس والاختراق والمراقبة وغيرها، ثم الأمن وما يتخلله من الاستدراج والاستجواب وطرق الحماية، ثم التجنيد وأساليبه وأشكاله وما يتخلله من مهام وعلى رأسها مهام خلف الخطوط التي وضعت لها الجهد الكبير لأجل أن تكون شاملة مختصرة سهلة العلم والعمل، فما كان جيدًا فهو بتوفيق الله، وما كان غير ذلك: فالمعذرة، فإني أحاول وسأبقى أحاول أن أكون شيئًا نافعًا أو محرضًا لأحد يكون نافعًا.

لا أريد الاستفاضة أكثر من ذلك، لكن أحتاج من القارئ الثقة بأن هذه الكلمات السابقة حرصت على انتقائها لتأسيس قاعدة جيدة لاستقبال المعلومات الآتية والتي جعلت كل الوقت والحرص في وضعها على السطور، فدعونا نبدأ على بركة الله.

"إن لكل مشروع استراتيجية عامة وبعضها له استراتيجيات خاصة، وبكل الأحوال يتخلل الاستراتيجيات تكتيكات متغيرة، هذه التكتيكات تكون مرنة وصلبة، أي بمعنى قابلة للتغيير بحسب ما يتناسب مع المشروع الرئيسي والوصول لتحقيق هدف الاستراتيجية الكاملة، وللاستخبارات والأمن والتجنيد أهداف ضمن الاستراتيجية القتالية في إدارة الصراع، ولعلها بل هي فعلًا عصب الأنظمة والكيانات وحتى الحركات والتنظيمات".

- **الأسيف عبدُ الرحمن**-

باب

الاستخبارات

الاستخبارات

◈ تعريف

في المصطلح الحديث تُعرف بأنها مجموعة أعمال وتقنيات معنية بجمع المعلومات ونقلها بدقة ثم تحليلها لاستخلاص ما هو مفيد وأكيد.

وفي المصطلح العربي القديم فهي مشتقة من (استخبر) أي دقق في الخبر والخبر مقصود به التماس المعلومات وجمعها بدقة، ولكلمة خبر أكثر من معنى في اللغة العربية وذلك بحسب سياق الجملة، فمثلًا يُقال: من يأتيني بخبره؟ ويقصد بها القتل في الراجح وبحسب الحالة. ويُقال جئت بالخبر اليقين ويعنى بها العلم بالأمر والاحاطة به. ويُقال بلغني خبره وتعني في الغالب الموت. ولو قيل: من يأتينا بأخبار القوم، فتدل على استخبار أحوالهم وجسها ومعرفة حالهم أو أحوالهم.

◈ مفهوم الاستخبارات

هو العمل على جمع المعلومات الحساسة والسرية ثم إخضاعها لعملية تحليل وتدقيق بغية استخلاص خبرٍ دقيق غني بمعلومات هامة مفيدة، تمكن القيام بمجموعة إجراءات أو أعمال بالاستناد على ما تم جمعه من خلال رجل أو مجموعة الاستخبار.

يقول الجاحظ في رسالته كتمان السر وحفظ اللسان: "طبيعة البشر ومنذ أقدم الأزمان محبة الأخبار والاستخبار وليس على المرء أن يفهم سبب ذلك".

نعم طبيعة البشر مجبولة على الفضول مع اختلاف النسبة كما مجبولة على حب المعرفة ولا أعني بالمعرفة أي العلم بمعناه الثقافي، بل أقصد بها المعرفة بخفايا الأمور وما نسميه اليوم خلف الكواليس.

هذا الفضول شيء جيد إن استثمرناه قبل أن يستثمره عدو أو خصم، مع هذا الاستثمار تنمية الفطنة والحذر والوعي حتى يمكننا من جعل هذا الفضول أداة ممكن ترويضها ثم جعلها بما ينفع.

لكن في الغالب هي حالة فضــول فوضــوي ليس مقتصــرًا على شــعبٍ أو عرق أو جنس إنما هي مختلفة من بلدٍ لآخر بل مختلفة حقيقة من مدينة لأخرى، فمثلًا قرأت للشــيخ أبو مصــعب الســوري كلامًا عن الشـعب الأفغاني وحبهم المبالغ فيه في خدمة الســائل، ثم يذكر قصـة حول الفضول الكبير عندهم في سبيل إثبات المعرفة وحب الظهور في عيون الآخرين.

إذًا، علم الاسـتخبارات وفن الاسـتخبار قديم، وليس علمًا حديثًا، ولعله كان حاضرًا وبقوة على مر العصــــور، ولعب دورًا كبيرًا في كثيرٍ من الأحداث وتحديدًا على مســـتوى العالم العربي في الصـدر الأول للإسـلام مع التأكيد أن الإسـلام جاء مطورًا لهذا العلم وممارسـته كتجربة عملية وإلا فكما قلنا هو علمٌ وعمل مســـتخدم منذ قديم العصــــور وحتى أن العرب كانوا قد أبدعوا فيه بل وضعوا حتى المصطلحات الدقيقة في تعريفه وتعريف أدواته وصفات رجاله وأشخاصه.
ذكرت كثيرًا من المصــــادر التي ســـردت التاريخ العربي قبل بعثة النبي ﷺ، أن العرب مارســـت العمل الاســـتخباراتي قبل نحو أربعة قرون من البعثة، وتحديدًا في جزيرة العرب حيث كانت قبائل قحطان تسـتخدم العملاء والجواسـيس ضـد بعضـها وضـد القبائل الأخرى، فالقبائل العربية حينها كانت مشـغولة بعمليات الغزو والغارات طلبًا لتوسـعة النفوذ أو للماء الذي كان شــحيحًا، أو طلبًا للغذاء، فكانت تحرص القبائل على تقييم خصـــومها قبل الغزو أو الإغارة وهذا دفعها للدخول في باب العمل الاستخباراتي وتطلب منها منافسة في التطوير البدائي.
حتى أن العرب كانوا دقيقين في الوصـــف والـدلالات، فمثلًا كلمـة جـاســـوس في مصـــطلح الاسـتخبارات الحديث والغربي تحديدًا تشـير إلى العميل بغض النظر عن العمالة لصالح جهاز المخابرات نفسه أو لجهة معينة فهي سيان باللفظ، أما في اللغة العربية فكلمة جاسـوس تشـير إلى وصـــف ســـلبي ومعناها الخيانة وتتبع الزلات أو البحث عن الأمور المشـــينة، وكلمة ناموس تشـير للإيجاب ولها دلالات كثيرة منها تشـير للشـخص الذي يمتلك اطلاعًا واسـعًا ومعرفة غزيرة ومعلومات غنية ومنها الفهم والحكمة والمعرفة الخاصـــة، وتأتي بمعنى الاطلاع على خفايا السلوك لدى الآخرين .

نلاحظ الفرق في التعريف والمعنى وتشـابه الكلمتين (جاسـوس – ناموس) برغم أن العمل والهدف قريب من بعضه، حتى في عصرنا هذا فكلمة جاسـوس منبوذة غير محببة فهي في الخاطر تدل على الخيانة بمفهومها الدارج كما أن كلمة ناموس تدل على الشـرف والوفاء والعهد.

حتى في الكتاب الكريم جاءت كلمة التجسس في موضع منبوذ للتحذير منه فقد قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ». [الحجرات].

وفي الكتاب الكريم كذلك جاءت مشروعية العمل الاستخباراتي لكن وضح وبدقة مصطلحات هي من أدوات العمل فقال تعالى: يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ. [يوسف]. وسيأتي معنا توضيح المصطلحات وبدقة مع ضوابطها ومتطلباتها.

لما جاء الدين الحنيف وبُعث النبي ﷺ، فلم يهمل هذا الجانب بل احترفه وطوره وأبدع فيه أيما إبداع، فكان لا بُد لقيام دولة مسـلمة أن تقوم على ركائز وهذه الركائز تتطلب خطوات ومن أهم تلك الخطوات الدخول في علم الاسـتخبارات والأمن والتجنيد، فعمل به النبي ﷺ، بل وضـع له من خلال الشـريعة مبادئًا وقيمًا وأسـسًا تتناسـب مع الدين الحنيف وهذا ما يميز العمل الاسـتخباراتي الإسـلامي عن غيره، بالأخلاقيات والضـوابط التي لا يعترف بها أي جهاز مخابرات لا قديم ولا حديث من غير الدين الإسـلامي، حتى حين نزل القرآن على النبي ﷺ، نزل ليضـع له الخطوط العريضـة في كل أعماله الحربية والأمنية والاسـتخباراتية وليس فقط التشريعية .

في تفسير قوله تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ». [النحل]. يقول الأوزاعي بأنها السيرة النبوية، نعم فالسُـنَّة النبوية جاءت لتفصل وتشـرح الخطوط العريضـة لكتاب الله وترجمه واقعًا وعملًا بما يجعله مفهومًا لعموم البشـر، فمثلًا القرآن ذكر فرض الصـلاة ولم يحدد

عددها وشكلها فكانت السُنَّة تفصيلًا لها بوحي من الله تعالى، وكذلك العمل الاستخباراتي الذي نحن بصدده جاء في الكتاب الخطوط العريضة للعمل به، ثم كان مصدرنا الثاني السُنَّة ثم جاء المصدر الثالث وهو الفقه ليبين ويواكب التطور والأحداث المتغيرة بتغير الزمن معتمدًا على استنباطه من مفهومه للكتاب والسُنَّة.

وقد اشتهر العرب كما ذكرنا بدقة ألفاظهم ومصطلحاتهم لإيصال المعاني بشكلٍ واضح ودقيق، وفي هذا الخصوص يقول ابن كثير رحمه الله:" ولا تجسسوا أي على بعضكم بعضًا، والتجسس غالبًا يطلق في الشر ومنه الجاسوس، وأما التحسس فيكون غالبًا في الخير كما قال تعالى إخبارًا عن يعقوب: يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه. وقد يستعمل كلًا منهما في الشر كما ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: لا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا ".

وحتى كان هنالك مصطلحات وافرة تدل على معنى عمل رجل الاستخبار فمنها "العين"، أي يطلق على ما نعرفه اليوم باسم الجاسوس بالعين، وتحمل الصفة سلبًا وإيجابًا أي بمعنى أن صفة العين تطلق على المتقصي للأخبار إن كان لصالح صديق أو عدو، لن نتعمق أكثر فاللغة العربية وافرة بمصطلحات الاستخبار وعمل المخابرات وسيأتي معنا الكثير من المصطلحات الدالة على العمل نفسه.

بعض ما سبق والكثير مما سيأتي كلها تصب في أمر واحد : الاستخبارات من أكثر الحرف التي لاقت اهتمامًا في العصر القديم والحديث، ومن أكثر أساليب الحرب استخدامًا وبروزًا، ودورها لم يكن لينتهي بل متجدد متطور بشكلٍ مستمر، من آلاف السنين إلى بعثة نبي المسلمين ﷺ إلى عهدنا، ثم إلى خروج المسيح الدجال وإرسال العيون (الاستخبارات) لتتحقق من الخبر، وهذا ما أدركه وفهمه الشرق والغرب العرب والعجم المسلمين واليهود والنصارى وباقي الأديان وحتى اللادينيين، لكن كان الفارق أن منهم من ترجم فهمه في صب الجهد لتطوير وتعزيز وتنمية الحرفة الاستخباراتية، ومنهم من ركن لغيره ومنهم من تغافل عنها، وللتأكيد وليس انحيازًا بل حقيقة تاريخية يقرها الكثيرون من مختصي هذا الفن، أن نبي الله محمد ﷺ هو

أعظم رجل أبدع في هذا الباب وطوره وأثرى عليه وبدليل نجاحه بقيام دولة عظيمة من ضعف وقلة معتمدًا في بدايتها وحتى ظهورها على العمل الأمني والاستخباراتي وسيأتي معنى كيفية ذلك لنستخلص مبادئ العمل .

"يقول صموئيل هنتغتون في كتابه صراع الحضارات: إن محمدًا كان مقاتلًا عظيمًا وقائدًا عسكريًا محنكًا"، والنبي ﷺ، ليس بحاجة لتزكية من بشر فهو أرفع وأشرف من كل المخلوقات ويكفيه أن قال فيه سبحانه وتعالى :« وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ».[القلم].

نعم كان قائدًا محنكًا عبقريًا ولو وجد في اللغة ما هو أعمق من كلمة عبقري لتشرفت الأوصاف بالنبي العظيم، فقد عرف كيف ينهض من ضعف ليقيم دولة وكيف يُخرج من ضعفاء، فرسان استطاعوا غزو أعظم إمبراطوريات عرفها تاريخهم، واليوم بعضها يتجهز ليعود بعد أن أهملت الأمة كثيرًا من جوانب شريعتها ومنها بل أهمها بعد الحكم بما أنزل الله كان العمل الاستخباراتي قبل العسكري والأمني والاجتماعي والإداري.

"يقول إيغرايم هاليفي رئيس الموساد الإسرائيلي الأسبق : أحد أهم ما يميز الشرق الأوسط خلال آخر 100عام هو دور المخابرات والأجهزة الأمنية داخل الشرق الأوسط وخارجه" .

لو دقَّقنا بمقصده "آخر 100 عام" نلاحظ أنه يقصد منذ انتهاء الدولة العثمانية التي كان من أسباب سقوطها بالفعل العمل الاستخباراتي ضدها وتجنيد العملاء في رتب عالية من خلال المال أو الابتزاز، ثم دخلت الأمة في هذه المئة عام بعصر الضعف والتفكك والانحلال والضياع وكأنما ما مرَّ عليها ذل كما هي فيه الآن، وهذا ما عناه "هاليفي" هي القدرة على التحكم بمنطقة الشرق من خلال الجواسيس والعملاء، بالرغم أن الدولة العثمانية كان لها جهاز مخابرات ورجال استخبارات اعتمدتهم كموظفي الجباية وبعض التجار، لكنها في أواخر عهدها فشلت في مكافحة التجسس والتجنيد العكسي .

ليس "إيغرايم هاليفي" الوحيد ممن أشار لدور المخابرات بتغيير ميزان القوى وتحديدًا بين العالم الإسلامي وباقي الديانات، بل قالها الكثيرون متفاخرين بذلك منهم "هنري كرامبتون" ضابط السي آي أيه، وحتى اعترف بها "عبد العزيز الأسمري" ضابط مخابرات سعودي لكنه

حاول حشر دور المخابرات العربية بأن لها ثقل في هذا التغيير وهذا كلام غير منطقي ولا حقيقة له فيما يقصد، أما الحقيقة الجلية أن المخابرات العربية كان ومازال دورها وظيفي للأسف تخدم أجهزة غربية محاربة.

وفي محاضرة تم تسريبها لعميل المخابرات الروسية، العميل "يوري بيزمينوف" الذي لجأ للولايات المتحدة الأمريكية هاربًا من روسيا، وصار اسمه "توماس شومان"، يقول: "إنَّ القتال على أرض المعركة هو أكثر النتائج عكسية وهمجية وغير فعالة، تعلمون أن الحرب هي سياسة لاستمرارية الدولة، إذا كنت تريد النجاح في تنفيذ سياسة الدولة الخاصة بك وبدأت القتال فهذه أغبى طريقة تفعلها، أعلى فنون الحرب هو عدم القتال على الإطلاق، بل هو تخريب أي شيء ذو قيمة في بلد عدوك، حتى يأتي الوقت الذي يكون فيه إدراك عدوك للحقائق مختلًا لدرجة أنه لا يراك عدوًا له وأنَّ نظامك (حضارتك وطموحاتك) بنظر عدوك بديل، إن لم تكن مرغوبة ستكون على الأقل عملية، اللون الأحمر أفضل من الموت (اللون الأحمر الاتحاد السوفيتي) وهذا هو الهدف النهائي آخر مراحل التخريب، بعدها يمكنك إسقاط عدوك بسهولة دون أن تطلق طلقة واحدة إذا كان التخريب ناجحًا".

ويضيف قائلًا: "التخريب ببساطة يتكون من أربع مراحل زمنية محكمة، أول مراحل التخريب هي "مرحلة إسقاط الأخلاق"، تأخذ بين 15 إلى 20 سنة لكي تدمر أخلاق مجتمع، لماذا 15 – 20 سنة؟، هذا هو الوقت الكافي لتعليم جيل من الطلاب أو الأطفال، لتكوين منظور الأيديولوجية الشخصية، على ماذا تشتمل؟ تشتمل على التأثير بطرق مختلفة، التخلخل، أساليب دعائية، اتصال مباشر، من مختلف المجالات التي يتشكل أو يصاغ بها الرأي العام، مثل الدين، والنظام التعليمي، والحياة الاجتماعية، والإدارة، ونظام تطبيق القانون، وأخيرًا هناك مجموعات صغيرة من عملاء الدول يُشتَرون".

ويكمل قوله: "في مرحلة تدمير الأخلاق سيكون من الواضح وجود اتجاهات في كل مجتمع في كل بلد ستذهب في الاتجاه المعاكس للأخلاق الأساسية والقيم والمبادئ، لاستغلال هذه الحركات والاستفادة منهم هو الغرض الأساسي لمسبب التخريب، لذا لدينا الدين، ولدينا

التعليم، ولدينا الحياة الاجتماعية، ولدينا هيكل السلطة، ولدينا نقابات العمال، وأخيرًا لدينا القانون والنظام، هذه هي المجالات التي يتم فيها التخريب، ماذا يعني هذا بالتحديد؟، في حالة الدين: دمِّرهُ من خلال السخرية عليه، استبدله بمختلف الطوائف والعبادات والمعتقدات التي تلهم الناس ما إذا كان الدين ساذجًا أو بدائيًا أو غير مهم حقًا طالما أنهم في الأساس تقبلوا أن العقيدة الدينية تتآكل ببطء وتأخذ الناس بعيدًا عن الهدف الأساسي للدين وهو أن تبقي على اتصال بخالق أعلى، ولهذا لا بُد من استبدال المنظمات الدينية المقبولة والمحترمة بمنظمات وهمية، اصرف الناس من الإيمان الحقيقي واجذبهم إلى أنواع الديانات المختلفة، أما في التعليم فاصرف الناس عن تعليم شيء بناء واقعي وفعَّال، بدل الرياضيات والفيزياء واللغات الأجنبية والكيمياء، علمهم تاريخ حرب المدن، الغذاء الوطني، الاقتصاد المنزلي، حياتك الجنسية، أو أي شيء طالما أنه يأخذك بعيدًا"، ويستطرد كلامه : "انتزع المبادرة من الشعب، انزع منهم المسؤولية حول الروابط التي أُسست على الوطنية (الانتماء) بين الأفراد، استبدله ببيروقراطية مصطنعة تتحكم على أجسادهم".

إذًا؛ واضح أنَّ كثيرًا من الدول والأمم توجهت لحرب جديدة في القرن الحالي، في حين أن الأمة الإسلامية أهملت هذه الحرب أو ربما أفرادها وطلائعها خلقوا أعذارًا لعدم خوضها كما ينبغي، وها هي النتائج واضحة تتجلى من خلال حجم الضعف والهوان والتأخر الكبير، مما يجعلنا نقف وقفة حقيقية لنأخذ نفسًا عميقًا يتيح لنا إعادة الحسابات مستحضرين الإيمان بالله والتوكل عليه بحق وترك التواكل وإرضاء النفوس بكلمات روحانية لا نؤمر بها على هذا الوجه من التأخر والتراخي، بل من المفترض أن تكون وقودًا وعامل تحفيز للدخول في معترك الحرب الخفية الصامتة، وأجزم أننا قادرون دون أدنى شك، فيكفي أن أعظم من سجل أكبر النجاحات في هذا النوع من الحروب هو النبي محمد صلى الله عليه وسلم، نبي المسلمين ورسول الله للناس كافة، فترك لنا إرثًا ثمينًا يمكننا أخذه والتعمق فيه ثم تطويره بما يتناسب مع الزمان والمكان والظروف .

جهاز المخابرات

◈ تعريف

هو جهاز أو مؤسسة تعتبر من ركائز الدولة، يختص بجمع المعلومات وتحليلها أو استخدامها بطريقة ما، وفي الغالب يعمل الجهاز وفق سياسة الدولة أو لصالح حزبٍ سياسي فيها، أما في الدين الحنيف فالاستخبارات تستخدم لصالح مصلحة الأمة وفق الشريعة.

◈ مفهوم جهاز المخابرات

هو جهاز يقوم بجمع المعلومات عن الأشخاص والكيانات والدول الأخرى المعادية بدافع محاولة الاختراق والوصول لأهداف معينة وفي نفس الوقت بغية كشف العملاء المزروعين لصالح تلك الدول لمكافحتهم أو تجنيدهم، وفي الشريعة الإسلامية فلا يجوز التجسس على المسلمين تحت ذرائع ومبررات، إنما يجب أن يكون التجسس للخارج والتحسس فيما يكون لحماية الأمة في الداخل، فهناك فرق وضحناه بين التجسس والتحسس.

فمهمة الجهاز حماية الوطن/الأمة ومكافحة التجسس المعادي مضافًا لذلك: السعي لاختراق بلدان أو منظمات معادية أو متربصة.

المفهوم الدارج للمخابرات والذي لا يتناسب في تفاصيله مع الدين الحنيف بل يتصادم بكثير من فقراته مع الضوابط، وكما أن بعض الفقرات لا تتناسب فجاء في الدين الحنيف ما يعوض عن ذلك بل يكون أسلم وأفضل من حيث حقوق البشر الذي صانها الدين الحنيف وداستها المنظمات الغربية التي تدعي حمايتها لحقوق الإنسان وهي أكثر من تعدى على الحقوق بل مزقها وشوهها.

فورد في كتاب الله تعالى: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تفضيلا"». [الإسراء].

فالدين الإسلامي صان حقوق جميع البشر وكرمهم وفق ضوابط الشريعة، وهذه الضوابط كانت حاضرة في الأجهزة الاستخباراتية الإسلامية، في حين لم تترك الأجهزة الاستخباراتية الأخرى شيئًا يهين البشر ويخترق حقوقهم إلا وفعلته.

في هذا الصـــدد ســـنذكر بعض أشـــهر الوكالات وأجهزة الاســـتخبارات، دون أن نســـى أجهزة المقاومة الإسـلامية وبعض فصائل الثورة السـورية المجاهدة، فقد برعت براعة ملفتة للنظر في كثيرٍ من العمليـات والمواقف مما يؤكـد أنـه من الممكن دخول هـذه الحرفـة برغم ضـــعف الإمكانيـات والموارد المادية والحصـــار، فـالأمر يتطلب أدمغة وعقول كرأس مال بدايةً وهي موجودة وبقوة وكثرة بفضل الله.

يُعد جهاز المخابرات من أهم أســـباب النصـــر، حيث أن الحروب تحتاج مقومات، منها: جمع المعلومات، ومعرفة القدرات لدى العدو، كما تحتاج تحصين الجبهة الداخلية من الجواسيس والعملاء والخونة، وكل ذلك يحتاج ليس فقط لجمع المعلومات، بل جمعها من عدة مصادر ثم مقاطعتها مع بعضـها ثم تحليلها لاسـتخلاص الدقة ثم تقديم المعلومات النهائية في أسـرع وقت للجهة التي تحتاجها كانت عسكرية أو سياسية أو أي فرع من الدولة.

جهاز المخابرات هو الحصـــن الفعلي للدولة، وذلك من خلال الوصـــول إلى ما لا يســـتطيع أحد الوصـــول له من المعلومات الحســـاســـة والســـرية على الصـــعيد الداخلي والخارجي، مما يمنح الدولة الوقت المناسب لوضع الخطط أما الدفاعية أو الهجومية المناسبة.

المخابرات أصل الرباط في سبيل الله، بل يقع على عاتقهم اليقظة والحذر والاستنفار على مدار الوقت لتلقي أي معلومة قد تكون مفيدة أو هامة وقد يكون من شـــأنها تغيير موازين المعركة، ولقد حصل ذلك مراتٍ ومرات عبر التاريخ الإسلامي وغيره.

جهاز المخابرات ركيزة من ركائز الدولة والتي لا تقوم بدونه، يقول الخليفة أبو جعفر المنصـور: "مـا كان أحوجني أن يكون على بـابي أربعـة نفر لا يكون على بـابي أعف منهم، قيـل لـه يـا أمير المؤمنين: من هم؟، قال: هم أركان الملك لا يصـــلح الملك إلا بهم كما أن الســـرير لا يصـــلح إلا بأربعة قوائم، ولا يصلح إن نقصت واحدة، وهي: أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني، والرابع (ثم عض الخليفة على أصـــبعه الســـبابة ثلاث مرات يقول كل مرة آه .. آه)، قيل له يا أمير المؤمنين من هو الرابع؟، قال: صـــاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة".

ويقصـــد حبه للعمل الاســتخباراتي والدقة فيه على الصــعيد الداخلي، أما عن رأيه في الاستخبارات على الصعيد الخارجي فقال: "لا يصلح السلطان إلا بالتقوى، ولا تصلح رعية إلا بالطاعة، ولا تعمر البلاد بمثل العدل، ولا تدوم نعمة السلطان وطاعته إلا بالمال، ولا تقدم في الحيطة بمثل نقل الأخبار".

الاســتخبارات الســلاح الأنجع بيد الدولة، حيث يكون جهاز المخابرات قد بنا قاعدة بيانات وجمع فيها كل ما أمكنه من معلومات ليس فقط عن العدو المباشــر، بل حتى عن المحايدين وكل من كان له احتمالية مواجهته ولو بعد حين، ولطالما ســمعنا انهيار دول كان الســبب الرئيســي وراء الأمر الدور الاســتخباراتي القوي، وأخرى هُزمت بأقل التكاليف رغم نجاعتها العسكرية وقوة الترسانة، فيبقى جهاز المخابرات السلاح السري المفاجئ المربك، ومجرد وجوده يسبب شيء من الهزيمة النفسية لدى الأعداء.

ولا شك له أهميات أخرى وكثيرة، لكن تحقيق النجاح يعتمد على القدرة في الانضباط بالمبادئ والتركيز على الأهداف ثم المهارة في الأسـلوب، ولعلنا نذكرها بشـكلٍ مبسـط سـهل حيث يمكن لأي قارئ فهم الأمر بل حتى الحفظ بغية التحصــين أو التطوير، ولأجل ذلك ســنحاول اعتماد الفقرات بسرد المخاطبة، أو كأنها درس أكاديمي.

أجهزة المخابرات

أشهر أجهزة المخابرات العالمية:

1- وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (سي آي أي)
2- جهاز المخابرات الروسي أمن الدولة (كي جي بي)
3- جهاز المخابرات البريطاني المكتب السادس (أم آي 6)
4- جهاز الموساد الإسرائيلي
5- المخابرات الصينية
6- وكالة الاستخبارات الفرنسية
7- جهاز المخابرات الألماني
8- صعود وتطور أجهزة إسلامية

برزت على فترات من الوقت أجهزة مرافقة لتلك الشهيرة ومنها جهاز المخابرات المصري وشعبة المعلومات العسكرية السورية، لكن فيما يبدو بروزهم وظيفي أو كان خارج الإطار سرعان ما تمت إعادته للحظيرة أو ربما بالأصل كان لهم دور مخططًا له مسبقًا، مع وجود بعض محاولات التمرد، في الوقت الحالي لعل جهاز الاستخبارات الخاص بالمقاومة الفلسطينية قد برع براعة كبيرة في السنوات الأخيرة واستطاع إثبات وجوده بقوة، وحقيقة كثير من أعماله المهرة تجعلنا نقف وقفة حقيقية للتأكيد على أننا كأمة مجاهدة قادرين على التفوق برغم الإمكانيات المتواضعة والحصار الجغرافي والاقتصادي والعسكري والسياسي، كثير من أفكار حماس قد لا يتفق معها أبناء الأمة وبخاصة طريقة تعاطيها مع العدو الإيراني الفارسي، لكن هذا لا يمنع من كونها مقاومة سنية قهرت العدو الإسرائيلي واقعًا من خلال التطور العسكري والاستخباراتي، ولا يمكننا الحديث عن الاستخبارات دون المرور على تجربة حماس في هذا المعترك، وكذلك الفصائل السورية نجحت إلى حد ما، ومن الواضح أنها ما زالت تتطور بشكل متوسط إلى الجيد، فقد حققت الكثير من خلال إفشال عمليات تخريبية معادية أو اعتقال خلايا ولعلنا نستطيع الوقوف على بعض تلك العمليات إن سنحت لنا فرصة اللقاء بالمختصين

لمعرفة تفاصيل أهم عملياتهم التي كان لها أثر بغض النظر عما نُشر في العام أو تقدرت المصلحة بالسكوت عنه .

دعونا نتوقف وقفة سريعة للتعريف بهذه الأجهزة وبشكل مختصر مضافًا لها بعض أهم أعمالها، حتى نقارن الأمر فيما سنذكره من التجربة الاستخباراتية الإسلامية ولن ننسى ذكر الخطوات والمبادئ التي تنمي موهبة العمل الاستخباراتي والأمني عند الأشخاص الذين يجدون ميولًا للدخول في عالم السجلات الخفي أو الحرب الصامتة.

◈ وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية *CAI*

مركزها أمريكا ولها أفرع في بلدان عدة، تأسست عام 1947م. في الشهر التاسع على يد "داويت أيزنهارو-وليام دونوفان- ألين دالاس- هاري ترومان"، آخر تقدير لعدد الموظفين حول العالم بلغ 21ألف موظف لدى الوكالة بميزانية بلغت المليارات من الدولارات، وتعتبر الوكالة خلفًا للوكالة (OSS) التي كانت أثناء الحرب العالمية الثانية بهدف تنفيذ عمليات خلف الخطوط والعمل الدعائي الموجه، أما مكتب التحقيقات الفيدرالي (FBI) فيعتبر مسؤولًا عن الأمن القومي ومكافحة التجسس داخل الحدود الأمريكية .

المدير التنفيذي للـ(CIA) يشغله "جينا هاسبل"، يقع المقر الرئيسي للوكالة في مقاطعة فرجينيا.

مهمة الوكالة ممكن تقسيمها لثلاث مهام:

1- جمع المعلومات عن الحكومات والأفراد والشركات.
2- تحليل المعلومات الواردة ومقاطعتها مع معلومات واردة من جهاز أمريكي آخر.
3- الإشراف على الأنشطة التكتيكية لموظفيها أو للجيش أو الحلفاء.

الهدف هو تقييم الوضع واستنقاء المعلومات الدقيقة لتقديمها لكبار سياسي الدولة وصانعي القرار لتقييم الوضع الخاص بالأمن القومي.

للوكالة أذرع كثيرة ومفاصل مختلفة منها مركز عمليات المعلوماتية الإلكترونية واستطاعت إنجاز مهامٍ كبيرة وكثيرة ستأتي معنا فيما بعد.

تعتبر الوكالة من أهم الأجهزة الخاصة للتجسس ومكافحة التجسس كما أن الوكالة قبل أحداث تفجير برجي التجارة ليس كما بعده في عهد "جورج بوش الأبن"، لكن يبدو أن "باراك أوباما" كان أكثر اهتمامًا من سلفه فكان يريد تغيير وجه الحرب ضد أعداء أمريكا بحسب كتاب حروب الظل لكاتبه "مارك مازيتي"، ربما بالفعل توجه أمريكا بشكل عام بعد أحداث سبتمبر تغير وخصوصًا في عهد "أوباما" تطورت أكثر، لا شك أن التعاون الاستخباراتي الأمريكي - بريطاني (سي آي أي - mi6) ساهم بشكل كبير في تغيير وجه الحرب الخفية، حلفاء قدامى، بل ربما أكثر من ذلك حينما نعلم أن الجهاز البريطاني المتعاطف مع أمريكا بعد أحداث سبتمبر وضع كل إمكانياته من المعلومات السرية أمام وكالة الاستخبارات الأمريكية حول المعلومات عن تنظيم القاعدة، مع العلم بوجود بعض التذمر السابق لضباط بريطانيين من الأمريكان أثناء تدريبهم كعناصر مخابرات أثناء الحرب العالمية الثانية، "الأمريكيين يملكون من المال أكثر ما يملكون من العقل" ترددت من ضباط تنفيذيين بريطانيين، لكن يبدو أن الأمريكان لن يدوم وقت طويل حتى يبهروا البريطانيين!، من الملاحظ ومن خلال المذكرات هنا وهناك أن الفرق الأكبر بين البريطانيين والأمريكيين في المجال الاستخباراتي، أن الأمريكيين يطمحون لنتائج سريعة وذلك بعكس البريطانيين الذين يعتمدون الروية وعدم الاستعجال، وربما الإلحاح في تطوير المنظومة الاستخباراتية والجهاز بالكامل وتوسعته كان ضرورة بعد عملية مخلب النسر التي أظهرت أمريكا بشكل بائس في عام 1980م. حيث كان الضعف الاستخباراتي ظاهرًا، الذي أدى لفشل مهمة تحرير الرهائن من السفارة الإيرانية .

ومع ذلك فقد أنجزت الوكالة العديد من العمليات الاستخباراتية والانقلابية وعمليات الاغتيال في عدد من البلدان أهمها في غرب أفريقيا والشرق الأوسط والأدنى وكان دورها الأبرز في أفغانستان ونشاطها في العراق رغم اعتراف بعض ضباط الوكالة بالفشل الاستخباراتي المتعمد الخاص بالعراق وتقارير الأسلحة النووية.

تستخدم الوكالة في عملها الطائرات التجسسية والسفن البحرية بالإضافة لعمليات الاختراق الإلكترونية والهجمات البرمجية، كما تستخدم العملاء من مختلف طبقات المجتمع وتحرص على تجنيد الدبلوماسيين الأجانب.

للوكالة حسابات عبر مواقع التواصل فلم تتخلف عن مواكبة الثورة الإلكترونية في عالم الواصلات الاجتماعية بل تنشر عن رغبتها لتجنيد عملاء من مختلف أنحاء العالم.

حين نتحدث عن أهم وكالة استخبارات وأخطرها، فلا بُد لنا المرور على أحد أهم ضباطها وأكثرهم خبرة وخطورة كان قد مر بهذه الوكالة.

"هنري كرامبتون" صاحب الكتاب الشهير -فن التجسس-، خدم الولايات المتحدة أربعة وعشرين عامًا، عشرون عامًا خدمها في عالم الاستخبارات والتجسس الخفي وأربعة سنوات كسفير للولايات المتحدة برتبة منسق لمكافحة "الإرهاب"، وكان له دور بارز في حرب أفغانستان عام 2001-2002 بدور (المسؤول عن حملة السي آي أيه في أفغانستان).

كان كثيرًا ما يتحرق لإقناع الشعب الأمريكي بدعم المخابرات قبل أحداث برجي التجارة العالميين، حيث كان هناك استياء شعبي وحتى من السياسيين والصحفيين من دعم جهاز المخابرات بمليارات الدولارات!، كانوا يشككون بحاجة هذه الميزانية الضخمة، بعد أحداث 9/11 أدركوا حاجتهم للاستخبارات فارتفعت الميزانية حتى وصلت نحو سبعة وخمسون مليارًا في حلول عام 2011، ميزانية ضخمة لكن الحقيقة نجحت المخابرات في تطوير عملها وتوسيع دائرة العمل.

"هنري" الذي كان يرى غزو أفغانستان ضرورة ملحة وخطوة ناجحة، وددت اليوم أن أعرف رأي هذا الضابط المحنك بعدما مرغت طالبان أنف جيشه واستخباراته، برغم حنكته وتاريخه الناجح في هذا الفن لكن يبدو لي أنه يظهر الآن بمظهر الأبله، لكن كانت نظرته ثاقبة بخصوص غزو العراق الذي أسماه بالغزو الوقح، يرى أن الغزو نسف التعاطف الدولي مع أمريكا ويرى السبب في الغزو الوقح "الفاشل" ضعف الاستخبارات في تقدير الأمور من خلال جمع المعلومات.

"هنري" المفتون في علم الاستخبارات الناجح فيها، يرى أن الاستخبارات أشرف حرب كونها أقل خطأ في عمليات قتل المدنيين وانتقد التوجه العسكري للجيش الأمريكي بكثرة، دافع عن فنه

قائلًا: "لماذا يشوه رجال المخابرات في حين يصفق الجميع ويوافق على طائرة تخرج لتقتل شخص من تنظيم القاعدة قد يكون معه زوجته وأطفاله وبالقرب منه مدنيين!".
يقصد عملية اغتيال أسامة بن لادن، ويقصد في قوله التكاليف الباهظة التي يدفعها الشعب الأمريكي، في حين عمليات المخابرات أقل تكلفة وأكثر كفاءة.

أشغله كيفية إقناع الشعب والسياسيين بالاعتماد الكامل على المخابرات، قال: "وتبقى المفارقة ومفادها كيف يمكن لضابط في -سي آي أيه-على الشرعة الثقافية للمحترف الساكت والسعي في الوقت نفسه إلى إطلاع العامة وتوسيع المدارك ويدعم بذلك مهمة الاستخبارات؟، وأنا أسعى إلى إيجاد التوازن المناسب بين التحفظ المشرف لجاسوس متقاعد وبين المسؤولية العامة لمواطن نشط".

وهنا يكون هنري قد فهم معنى التجنيد الفكري وأدرك أهميته والحاجة الماسة له في وقت مبكر من تاريخ العصر الحديث حيث فيما بعد بالفعل بات التجنيد الفكري وقبله العبث بالعقول لتهيئتها قد نجح للأسف.

هنري ليس الضابط الوحيد الذكي لكن حقيقة ما لفت انتباهي له والاهتمام بدراسة حالته والتعمق فيها، هو الموهبة التي تحدثنا عنها في مقدمة الكتاب، والتي هي بالفعل أساسًا وركنًا في رجل المخابرات، فهذا الضابط ولد موهوبًا في حبه للعمل الجاسوسي الاستخباراتي بل حاول الانتساب للسلك الاستخباراتي في سن الثانية عشرة! تم رفضه بكل تأكيد، عاود المحاولة بعد سنوات لكن فشل، كرر المحاولة حتى أدرك موظفي المخابرات أنه مصر على الانتساب ولديه موهبة، فتم قبوله ليترقى بعدها في المناصب خلال وقت قصير.

◈ جهاز المخابرات الروسي KGB

يعتبر من أكثر أجهزة العالم إجرامًا من خلال رصيد عالي في عمليات الاغتيال بطرق متنوعة وأهمها باستخدام تركيبات كيميائية معقدة وقاتلة، تأسست -كي جي بي-عام 1917 وبقيت قيد النشاط تحت هذا الاسم إلى عام 1991 حيث تم استبدال الاسم ليصبح (FSA) اختصارًا

لمكافحة المخابرات الفدرالية، ما لبثت أن تغير الاسم مجددًا عام 1995 ليصبح (FSB) اختصارًا لمعنى "خدمات الأمن الفيدرالي للاتحاد الروسي" .

كان من مهام الجهاز حماية القادة السوفيتيين داخل وخارج البلاد، والإشراف على قوات حرس الحدود ومراقبة وتحليل سلوكيات المجتمع السوفيتي.

يعتبر الجهاز من أكبر الأجهزة المخابراتية في العالم، حيث تذكر عدد من المصادر الشحيحة حول معلومات الجهاز أنه بلغ عدد موظفيه نحو 480000 منهم 200000 فقط في حراسة الحدود، أما العملاء الذين استطاع الجهاز تجنيدهم فليس من مصدر استطاع الوقوف على رقم دقيق.

من أهم أعمال الجهاز كانت القدرة على تحصيل سر القنبلة النووية من مشروع منهاتن كما استطاع الحصول على التكنولوجيا المتطورة أولًا بأول من العالم الغربي، كما تشير تقارير إلى قيام جهاز المخابرات الروسي بنقل أسلحة عراقية إلى سوريا إبان الحرب الأمريكية على العراق.

من أشهر العملاء كان "كيم فيلبي" الذي قال عنه خبراء الاستخبارات الروس أنه لو لم يتم اكتشافه برفع الستار عنه لوصل لمنصب مدير جهاز الاستخبارات البريطاني!، لكن فيما سيأتي ثمة من وصل لهذا المنصب بالفعل وكان جاسوسًا للسوفيت، كما يعتبر بوتين الرئيس الحالي لروسيا الاتحادية أحد أهم العملاء السابقين للجهاز -كي جي بي-.

استطاع الجهاز اختراق الاتصالات الخاصة ل "هنري كسنجر" أحد أهم سياسي أمريكا، وتمكن من التسجيل والاستماع لمراسلاته السرية والشخصية، كما أن الجهاز يحتفظ بملايين السجلات المحادثية والمعلومات الشخصية لصحفيين غربيين وعرب وشخصيات مجتمعية يسعى من خلالها إلى عملية تجنيدهم من خلال الابتزاز والضغط عند اللزوم لحاجتهم.

هذه أبرز المعلومات بل جلها حول الجهاز الذي يعتبر غامض والمعلومات حوله شحيحة.

جهاز المخابرات البريطاني MI6

وهو خدمة الاستخبارات السرية في المملكة المتحدة مركزه في لندن.
مهام الجهاز حماية البلاد من المخاطر المحدقة والمحتملة، وقد جند الجهاز آلاف حول العالم، ويعتبر من أهم الوثائق التي تم كشفها، هي وثيقة تم التوقيع عليها برعاية المخابرات بين الرئيس المصري المخلوع حسني مبارك وبين رئيسة الوزراء البريطانية "مارجريت تاتشر" حول توطين الفلسطينيين في مصر وأكدت الوثيقة قبول حسني مبارك بالأمر، كما تشير تقارير أخرى إلى علم المخابرات البريطانية مسبقًا بعملية اغتيال الرئيس المصري أنور السادات، وبشكل عام يعتبر الجهاز البريطاني من أكثر الأجهزة اختراقًا لرؤساء العالم العربي.

تأسس الجهاز عام 1909 على يد الملكة إليزابيث بواسطة "جون ساويرز". وكانت أهدافه حين ذاك رصد وتتبع الأنشطة الألمانية سرعان ما توسع عمل الجهاز وضم له أفرعًا جديدة نتج عنها ما يسمى إلى اليوم بجهاز -أم آي 6-وشغل رئاسة الجهاز بدايةً "مانسفيلد كومينج" إلى "أليكس يونجر" الذي تولى مركز مدير الجهاز عام 2014.
وكحال وكالة الاستخبارات الأمريكية فإن جهاز المخابرات البريطاني واكب مواقع التواصل بشكل علني وجعل له موقعًا خاصًا بل نشر من خلاله عن حاجته لنحو 1000 عميل للتجنيد.

جهاز الموساد الإسرائيلي

تأسس في عام 1949، وقد أسسه "إيسر هاريل" و "دافيد بن غوريون"، بن غوريون هذا صاحب المقولة الشهيرة التي تتحدث عن خشيته من نهوض المارد الذي كما قال بدأ يتململ في المنطقة ويقصد نهوض المسلمين من جديد، مقر الموساد في تل أبيب، يعمل فيه نحو 1200 موظفٍ بشكل رسمي، أما عدد العملاء خارج دولة الاحتلال فغير معروف.
يُعتبر الموساد للاستخبارات الخارجية، وجهاز "الشاباك" للشأن الداخلي، وجهاز "أمان" للاستخبارات العسكرية، وتعتبر هذه الأفرع خلفًا لجهاز "شاي" الذي تم استبداله بعد قيام دولة الاحتلال عام 1948.

مهام الجهاز تتألف من جمع المعلومات وتحليلها والقيام بعمليات خاصة خارج حدود دولة الاحتلال، وقد أقدم الجهاز على عمليات اغتيال كثيرة حول العالم وكان الجهد مركزًا بعمليات اغتيال الشخصيات المقاومة للاحتلال داخل فلسطين أو في دول أخرى.

يتألف الجهاز من عدة أقسام: قسم المعلومات وقسم العمليات وقسم الحرب النفسية، هذه الأقسام تهتم بعدد من المهام الموزعة بينها، فمن إدارة شبكات التجسس إلى عملية تجنيد الجواسيس والعملاء إلى متابعة الأخبار حول العالم إلى تقديم خطط مبنية على تحليلات خاصة بالمواقف السياسية والاقتصادية العربية، ومن أهم أعمال الجهاز تسهيل عملية بناء علاقات سياسية سرية خارج الدولة المحتلة، وبالفعل يبدو أن هذه المهمة نجحت وبدأنا نرى نتائجها مع دولة الإمارات والسعودية وغيرهما الكثير.

◈ جهاز المخابرات الصيني *MSS*

مسؤولية الجهاز كغيره من الأجهزة الاستخباراتية، مكافحة التجسس وتأمين الأمن السياسي للدولة، تأسس في 1983، يقع المقر الرئيسي في بكين ويحتوي على 300000 موظف وهو رقم صغير مقارنة مع عدد السكان.

المخابرات الصينية تعتبر من أقوى المخابرات في العالم، ولها أعمال ذاع سيطها في العالم وكان لها أثرًا كبيرًا على العديد من الدول كعملية الجاسوس "تشي ماك" وغيره الكثيرون ممن سنتطرق لذكر بعض قصصهم في سياق الكتاب.

◈ وكالة الاستخبارات الفرنسية *DGSE*

تأسست عام 1982، مقرها في باريس بعدد موظفين بلغ حوالي 5000 موظف رسمي، تعمل على ملاحقة العملاء ومكافحة التجسس.

وكحال معظم الوكالات وأجهزة المخابرات فلا معلومات كثيرة ودقيقة، لكن عمل الوكالة ملخص في توفير المعلومات الاستخباراتية للاستفادة منها، وهي مرتبطة بوزارة الدفاع ومديرية الأمن الداخلي.

◈ جهاز دائرة الاستخبارات الألمانية *BND*

تأسس عام 1956، مقره برلين ويحوي أكثر من 6000 موظف رسمي يتوزعون في أكثر من 300 موقع داخل وخارج ألمانيا، عددًا منهم كانوا عسكريين وضباط في الجيش الألماني.

يتركز نشاطه بجمع المعلومات وتحليلها، وهو متصل بالمستشارة/المستشار الألماني بشكل مباشر لإطلاعه على أهم المعلومات الحساسة والمتعلقة بالمصالح الألمانية.

هذه نبذة مختصرة عن أهم الوكالات الاستخباراتية وأجهزة المخابرات في عصرنا، والتي لعبت دورًا كبيرًا جدًا في تغيير كثيرٍ من وجه العالم وأحداثه، بعضهم له قصص أشبه بالخيال وأخرى تبدو وكأنها أسطورة والحقيقة أنها أمر واقعي حين نعلم كيف تم استثمار الجهد والعلم والتكنولوجيا بحيث تصب في مصلحة كل دولة، مع التأكيد أن كثيرًا من العمليات كانت فاشلة فشلًا ذريعًا، بل ترتقي لحالة البلاهة العقلية! .

في المحصلة هو فن وعلم قائم، مضمار سباق كبير تعيشه دول العالم للمنافسة على السبق بخطوة أو خطوات في عالم الاختراق والتجسس، ولعل من يسبق يكون صاحب الذراع الأطول والقدم الأثقل.

◈ جهاز المقاومة الفلسطيني

لقد استطاعت المقاومة الفلسطينية وفي غزة تحديدًا بناء جهاز استخباراتي متميز أثبت جدارته وتطوره المستمر رغم الحصار وضعف الإمكانيات، هذا الجهاز لم يكن مقتصرًا على عمل داخلي فقط أو خارجي، بل شمل هيكلية الجهاز الحقيقي من تتبع العملاء والخلايا في الداخل إلى العمليات في الخارج.

حتى مكتب مكافحة التجسس ظهر بقوة، إضافةً إلى رصد ومراقبة المنظمات والأنشطة بكافة أشكالها، إلى الأمن الداخلي المتعلق بأبناء حركة حماس، إلى الاستخبارات العسكرية المتعلقة بكتائب عز الدين القسام، حتى الأمن الاجتماعي وما يدور من شائعات أو العمل على بث شائعات تربك العدو الصهيوني بل واختراقه والتغلغل في كيانه والحصول على معلومات غاية

في السرية، وهذا تطلب من جهاز المقاومة الاستخباراتي دخول الحرفة السيبرانية وإتقانها وبالفعل قد حصل ذلك بطريقة لا فتة للنظر بل مبهرة.

ولعل من أشهر العمليات تلك التي حصلت في عام 2018، وأسمتها المقاومة بعملية "حد السيف" والتي جعلت الكيان الصهيوني يعيد كل حساباته منبهرًا من تفوق جهاز الاستخبارات لدى المقاومة في غزة، فبعد المراقبة لخلية خاصة تتبع الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية، استطاع جهاز الرصد في المقاومة معرفة أسماء وصور العملاء، وفي اللحظة المناسبة تدخل مجاهدو عز الدين القسام حسب المخطط ليقتلوا قائد الخلية ويصيبوا آخرين برفقته مما دفع العدو للتدخل عبر مروحية أخلت العملاء بتغطية نارية كثيفة، هذه العملية كان لها أبعادًا كثيرة، وضعت جهاز مخابرات العدو على المحك، ووجهت له ضربة قوية دفعت قائد العمليات الخاصة بشعبة المخابرات العسكرية والقائد السابق للوحدة المسماة "سيرت متكال" وهي نخبة المخابرات، دفعتهما للاستقالة .

أما عن براعة المقاومة في الحرب السيبرانية فكما ذكرنا لم تكن بعيدة، بل حاضرة وبقوة، فلقد دخلتها وبرعت فيها وتطورت بشكل سريع، فكان لها هجمات عديدة ضد الكيان الصهيوني، منها استهداف كاميرات المراقبة المزروعة في الضفة الغربية والتي تمثل خط دفاع لأهداف العدو ضد هجمات المقاومة، كذلك استهدفت المقاومة من خلال الهجمات السيبرانية كاميرات العدو المحتل لمعرفة تحركات جنوده حتى تسهل عملية استهدافهم، ومن الهجمات التي نفذها جهاز المقاومة السيبراني كان استهداف مئات الأجهزة النقالة لجنود إسرائيليين، استطاعوا من خلال الهجمات التصنت على المكالمات والرسائل، وقد اعترف بذلك جهاز الشاباك الإسرائيلي، كما اعترفت مصادر عسكرية في الكيان الصهيوني أن المقاومة في الآونة الأخيرة سببت إرباكًا كبيرًا لهم، من خلال مئات الأسماء المستعارة عبر منصات التواصل الاجتماعي والتي استهدفت جنود الاحتلال بتواصلات محادثية تتطور لإرسال برامج ملغومة تحمل فايروسات أو برامج خطيرة، بل وصل التطور السيبراني لدى المقاومة إلى القدرة على توجيه ثم إنزال طائرة إسرائيلية مسيرة

(استطلاع) كانت تحلق في سماء غزة، فحصلوا على المعلومات التي صورتها وهذا أمر غاية في السرية استطاعوا من خلاله معرفة أهداف العدو التي يطلبها ويبتغي جمع المعلومات حولها .

هذا التسارع في التطور لم يكن حده هنا فقط، بل تجاوز ذلك حتى يصل إلى الاختراق الذي يمهد عملية استدراج جنود العدو المجندين والمجندات، فقد ذكر أحد مصادر المقاومة السريين أنهم استطاعوا استدراج كثيرٍ من جنود الاحتلال عبر مواقع التواصل، وحصلوا منهم على معلومات حساسة حول ثكناتهم ومواقعهم، وحتى حياتهم على الصعيد الشخصي، مما سهل على المقاومة تنفيذ بعض العمليات بالإضافة لدراسة الحالة النفسية لدى المجتمع المدني والعسكري في إسرائيل.

هذا التطور دفع قيادة الاحتلال لفرض رقابة شديدة وصارمة لتفتيش أجهزة الجنود بحثًا عن أي برامج اختراق أو برمجيات خطرة، ساهم الأمر بكشف بعض طرق الهجمات لكن المقاومة تبحث بشكلٍ مستمر على سبق العدو بخطوة أو خطوات.

هذه الحرب التي لا يوجد فيها دماء ولا أسلحة نارية قد تكون نتائجها أشبه بالقنابل النووية! .

لقد مكنت الحرب السيبرانية العدو من كشف بعض مواقع عناصر المقاومة وأمورًا أخرى، لكن في الوقت نفسه مكنت المقاومة من الاختراق وكشف كثيرٍ من العملاء وإحباط كثيرٍ من العمليات، إذًا؛ هي حرب العقول والأدمغة، التي فيما يبدو أن شأنها يكبر والاعتماد عليها يزداد.

قرأت الكثير عن قصص العملاء والمخابرات، وبعضها كان يعجبني لِمَ يتخللها من دهاءٍ أكثر من ذكاء، الذي يعتبر بديهي في الاستخبارات، لكن ما وجدته في التاريخ الإسلامي والكتاب الكريم والسيرة النبوية فبكل تأكيد كان يذهلني حد الانبهار !، كيف فعلها؟ كيف استطاع أن يحقق ذلك؟ ما هذه القدرات العقلية كيف طورها؟

عشرات الأسئلة تدور في ذهني كلما قرأت آيات تدور حول علم الاستخبار والاختراق، أو حديث يروي قصص واقعية موثقة عن النبي ﷺ، أو حتى العرب الذين أرادوا الدخول في هذا العلم لتقديم ما يمكنهم تقديمه في سبيل قيام الدولة أو الحفاظ عليها من التهديدات، بل حتى النساء المسلمات كان لهم دورًا مليئًا بالفخر.

هذه الأجهزة والوكالات والعمل الاستخباراتي قديمًا وحديثًا بشكل عام، يقوم على مبادئ دقيقة ليكون عملًا متقنًا، ولو لاحظنا أن معظمهم وحتى ما سيأتي معنا في الكتاب، نجد أن عملهم تقريبًا يدور حول مهام وأعمال وغايات واحدة ترتبط بعوامل كثيرة، ومن تلك العوامل المساعدة لإتقان العمل الاستخباراتي: هي المبادئ، والأهداف، والأساليب.

فالاستخبارات أو المخابرات، أمر ضروري وركيزة أساسية في قيام الدول ثم حمايتها، ولا نقصد المفهوم المقتضب لجهاز المخابرات، إنما المقصد هنا الشمولية والمعنى الحقيقي، استخبارات عسكرية واستخبارات استطلاعية ومكافحة التجسس والاختراق والمراقبة وعمليات خلف الخطوط ..إلخ .

إذًا فالضرورة باتت ملحة أكثر في فهم وإيجاد مثل هذا النوع من الحروب، ودعونا نقف عند سبب تلك الأهمية والضرورة.

◈ الفصائل الشامية

حقيقة لا يمكننا القول بأنها تمتلك جهاز استخبارات بمعناه المعلوم، لكن نستطيع التفاؤل بأنها على الطريق في بناء جهاز متين وقوي، كما أن بعض الفصائل استطاعت تنفيذ عمليات مختلفة من اختراق للعدو وتنفيذ مهام فدائية أسفرت عن إيقاع خسائر فادحة في صفوف العدو إلى تتبع ورصد كثير من الخلايا التي انتهى بها المصير إلى الاعتقال أو الحكم بالإعدام، وبكل حال بعض تلك العمليات كنت أود الحديث عنها وعن تفاصيلها التي قد لا تكون معروفة أو منتشرة بشكل رسمي كرؤوس أقلام لكن لدواعي الحرص وعدم التجاوز توقفت وكلي ثقة أنه يومًا ما بعض تلك العمليات ستكون مرجع أكاديمي للمختصين .

مبادئ الاستخبارات

1. الكفاية

خذ المعلومات بشكل دقيق يحقق الكفاية المرادة، أو حتى امنح المعلومات بشكل واضح ضمن إطار المهمة.

الكفاية هي قدرات تستطيع اكتسابها لتسمح لك بسلوك وعمل في سياق محدد، تتكون من المعارف والمهارات والقدرات المندمجة بشكل مركب، لتجندها وتوظفها بما يخدم أمرًا معينًا.

حين جمع خالد الهذلي الناس في معسكر يدربهم بغية قتل النبي ﷺ، نادى الرسول في جنده من يأتيني بخبر خالد؟ أي قتله، تصدر الصحابي عبد الله بن أنيس وطلب معلومات حول الهدف، فأخبره النبي ﷺ بصفة مميزة لا يمكن أن يضيعها الجندي المتصدر للمهمة، فقال له: إذا رأيته وجدت له قشعريرة، حيث كانت العرب تقول عن خالد الهذلي رجلٌ بألف رجل، له مهابة كبيرة لشدته وبأسه، ثم جمع "بن أنيس" المعلومات الكافية حول المعسكر المعادي كما درس سلوكية خالد الهذلي وفهمها إلى أن استطاع إتمام المهمة بقتل خالد وعاد سالمًا مبشرًا وكانت البشرى سبقته. |القصة في الدلائل للبيهقي وأوردها ابن كثير في البداية والنهاية|

الشاهد في القصة: أن المعلومات يجب أن تكون كافية للعامل كما يجب أن تكون كافية لصاحب القيادة، كما أن الكفاية لا تحتاج تشعب المعلومات والانشغال بتفاصيل غير مهمة إلا في الأعمال التي تتطلب التجسس والاختراق.

2. الاكتفاء

خذ المعلومات أو امنحها بدون تشابك مع معلوماتٍ أخرى غير مفيدة، وهذا يتطلب قدرة عقلية تُميز بين الكفاية والاكتفاء.

الاكتفاء هو: أن تمتلك قدرًا كافيًا من المعلومات حول المهمة، وجمع المعلومات دون نقصان أو زيادة غير لازمة.

في المثال السابق حول خالد الهذلي، الصحابي عبد الله أخذ معلومات حول بغية العدو (تدريب جنود لقتل القائد محمد رسول الله) مكان الهدف ومسرح العملية (معسكر قرب مكة) ومعلومات حول الهدف (اسمه خالد الهذلي صفته المهابة) وفهم المهمة (قتله ليس سوى ذلك)

ثم أخذ الأمر (العودة سالمًا)، هذه الأمور سهلت عليه وضع خطة لاختراق معسكر العدو والتقرب من قائد المعسكر ثم إتمام المهمة، ولم ينشغل بأعداد المجندين وأسماءهم وتفاصيل تدريباتهم وغيرها من المعلومات التي تحتاج جهدًا كبيرًا، يعرضه للخطر أثناء جمع المعلومات.

3. السرية

تجنب البوح بالمعلومات صغيرها وكبيرها لأي أحد، حتى لأولئك زملاء العمل، كن دقيقًا في معرفة من يلزمه المعرفة لما تملك من معلومات.

السر هو ما تخفيه في نفسك وتكتمه عمن حولك، وقالت العرب قديمًا: "كل سر جاوز شفتيك شاع". أي السر يبقى سرًا مادام يحمله شخصٌ واحد، فإن تجاوز لشخصٍ آخر مهما كان ثقة، فقد شاع وعُرف.

وقد نبهت الشريعة الإسلامية على أمانة السر والعهد به، فقال تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ». |المؤمنون|

أي واجب حفظ الأمانة والوفاء بها ومنها حفظ السر. وقد عاتب الله تبارك وتعالى بعض نساء النبي لإذاعتهن سرًا عن النبي ﷺ فقال تعالى : «وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ، إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ».|التحريم| .

حتى أن النبي ﷺ ربى أهله وأصحابه على حفظ السر فقال: «إذا حَدَّثَ الرَّجُلُ الحَديثَ ثم الْتَفَتَ فَهِيَ أَمَانَةٌ». |رواه الترمذي وحسنه|.

أي ليكن صاحب المجلس أمينًا بما يسمعه ويراه، فكيف بالأسرار التي إفشاءها يفضي إلى خللٍ في العمل أو ربما كارثة أو كشف لثغر المسلمين.

بل لاحظ الحرص الشديد في حفظ الأسرار فعَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ أَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ تَمْشِي كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مَشْيُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرْحَباً بِابْنَتِي ثمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَوْ عَنْ شِمَالِهِ ثمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثاً فَبَكَتْ فَقُلْتُ لهَا لِمَ تَبْكِينَ ثمَّ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثاً فَضَحِكَتْ فَقُلْتُ مَا رَأَيْتُ كَاليَوْمِ فَرَحاً أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ فَسَأَلْتُهَا عَمَّا

قَالَ فَقَالَتْ مَا كُنْتُ لأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتى قُبِضَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلْتُهَا فَقَالَتْ أَسَرَّ إِلَيَّ إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ وَلا أُرَاهُ إِلا حَضَرَ أَجَلِي وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقاً بِي فَبَكَيْتُ فَقَالَ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَوْ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ . |اخرجه البخاري|.

وعند البُخَارِي عن أنس: أَتَانَا رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَنَحْنُ صِبْيَانٌ، فَسَلَّمَ عَلَيْنَا، وَأَرْسَلَنِي فِي حَاجَةٍ، وَجَلَسَ فِي الطَّرِيقِ يَنْتَظِرُنِي، حَتَّى رَجَعْتُ إِلَيْهِ، قَالَ: فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُمِّ سُلَيْمٍ، فَقَالَتْ: مَا حَبَسَكَ؟ فَقُلْتُ: بَعَثَنِي النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فِي حَاجَةٍ، قَالَتْ: مَا هِيَ؟ قُلْتُ: إِنَّهَا سِرٌّ، قَالَتْ: فَاحْفَظْ سِرَّ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم.

سبحان الله ما أعظمهم من رجال وصبيان ونساء حول النبي ﷺ بأبي هو وأمي وبهذه الأمانة والصدق والإخلاص والمحبة، كبر معنى حفظ السر فكانت المهام دقيقة ناجحة متممة على أكمل وجه.

وجاء في كتاب سراج الملوك لأبو بكر الطرطوشي أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه قال: القلوب أوعية والشفاه أقفالها والألسن مفاتحها، فليحفظ كل امرئ مفتاح سره.

وذكر كذلك أنه كان لعثمان بن عفان رضي الله عنه كاتب اسمه حمران، وهو مولاه، فاشتكى عثمان فقال: اكتب العهد بعدي لعبد الرحمن بن عوف. فقال حمران لعبد الرحمن البشرى! فقال عبد الرحمن: لك البشرى بماذا؟ فأخبره الخبر فانطلق عبد الرحمن فأخبر عثمان الخبر. فقال عثمان: أعاهد الله أن لا يساكني حمران أبدا! ونفاه إلى البصرة فلم يزل بها حتى قتل عثمان ابن عفان.

كما جاء فيه قول علي رضي الله عنه: سرك أسيرك، فإن تكلمت به صرت أسيره.

ويقول صن تزو في الكتاب المنسوب إليه -فن الحرب-:"تعلم الدقة والسرية، تعلم أن تكون غير مرئي وغير مسموع، وبهذا يكون مصير عدوك في يديك".

ويضيف "تزو" في هذا الباب:" اجعل خططك مبهمة مثل قطع الليل المظلم لا سبيل لفهمها من الغير لا من رجالك، وعندما تتحرك كن خاطفًا مثل صاعقة السماء".

وقال أحد الحكماء لابنه: يا بني، كن جوادًا بالمال في موضع الحق، ضنينًا بالأسرار عن جميع الخلق، فإن أحمد جود المرء: الانفاق في وجوه البر، والبخل بمكتوم السر.

قال أحد الشعراء: إِذَا الْمَرْءُ أَفْشَى سِرَّهُ بِلِسَانِهِ وَلاَمَ عَلَيْهِ غَيْرَهُ فَهُوَ أَحْمَقُ إِذَا ضَاقَ صَدْرُ الْمَرْءِ عَنْ سِرِّ نَفْسِهِ فَصَدْرُ الَّذِي يُسْتَوْدَعُ السِّرَّ أَضْيَقُ.

هذا في أسرار المجالس والصحبة والعشرة، فكيف إن كانت أسرار متعلقة بعمل عسكري؟ كيف لو كانت أخطر وأهم متصلة بعمل استخباراتي! فاحذر وكن محاذر.

4. الكتمان

أخفي ما لديك من معلومات عن كل ما لا يلزمه معرفتها أو من هو حولك.

الكتمان أن تخفي عن الناس ما يحتويه صدرك من معلومات وأمور خاصة بالعمل، والفرق بين الكتمان والسر بسيط، فالسر هو ما تخفيه في النفس فلا يعلم بوجوده أحد، والكتمان ما تخفيه وتتوقف عن قوله مع علم أحد بوجود شيء ما في نفسك.

جاء في كتاب السيرة النبوية لابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بالجهاز (إعداد العدة للحرب)، وأمر أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضي الله عنها، وهي تحرك بعض جهاز رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أي، بنية: أأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تجهزوه؟ قالت: نعم، فتجهز، قال: فأين ترينه يريد؟ قالت: (لا) والله ما أدري.

وهنا نلاحظ حرص النبي ﷺ على كتم الأسرار العسكرية حتى عن أقرب الناس له ممن لا يلزمهم معرفة تلك التحركات.

في قصة سعيد بن الحرث – أو الحارث على اختلاف – أحد الجنود العظماء في الإسلام، والتي رواها ابن النحاس في كتابه "مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق ومثير الغرام إلى دار السلام"، ورواها أبي الحسن السلمي في كتابه "فضائل الجهاد"، قصة من أجمل وأروع القصص لكن الشاهد يلزمنا في نهايتها تقريبًا وهو الحوار الذي دار بين سعيد بن الحرث وصاحبه حين رأى سعيد رؤية فيها بشرى له، أنه من أهل الجنان وكان ذلك أثناء المعارك المتصلة على مدار أيام في حصار حصن الروم، فارتعد وانتفض ذات ليلة سعيد، فسارع صاحبه يهدأ من روعه

ويسأله حول ما رأى وبعد إصرار حدثه بالرؤية وطلب منه حفظ السر ما دام حيًا، ففعل صاحبه، وفي إتمام تطبيق الرؤيا في الواقع تحققت ووقع سعيد شهيدًا ولما كان يحتضر سارع إليه صاحبه باكيًا غبطة بما تحقق لسعيد وحول سعيد أصحابه فقال له يا ليتني كنت معك، فعض سعيد شفته السفلى وأومأ برأسه وقال اكتم أمري، يشير له أني ما مت بعد وإنما أحتضر، نلاحظ الحرص على الكتمان ويتبين معنا الفرق بين السر والكتمان، ففي الحديث الأول كان سرًا أودعه سعيد لصاحبه ولا يعلم به أحد، وفي الثانية استشعر من حولهم بوجود سر لكن كان الكتمان حاضرًا حتى خرجت روح سعيد فصار الإفصاح لا مشكلة كون سعيد كان شرطه حفظ السر ثم الكتمان ما دام حيًا فقط .

5. الإخفاء

أحجب المعلومات الحساسة العينية الملموسة وما لا ينبغي اطلاع أحد عليه في مكان حصين وراعي سهولة وصولك له حين الحاجة.

الإخفاء هو ستر وحجب الشيء لعدم إظهاره وإطلاع أحد على الشيء المخفي أو المستتر.

6. التورية

تمرن بشكل جيد لتستطيع الوصول لعملية إظهار أمر يحتمل أكثر من معنى تحقق من خلالها المناورة والإيهام.

التورية جائزة في الشريعة الإسلامية بشرطها وهو أن يكون اللفظ محتملًا لها وأن لا تكون ظلمًا، وقد استخدمها النبي ﷺ لما خرج إلى الاستطلاع قبل معركة بدر، فلقد مرَّ ومعه أبو بكر الصديق على شيخٍ من العرب، فسأله عن محمد وقريش وما بلغه من خبر الفريقين، فقال الشيخ: لا أخبركم حتى تخبروني ممن أنتم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أخبرتنا أخبرناك، قال الشيخ: خبرت أن قريشًا خرجت من مكة وقت كذا، فإن كان الذي خبرني صدق، فهي اليوم بمكان كذا، وخبرت أن محمدًا خرج من المدينة وقت كذا، فإذا كان الذي خبرني صدق، فهو اليوم بمكان كذا، ثم قال: من أنتم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نحن من ماء ثم انصرف، وجعل الشيخ يقول: نحن من ماء!! من ماء العراق أو ماء كذا أو ماء كذا. لقد كان جواب النبي ﷺ تورية وهو أصدق الخلق، فإن الله تعالى يقول: وجعلنا من الماء كل شيء

حي، وإلى ذلك أشار النبي صلى الله عليه وسلم في قوله للشيخ الأعرابي: نحن من ماء، معلمًا أمته نموذجًا عاليًا من التورية وقت حاجتها، خاصةً في القضايا العسكرية والاستخباراتية التي لا يمكن الكشف عنها.

7. الولاء

يجب أن تمتلك ولاءً حقيقيًا لدينك ثم عملك حتى تكون مستعدًا للمخاطر والتضحية، بدون ترددٍ أو خوف يسهل عملية اكتشاف أمرك أو يساهم في هزيمتك.

يقول صاحب "الحاوي في تفسير القرآن" : "بالنظر في أدلّة الكتاب والسنّة وُجد أن معتقد الولاء والبراء يرجع إلى معنيين اثنين بالتحديد، هما: الحُبُّ والنُّصْرةُ في الولاء، وضِدُّهما في البراء، ولا يخفى أن هذِين المعنيين من معانيهما في اللغة، كما سبق بيانه".

يقول الله تعالى في الولاء:﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ، وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾. |المائدة|

وقال تعالى:﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾. |التوبة|

قال ابن جرير: "وأمّا المؤمنون والمؤمنات، وهم المصدّقون بالله ورسوله وآيات كتابه، فإن صفتهم أن بعضهم أنصارُ بعض وأعوانهم".

أمّا الولاء في السُنَّة، فيقول صلى الله عليه وسلم مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفهم مَثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تَدَاعى له سائر الجسد بالسهر والحُمّى. |رواه البخاري ومسلم|

وقال صلى الله عليه وسلم: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بَعْضُه بعضًا». |البخاري ومسلم|

وعلى هذا فالولاء شرعًا؛ هو: حُبُّ الله تعالى ورسوله ودين الإسلام وأتباعِه المسلمين، ونُصْرةُ الله تعالى ورسولِه ودينِ الإسلام وأتباعِه المسلمين.

فيتضح لنا أن الولاء أمرٌ عظيم وأصلٌ في الدين، فهو بذلك مرجع في العمل، أي عملٍ كان، وعلى وجه الخصوص العمل العسكري والأمني والاستخباراتي.

8. الإخلاص

ستخضع لاختبارٍ من الرئيس أو القائد المسؤول عنك لتقييم قدرتك على الوفاء والصدق في العمل، قد يكون اختبارًا بسيطًا وقد يكون قاسيًا، ذلك بحسب دورك في العمل.

الاخلاص هو الصدق في النية والعمل، يقول إبراهيم بن أدهم: "الإخلاص صدق النية مع الله".

وقيل: المخلص من يستوي عنده مادحه وذامه، أي: هو لا يتأثر بشيء ما دام صادق النية لله تعالى في عمله.

والإخلاص واجب على المسلم، كل إخلاصٍ يفضي لرضى الله تعالى ومنها الإخلاص في العمل الذي يفيد الأمة، يقول تعالى:﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾. [البينة].

والعدو الظاهر والخفي أول ما يبدأ عمله، يبدأ بضرب هذا الإخلاص ليشوهه ويحرفه، فإن نجح العدو سهل عليه ما بعده.

حتى إبليس اللعين علم أن الإخلاص حصنٌ منيع كما أخبرنا الله تعالى، فأخبرنا في كتابه الكريم كيف كان رد إبليس حين طرده الله من الجنة:﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾. [الحجر].

وإن الإخلاص له أثرٌ كبير في تحصين النفس من الأهواء وثغرات يبحث عنها العدو ليتغلغل من خلالها، روى أحمد وابن ماجه -وصحَّحه الألباني -عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ثلاثٌ لا يُغِلُّ عليهن قلبُ امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والمناصحة لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم؛ فإن دعوتهم تحيط مِن ورائهم.

والإخلاص هو طريق النصر وباب من أبوابه، روى النسائي -بسند صحيح -عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنما ينصر الله هذه الأمَّة بضعيفها، بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم.

إذًا فالإخلاص لا يقتصر على الأجر العظيم عند الله، إنما له آثار إيجابية في الدنيا.

9. الطاعة

الطاعة أساس الانضباط الذي يفضي لإتمام المهام بدقة ونجاح، لا تتذمر في القرارات ولا تتردد في تطبيق الأمر، عليك التفرقة بين الطاعة للأوامر وبين تقديم المقترحات والنصائح المطلوبة.

الطاعة هي الانصياع والانقياد للأوامر بمحبة وقبول وترك المخالفات ظاهرًا وباطنًا، وهذا ينطبق على العبادة والاستجابة لله، كذلك يلزم الجندي طاعة ولي الله أو خليفته أو القائد في الأمة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني». |البخاري|.

والطاعة في العمل تحت الإمرة للقائد أو مثله منضبطة، فقد قال رسول الله: «لا طاعة لمخلوق في معصية الله عز وجل». |رواه أحمد|

وجاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «إنما الطاعة في المعروف». وروى مسلم أن النبي ﷺ قال: «على المرءِ المسلم السمْع والطاعة فيما أحبّ وكَرِه إلا أن يُؤْمَر بمعصية، فإن أُمِرَ بمعصية فلا سَمْع ولا طاعة».

فالطاعة تم ضبطها في التعاملات البشرية بين المسلمين، وكما أن لها أثرًا عظيمًا، وأجرًا كريمًا، وهي واجبة، إلا أنها محددة في الطاعة المرتبطة برضا الله تبارك وتعالى.

10. الانضباط

كن منضبطًا في السلوك وفي الكلام والعمل وحتى في وقت الراحة، الانضباط السلوكي يسهل عليك التفكر بما يدور حولك أو في محيط هدفك.

الانضباط هو مجموعة سلوكيات تعبر عن الالتزام بالأوامر وضبط النفس عن الأعمال اللاإرادية.

وقد جاء في الشريعة اهتمامٌ كبير في الانضباط، فتجد الانضباط في صفوف الصلاة، والانضباط في مواقيت العبادات والشعائر وحتى في الأقوال والأفعال بل حتى المتفكر في خلق الله لهذا الكون يجد الانضباط في كل حركة وسكون من الشمس والقمر إلى نظام الحياة كاملًا في الحيوانات والجمادات والبشر وباقي المخلوقات ولا تجد شيئًا عبثيًا، حاشا الله تبارك وتعالى.

وهذا الانضباط متصلٌ بالأعمال الدنيوية التي فيها استجابة لأمر الله وما ينفع الأمة في نهوضها وجعلها نموذجًا، كما يحب الله تعالى ويرضاه لعباده.

والنبي صلى الله عليه وسلم كان في غاية الدقة والانضباط مع أصحابه، وعندما كان يرصصهم للقتال:﴿ كَأَنَّهُم بُنيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾[الصف].

وفي بدر لما صفّهم رأى واحدًا تقدم، فقال: «معي معي» [رواه أحمد] ، أي كونوا معي كما أريدكم، كونوا معي، بلا تقدم ولا تأخر، منضبطين.

وفي أحد قال الله تعالى:﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[آل عمران] تُبَوِّئُ أي تحدد.

وجعل على الأوس فلانًا لهم راية، وعلى الخزرج فلانًا لهم راية، والمهاجرين جعل لهم راية، والمقدمة والمؤخرة، والميمنة والميسرة، والقلب.

وجاء في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: إنما جعل الإمام ليؤتم به، إذا ركع فاركعوا، إذا رفع فارفعوا، إذا سجد فاسجدوا، هذا في إمام الصلاة فكيف بالأمير والقائد عند الجهاد؟! فالانضباط معه مرتبط بالسمع والطاعة كما تقدم معنا.

11. الحصانة

يجب أن تكون حصين النفس أمام الشبهات والشهوات والفتن، عدوك لن يرحمك ولن يستطيع كشفك وسحب المعلومات إلا من خلال اختراق الحصانة لديك، عززها باللجوء للطاعات والتقرب من الله.

الحصانة في مفهومها الغربي الدنيوي تعني شيء نقيض لمعناه الشرعي الإسلامي، فهي عندهم تعني القدرة على الإفلات من العقوبات والقدرة على التهرب من الواجبات، ولطالما استخدمت الحصانة في كل أمر سيء يستغلها صاحب الحصانة، إلا في الدين الحنيف فالحصانة هي أشبه بجهاز المناعة ضد الأوبئة والطفيليات الضارة، فالحصانة هي منع الشبهات من النيل من القلب ومنع الفتن من مغالبة النفس، وهذه الحصانة تتحقق كما قلنا بالتقرب لله واللجوء له حتى تُمنح منه حصانة حقيقية، قال تعالى :﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[الحجر].

إذًا هذه أهم مبادئ الاســتخبارات، وهي متعلقة كما لاحظنا بالمعتقد الديني وذلك ليس فقط عن المســلمين وحدهم، بل لكل جهاز مخابرات ميول معتقدي يســتمد منه ما يغذيه روحانيًا، كما أن المخابرات أمرٌ متصـل بالعلم الاجتماعي وهو أشـبه بحالة تعاونية بشـكل مباشـر وغير مباشــر، كما أن المتنافســين أو المتحاربين يهتمون لجانب المجتمع بنفس القدر الذي يهتمون فيه لجانب المعتقد والمرجع وغيرها.

المجتمع والاستخبارات

إن العمل الاستخباراتي لا يخرج من إطار الثقافة والديانة متصلة بالتراث، ولذا فإن كل مجتمع هو محكوم بحدود وضوابط.

هذه الضوابط لها إيجابيات ولها سلبيات، فهي تمكن الخصم من استشراف المستقبل والتنبؤ ومعرفة أطر العمل وبنفس الوقت هي تعطي لأبناء الثقافة الواحدة والمعتقد الواحد ثقة أكبر وتبنيًا للعمل والقدرة على المخاطرة والفداء والتضحية.

معرفة القيم الاجتماعية والثقافية والدينية والتراثية معرفة ضرورية قبل القيام بالعمل الاستخباراتي لتجنب الفشل أو الإحباط والصعوبات.

ومن الأمثلة على الفشل، فشل أمريكا في غزو افغانستان والتورط في العراق كما ذكر ضابط - سي آي أيه-"هانك" حيث تحدث عن الفشل الاستخباراتي في العراق والذي أدى كما يرى أن الغزو للعراق كان فاشلًا وخاطئًا، وعزا السبب إلى فشل الاستخبارات في جمع المعلومات وتحليلها ومعرفة الثقافة الاجتماعية للبلد.

بعد فتح مكة، بلغ النبي ﷺ من خلال الاستخبارات أن بعض القبائل العربية قررت أن تغزو المسلمين، فمباشرةً أرسل النبي ﷺ رجل الاستخبارات عبد الله بن أبي حدرد ليأتيه بالأخبار حول نفسية الجيش وقوامه واستعداده، ومن أعظم الملاحظات التي نبهه عليها: أن أمره الدخول في الناس ويقيم بينهم حتى يأتي بالخبر الدقيق، وهنا يتضح حرص النبي ﷺ على دراسة الحالة الاجتماعية وطبيعة المجتمع وليس الأمر يقتصر فقط على المعلومات العريضة ذات الطابع العسكري.

النبي ﷺ، تعامل مع هذا الباب بدقة متناهية وفن حرفي مبهر، ليس مقتصرًا على المحيط العربي في مكة وثقافة قريش الاجتماعية والقبائل العربية المحيطة، إنما حتى بعد تطور مراحل الرسالة كان مهتمًا بمعرفة هذه التفاصيل حول البلدان التي يرسل لملوكها وقياصرتها الرسائل والرسل التي تعرض عليهم الإسلام، والدليل أننا نلاحظ كل رسالة كان لها طابعًا مختلفًا عن الآخر بحسب الحالة الخاصة بها وبالمرسل إليه.

ففي رسالة النبي ﷺ، لهرقل ملك الروم، خاطبه باسم عظيم الروم ولم يلقبه بالملك وحتى لم يسمي النبي نفسه نبيًا، بل خاطبه من "رسول الله".

نص الرسالة: "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، و﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران]."

نلاحظ حرص النبي ﷺ على كلمة رسول ليوحي لهم أنه ليس رسولًا للعرب فقط، إنما للبشر كافة، حتى في كلمات الرسالة نلاحظ حرص النبي ﷺ على تكرار كلمة السلام وما يشتق منها، بمعنى السلام والأمان كما شاع بمنطق النصارى فخاطبهم بمنطقهم، وقدر لهم قوتهم وملكهم حتى يوحي ويؤكد لهم أن الهدف من رسالته الدعوة إلى الله وليست طلبًا لملك وسلطة وحكم الناس وتغيير الأديان بالتشهي، وقد وصلت رسالته ومعناها بشكلٍ دقيق جدًا، حتى نلاحظ حرص النبي ﷺ في كل مفردة، فقال أدعوك بدعاية الإسلام ولم يقل أدعوك لله، فلا مشكلة عند النصارى بعبادة الله لكن المشكلة هي في ترك الشرك.

وأكثر ما يبهر في الرسالة ويدل على قوة النبي ﷺ في معرفة تفاصيل البلد الذي يطلبها في رسالته أو حتى الحرب كما سيأتي معنا، كانت تذكير هرقل "بالأريسيين"، وهم أما أن يكونوا بسطاء الروم وضعفاءهم ومزارعيهم، فيكون القصد في أن رئاسة الناس أمانة في عنق حاكمهم، فإن أضلهم فسيبوء بذنوبهم، لأن الناس على دين ملوكهم، وأما أن يكون الأريسيون هم من على عقيدة "أريوس" ذلك الرجل المصري النصراني الذي دعا إلى توحيد الخالق جل جلاله وأن المسيح ليس ابن الله، وأصبح له أتباعٌ كثيرون، فهنا يكون مراد الرسالة أن الكثير من الروم تدعوهم فطرتهم لأن يكونوا موحدين لله جل جلاله، وإن هرقل قد أفسد عقيدتهم التي هي أقرب ما يكون لما جاء به محمد رسول الله ﷺ.

خبرة النبي وحنكته آتت ثمارها في نفس هرقل الذي لم يكن سهلًا كذلك، وملاحظ أثر رسالة النبي ﷺ في نفس هرقل من خلال رد هرقل على الرسالة، فكان رده: إلى أحمد رسول الله الذي

بشر به عيسى؛ من قيصر ملك الروم، إنه جاءني كتابك مع رسولك، وإني أشهد أنك رسول الله، نجدك عندنا في الإنجيل، بشرنا بك عيسى بن مريم، وإني دعوت الروم إلى أن يؤمنوا بك فأبوا، ولو أطاعوني لكان خيرًا لهم، ولوددت أني عندك فأخدمك وأغسل قدميك.

رغم رسالة قيصر واعترافه بنبوة محمد ﷺ وصدق دعوته إلا أنه فضل ملكه على النزول للدعوة والالتزام بها خشية أن يقتله كبار قومه، ومع هذا من وجهة نظري أن هرقل كان الفضول عنده كبيرًا رغم تصديق النبي ﷺ ظاهر القول وباطنه مع عدم الاستجابة للتنفيذ، لكن أراد أن يعرف تفاصيل ربما ليفسر هذه الحكمة وهذا الدهاء ويشبع نفسه بالإجابة، فعندما وصلت رسالة رسول الله ﷺ إلى قيصر، كان أبو سفيان بن حرب في رحلة تجارية إلى الشام مع مجموعة من تجار قريش، (ولم يكن أسلم بعد)، فرأى القيصر أنه من المناسب أن يسمع منهم لأنهم من قوم رسول الله ﷺ، وأحب أن يسألهم بعض الأسئلة من أجل أن تكون الصورة أكثر وضوحًا عنده، فدار بينهما حوارًا عجيبًا نورده بنصه كما رواه الإمام البخاري من حديث أبي سفيان رضي الله عنه:

"أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجارًا بالشأم في المدة التي كان رسول الله -صلى الله عليه وسلم -، فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت أنا أقربهم نسبًا، فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا عليَّ كذبًا لكذبت عنه (هذا كلام أبي سفيان)، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال (أبو سفيان): ولم يمكني كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة، قال: فهل قاتلتموه؟ قلت:

نعم. قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول: اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصدق والعفاف والصلة.

نلاحظ العقلية الاستخباراتية الفذة عند هرقل في اختيار الأسئلة المختصرة والأكثر دقة وأهمية مما يجعل الصورة عنده كاملة متكاملة.

فقال للترجمان: قل له: (هنا بدأ هرقل يحلل أجوبة أبي سفيان).

سألتك عن نسبه، فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول، فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك، فذكرت أن لا، قلت فلو كان من آبائه من ملك، قلت رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون، فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر، فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم، فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًا، فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .

حلل هرقل المعلومات بدقة وعلم، هو كان يعرف معظم الإجابات استنادًا لما يعرفه من معلومات في الإنجيل حول النبي ﷺ الذي يأتي بعد عيسى عليه السلام، لكن أراد ممارسة العمل في إشباع الفضول ممزوجًا بتأكيد ما عنده من معلومات وربطها ببعض، وكذلك نلاحظ جمعه لكبار قومه حوله في المرة الثانية لتُقرأ الرسالة عليهم جميعًا، رغم أنها قرأت عليه أول ما وصلت وفهمها وكتب الرد، لكن بعقليته المحنكة أراد أن يرى ردة فعل كبار قومه حين يسمعون

نص الرسالة بأنفسهم ويراقب تفاصيل وجوههم، فخشي أن يصرح بلحاقه بالإسلام فيقتله قومه، وظن أن قومه لو سمعوا نص الرسالة من الممكن أن تكون ردة فعلهم مثله فيستجيبوا، فكرة عبقرية نجح بها وعرف رأي قومه في المحصلة، لقد رفضوها رغم أنهم يعرفونها الحق، بل هددوا هرقل قبل أن يلعب أسلوبًا جديدًا لينقذ نفسه من بطشهم حيث تآمروا على قتله، فخرج عليهم بقوله : أنا ما زلت على ديني ولكن أردت امتحانكم .

بديهة ودهاء نجح به مجددًا لكن خسر الآخرة.

أما كسرى ملك المجوس الفرس لم يكن بذكاء هرقل ملك الروم، خاطبه النبي ﷺ بعظيم الفرس، لكن قال النبي له: أدعوك بدعاية الله. لأن الفرس كانوا كفارًا يعبدون النار، غضب كسرى من تقديم اسم النبي في الرسالة على اسمه وكأنما كسرى انشغل بالشكليات ولم يعر انتباهًا للمضمون، فاستثار غضبًا من هذه النقطة حتى جعله غضبه لا يلتفت أن النبي ﷺ خاطبه بلقب عظيم الفرس! فمزق كتاب النبي له، وأمر ملكه في اليمن أن ينتدب رجالًا يذهبون للمدينة ويجلبا له محمدًا ﷺ، ملك اليمن كان أكثر حكمه فعلم أن الأمر ليس بهذه البساطة وإنما يحتاج دراسة وجمع معلومات، فأرسل رجلين ليتقصيا خبر النبي ﷺ، ويجمعا المعلومات ثم يسلموه رسالة يأمره بها الملك المثول بين يديه، وصل الرجلين ومن الساعة الأولى عرفوا خطر المهمة وعظم النبي ﷺ بين قومه وأتباعه فاختصرا الوقت وقدما له الرسالة التي مما جاء فيها أن ملك الملوك كسرى يأمرك بالمجيء وإلا سار إليك جيشه حتى أفناك وأفنى قومك، تبسم النبي ﷺ وكأنما يسخر من هذا المتعجرف الغبي، وأجاب الرجلين أن ينتظروا ليوم غد، في اليوم التالي قال للرجلين الليلية قتل ملككم فأفناه الله على يد ابنه "شيرويه" فعودا فلن تجدا كسرى، فبهر الرجلين .|| ذكر رسالة الرسول ﷺ بالتفصيل الطبري، وحسنها الألباني، وذكر البخاري المجمل||.

كذلك رسالة النبي للمقوقس ملك القبط في مصر ورد المقوقس أشبه برد هرقل وفعلهما متشابه مع الكتاب، إلا أن المقوقس أراد التعبير عن التصديق فأرسل هدية للنبي ﷺ كانت جارية وهي مارية القبطية الذي لم يعاملها النبي ﷺ كجارية بل أدخلها نسبه، ولكن بالمحصلة لم تنفع الهدية المقوقس فقد خشي أن يدخل الإسلام فيأخذ النصارى منه الملك ويسلبوه الجاه والمنصب.

في التاريخ كثيرٌ من القصـــص التي تدل على دراســـة الحالة الاجتماعية لمعرفة القيام بالأعمال المطلوبة قبل المباشرة بها، وهذا جزء من العمل الاستخباراتي. جمع المعلومات لتقييمها وربطها وتحليلها حتى يســتطيع المرء الإقدام على ما يريد وهو واثق من خطواته متزن ولو أن العمل لم يأتي بنتيجة مرجوة، لكن الهدف تقديم الأمثل والقيام بالواجب على أحســن وجه، ولتحقيق ذلك يتم استخدام طرق عديدة أو ما يمكن تسميته بطرق الاستخبار.

طرق الاستخبار

يجب التذكير أن التجسس يكون للعدو، أما تنفيذ مهام دافعها الشكوك بمسلم فيكون تحسس، فالتجسس على الكافر أو المشرك أو الملحد يبيح استخدام كثيرٍ من الأمور سنبينها فيما يأتي في الكتاب، والتحسس مضبوط بضوابط حين استخدامه في الداخل الإسلامي، أو من الممكن أن نقول ومن باب السخرية الواقعية راقبوا ملوك وطغاة العرب كيف يتعاملون في هذا الباب مع الغرب وكيف يتعاملون مع المسلمين؟ ثم اعملوا عكسه.

وفي هذا الصدد تذكرت ما جاء من توثيق أحداث مضت في كتاب حروب الظل يبين مدى وقاحة حكام العرب وتسولهم وعرض خياناتهم، ففي جلسة عشاء بالقاهرة بعد أحداث سبتمبر من نفس العام، جمعت حسني مبارك الرئيس المصري حينها ورامسفيلد وزير الدفاع الأمريكي وقتها، قال حسني موجهًا خطابه لرامسفيلد: "لا نفع كبير للقنابل في الحرب الأمريكية الجديدة، على الولايات المتحدة أن تستخدم أموالها لشراء الحلفاء على الأرض في أفغانستان، ثم تابع قائلًا: إن الحرب على الإرهاب ضرورية لإنقاذ كوكب الأرض".

تسول دنيء وعرض جديد للعمالة أكثر ضد الشعوب المحكومة من موظفي الحظيرة بالحديد والنار، بل قمة السخرية حين تم نشر فضيحة إهداء أمريكا لحسني مبارك هاتف يستخدمه في المكتب الرئاسي، كان مزروعًا تحته جهاز تنصت، أي كل الأمور التي كانت تجري في المكالمات الرئاسية، كانت تصب في جهاز الاستخبارات الأمريكية أول بأول، وبكل حال والآن في هذا الوقت وفي ظل حكم السيسي ابن الصهيونية، فيبدو أن حسني مبارك كان لبقًا وأكثر حذرًا في العمالة مقارنة مع السيسي!

ومع كل تلك الخدمات المعروضة إلا أن العدو لديه طرق أخرى للعمل الاستخباراتي، كما أن المسلمين اعتمدوا هذه الطرق فيما مضى، فهو علم قائم يستثمر أدواته الأذكياء فيما يصب بتحقيق الأهداف، ومن طرق الاستخبار:

1. التجسس

وذلك من خلال زراعة الجواسيس في منطقة الهدف وفي الغالب يتم الأمر من خلال تدريب مسبق، ثم تمهيد لعملية الزراعة وتهيئة الأجواء المناسبة لعدم إثارة الشبهات

والتجسس مصدر من "جَسَّ" أي بحث وتفحص.

يختلف الجاسوس عن العملاء وعن الجاسوس المزدوج ولو أن العمل واحد، لكن هناك اختلاف في آلية العمل والتعاطي معه والعلاقة بين الشخص وجهاز الإدارة للعملية الاستخباراتية، هذا بحث دقيق وهام وفي نفس الوقت هو بسيط وسهل، لذلك سنستفيض فيه في فقرة كاملة حول الجاسوسية وفنونها وأدواتها، والحقيقة هي من أكثر القصص التي تجذبني وتسيطر على كامل تركيزي لما فيها من أحداث وقصص أشبه بالخيال.

2. المراقبة

وتشمل عملية الرصد والمتابعة بغية المراقبة لهدف ما، قد تكون لمراقبة سلوكية وقد تكون لرصد آلية عمل وقد تكون جمع معلومات أولية أو دقيقة للتحقق من المعلومات الأولية.

المراقبة من راقب، أي لاحظه وحرسه ورصده وفتشه، وقد تكون المراقبة ظاهرة وقد تكون سرية، فهي تشمل التتبع بالعين أو السمع أو من خلال أنظمة حديثة زادت من وسائل وطرق المراقبة.

3. الاختراق

هو الوصول للهدف المراد بدون إذن مشروع من المُختَرَق، وقد يكون اختراق غير ظاهر وقد يكون اختراقًا واضحًا معلومًا مرئيًا أثره وذلك بحسب نوع المهمة والشيء المُختَرَق.

الاختراق من اخترق أي تجاوز وتطفل بدون إذن أو تفويض. وللاختراق طرق وأساليب خصصنا لها فقرة غنية وأمثلة فيها فائدة بإذن الله حول الاختراق البشري والتكنولوجي الحديث المتطور.

4. الاستدراج

هو الحصول على المعلومات بطريقة الخداع والحيلة ومن دون إثارة الشكوك والشبهات، ولهذه المهمة قواعد وأساليب تحتاج خبرة عملية تكتسب بالتدريب العملي، فلا يمكن للشخص إتقانها بمجرد العلم بها، وحتى التدريب قد يكون غير كافٍ، فهي تحتاج موهبة وبداهة وشيء من الفراسة.

5. الاستجواب

طريقة ضيقة الاستخدام في العصر الحديث لكنها مستخدمة في الأنظمة البوليسية والدكتاتورية، تهدف لانتزاع المعلومات أو الاعترافات من خلال التعذيب أو بطرق أخرى سنأتي على ذكرها، أما في الدول المتطورة المتقدمة فقد تطورت طرق الاستجواب بشكل ممزوج بالاستدراج والخداع الذهني.

من الممكن القول أن هذه الطرق الخمسة هي الخط العريض، يتفرع منها أساليب الاستخبار وأشكاله، ويتخلل الأساليب آلية مبادئ متصلة بكل طريقة وأسلوب على حدى.

سنعمل بكل جهدٍ حتى تكون مجمل الأمور واضحة مرتبة منظمة بحيث يكون العقل والذهن قادرًا على ترتيبها بطريقة يسهل استحضارها وإعادة تدويرها في العقل لربطها مع كل فقرة من فقرات العمل بشقيه الاستخباراتي والأمني حيث من الضروري ربطهما ببعضهما فهما حلقة واحدة، وليس حلقتين، رغم أن عملهما فيه اختلاف في بعض النقاط لكن لا يمكن لرجل الاستخبار أن لا يكون رجل أمن في حين من الممكن أن يكون الشخص رجل أمن بدون أن يكون رجل مخابرات، هذه نقطة هامة يجب تذكرها وستتضح حين نتبين من هدف وعمل كل فن منهما، ولأجل ذلك سنقف مع تفاصيل طرق الاستخبارات وأساليبها .

الجاسوسية

وهي من التجسس

◈ تعريف

لغةً مأخوذ من جَسُّ الخبر ومعناه البحث عن الشـيء وتفحصـه والتفتيش عن بواطن الأمور، والجاسوس هو من الشر ونقيضه الناموس وهو صاحب الخير في السر.

اصطلاحًا: التجسس هو البحث عن العورات والمعايب وكشف ما ستره الناس.

◈ مفهوم التجسس

في العمل المعاصـر يُعرف التجسـس على أنه عملية الحصـول على المعلومات الغير متوفرة للعامة، بغية تقييم الأعداء والخصـوم بناءً على المعلومات الواردة وبعد تحليلها وتقاطعها مع مصادر ثانية إن توفرت.

◈ تاريخ التجسس

هنالك أحداث موثقة للتجسـس على مر التاريخ و قد كانت في بيئة عربية وعجمية، فمثلًا بين جيشي الصين و الهند وتم فيها استخدام عمليات التجسس و الاغتيالات و العملاء السريين، وكان المصـريون القدماء قد نظموا عمليات التجسـس تنظيمًا دقيقًا، وكان نظام الجواسـيس أيضًـا سـائدًا في الإمبراطوريات اليونانية والرومانية، وقد اعتمد المغول كثيرًا على التجسـس في غزوهم لآسيا وأوروبا، وقد كانت اليابان الإقطاعية غالبًا ما تستخدم النينجا لجمع المعلومات الاسـتخباراتية، ولعب الجواسـيس دورًا هامًا في إنجلترا، وأنشـئت أيضًـا العديد من وسـائل التجسـس الحديثة منذ ذلك الحين، وقد شـهدت الحرب الباردة المشـاركة المكثفة لأنشـطة التجسـس بين الولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها، والاتحاد السـوفياتي وجمهورية الصـين الشعبية وحلفائهما، لا سيما ما يتصل بأسرار الأسلحة النووية في الآونة الأخيرة وبرامج التطور التكنولوجي، كما استخدمتها القبائل العربية في الجاهلية بغية استطلاع قدرات الخصوم قبيل تنفيذ عمليات الغزو أو الغارات .

وقد جاء في كتاب تاريخ المخابرات من الفراعنة حتى وكالة الأمن القومي الأمريكي، أن الامبراطوريات القديمة عملت فيه هذا المجال وكانت تعتمد بشكل رئيسي على جباة الضرائب لأنهم أكثر من يحتك بالناس والقوافل والشخصيات، كما أن الإمبراطورية الفارسية وتحديدًا الملك "قورش" كان شديد العناية بهذا المجال بل وبحسب ما نقل الكتاب عن مصادر تاريخية فإن قورش من صغره وقبل أن ينصب في الملك، كان هاويًا للعب دور الملك وتوزيع الأدوار على رفاقه ومنهم من يعطيه دور "عين الملك". وهذا ما يؤكد ما قلته عن أن الأمر موهبة قبل أن تكون حرفة، ثم فيما بعد كان فيما يبدو الدور الاستخباراتي المبهر ملهم للإغريق وتحديدًا "الإسكندر الكبير" الذي كان بحسب نفس الكتاب معجبًا بالملك قورش والإمبراطورية الفارسية من حيث العمل والتطوير الاستخباراتي، وعلى رأس الأمر التجسس، وكل ذلك قبل تاريخ الميلاد بمئات السنين.

بكل حال لقد كان الكتاب قد نقل من مصادر منها موثقة ومنها ظنية، في مجملها أن فن الاستخبارات العسكرية والأمنية كان الدور الرئيسي في توسع الإمبراطوريات أو الحروب فيما بينها، كما برعت في فنون التضليل ومكافحة الجواسيس بشكل واضح، أي أن الدور لم يكن مجرد عمل ثانوي، لكن باستثناء الإمبراطورية الرومانية التي فيما ينقل الكاتب من وثائق، أنها كانت مهملة لهذا الجانب بشكل كبير مما سهل على أعداءها هزيمتها.

أما التجسس في الدين الإسلامي فهو منبوذ، ويعتبر جريمة إن كان ضد أفراد الأمة من أي جهة يصدر، سواء كانت الجهة مسلمة أو غير مسلمة، وهذا بعكس القوانين الوضعية التي تبيح قيام أجهزة الدولة بالتجسس على أفرادها بشكل عشوائي أو محدد، ولو كذبوا بادعاء صيانة الحريات الشخصية وادعوا حق الخصوصية، أما شرعنا الحنيف؛ فلقد ضبط المسألة وقيدها بشروط تضمن سلامة الفرد وحقه في الخصوصية، ومن الأدلة الكثيرة ننقل بعضها:

صعد رسولُ اللهِ ﷺ المنبر فنادَى بصوتٍ رفيعٍ فقال: «يا معشرَ من أسلمَ بلسانهِ ولم يُفضِ الإيمانُ إلى قلبهِ، لا تُؤذُوا المسلمينَ ولا تُعيّروهُم ولا تَتّبعوا عوراتِهم، فإنه من يتبِعْ عورةَ أخيهِ المسلمِ تتبعَ اللهُ عورتَهُ، ومن يتبعِ اللهُ عورتهُ يفضحْه ولو في جوفِ رحلهِ». [سنن الترمذي].

وقال رسـول الله ﷺ: «لو أن امرءًا اطلع عليك بغير إذن فحذفته بحصاة ففقأت عينه لم يكن عليك جناح». [متفق عليه].

وقال تعالى في سورة الحجرات: ﴿ولا تجسسوا﴾.

إذًا؛ هو أمرٌ عظيم، ليس خاصًا فقط في التحذير من التجسس على المسلمين، بل كل الناس ممن أمن جانبه المسلمين، ولم يكن يشكل خطرًا عليهم، ويستثنى كل عدوٍ يمكر بالأمة أو يكيد لها أو يريد النيل منها محاربًا كان أو غير ذلك، فهناك فرق بين التجسس المحظور وبين التجسس الذي يكون فيه ردعًا للأعداء، كذلك نقل كلام المرجفين والمنافقين ممن يكون ضررهم ظاهرًا معلومًا، فوجب نقل خبرهم لمن يرعى شؤون المسلمين، وقد حصل أن طلب النبي ﷺ من حذيفة بن اليمان الذي أخبره بأسماء المنافقين أن يراقبهم ويراقب كلامهم رغم أنهم يظهرون الإسلام، إلا أن خطرهم كان أكبر من العدو الظاهر المحارب لجيش المسلمين ببثهم الإرجاف والتثبيط .

ومن ناحية ثانية فقد أمرنا الله تعالى بالحذر فقال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴾. [النساء]

جاء في تفسير القرطبي: "قوله تعالى:﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعا ﴾، فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى:﴿ يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ﴾:

هذا خطاب للمؤمنين المخلصين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وأمر لهم بجهاد الكفار والخروج في سبيل الله وحماية الشرع، ووجه النظم والاتصال بما قبل أنه لما ذكر طاعة الله وطاعة رسوله، أمر أهل الطاعة بالقيام بإحياء دينه وإعلاء دعوته، وأمرهم ألا يقتحموا على عدوهم على جهالة حتى يتحسسوا إلى ما عندهم، ويعلموا كيف يردون عليهم، فذلك أثبت لهم فقال: خذوا حذركم، فعلمهم مباشرة الحروب، ولا ينافي هذا التوكل بل هو مقام عين التوكل".

إذًا فالتجسس أو التحسس لا يكون لمجرد التشهي والتسلية أو كشف العورات وتتبعها، بل يكون لغاية محددة يجب أن تكون واضحة، ومن تلك الأهداف ما سيأتي معنا.

أهداف التجسس

1. جمع المعلومات

أي معلومات ممكن الحصول عليها خاصة بالعسكرة أو السياسة أو حتى عن الاستخبارات المعادية، لبناء قاعدة بيانات.

2. تقييم الموارد

الحصول على المعلومات الخاصة بالدولة المعادية أو المراد التجسس عليها، من موارد طبيعية وإنتاجية والخطط الاستراتيجية الاقتصادية لتقييم قدراتها واكتشاف ثغراتها.

3. تجنيد عملاء

وهو التجسس في أوساط الدولة لتقييم أشخاص معينين لهم أثر في الدولة التابعين لها إن كانوا ضباط أو سياسيين أو صحفيين أو أكاديميين أو مفكرين، ثم اختيار من يمكن تحويله لجاسوس عميل.

4. مكافحة الجواسيس

وهي القدرة على اختراق الهدف والتجسس عليه لمعرفة جواسيسه وأماكنهم ومهامهم وأهدافهم للتمكن من مكافحتهم أو ابتزازهم لتجنيدهم عكسًا، والاختراق قد يكون إلكترونيًا، أو من خلال فريق خاص لدى مكافحة الجواسيس، مهمته التسلل لبيت الجاسوس أثناء غيابه عن البيت أو مكان تواجده، ثم يقوم الفريق بزراعة أجهزت التصنت وتفتيش محتويات البيت بشكل دقيق، لكن هذا الفريق عالي التدريب يعيد كل شيء كما كان عليه من ترتيب أو عشوائية بشكل دقيق حتى لا يلاحظ المستهدف أي شيء يريبه أو يحرك شكوكه بالتسلل لمكان تواجده في البيت أو مكان آخر .

في مكافحة الجواسيس ليس شرطًا اعتقالهم أو التخلص منهم، بل قد يتم استثمارهم بدون شعورهم لإيصال معلومات مغلوطة للجهاز الاستخباراتي الذي يعملون لصالحه.

إن الاستخبارات المتفوقة هي التي تستطيع معرفة المعلومات التي حصل عليها الجهاز المعادي ومن أين حصل عليها وكيفية الطريقة وأين وصل بتحليل تلك المعلومات.

فالمخابرات الذكية هي التي تستطيع أن تقنع المخابرات المعادية أنها نجحت في الاختراق والتجسس وجمع المعلومات، فقد توصل معلومة صحيحة لكن في تفاصيلها أمورًا مضللة أو معلومات مسيرة، أو إرباكه من خلال تسهيل حصوله على معلومة مسربة لكن من خلال عشرات الصور وعشرات الصياغة المتضاربة في تفاصيلها، أو من خلال إثارة العدو حول خبر هام قد يكون معلن، كالإعلان مثلًا عن سلاح جديد أو ما شابه ذلك من الأخبار التي تستنفر لها أجهزة المخابرات وتقضي معظم جهدها في التحري وجمع المعلومات للوصول للتفاصيل وحقيقة الأمر، والأمر الحقيقي يكون بعيدًا عن انتباه العدو، يتم إنجاز ما أمكن قبل تنبه العدو، فالغاية جعل العدو مشغولًا ومنهمكًا بجمع معلومات كثيرة وضخمة تتطلب منه جهدًا مضاعفًا لتحليل معلوماتٍ كثيرة جدًا، حول ما يراه أمرًا هامًا له، هذا يصرف من اندفاعه وإنفاق جهده في أمر سيكتشف أنه خدعة وقع بها بغية عمل آخر يدور بعيد عن استهدافه، وقد يكون مثل هذا الأسلوب مفيدًا لاختراق العدو، ففي وقت فورته واندفاعه وشغفه للوصول لمراده، يسهل إيجاد ثغرات إما لاصطياد الجواسيس والعملاء أو حشر جواسيس وعملاء داخل صفوفه من خلال رمي طعم أنهم يحملون معلومات وجاهزين لتقديم الخدمة مقابل مال أو غيره .

وإن من نماذج مكافحة الجواسيس ما كان من الصحابي أبو عبيدة بن الجراح، كان يحذر القادة في جيشه من تسرب المعلومات للعدو ومكافحة جواسيسهم، وقد قال لخالد بن الوليد ذات ليلة: "يا أبا سليمان إن جواسيس عدو الله تكشف أخبارنا وتوصلها إليه، فإني أقسم عليك ألا جلت في عسكرنا جولة واختبرت أمر الناس فلعلك تقع بأحد من جواسيسه".

جال خالد بن الوليد وأمر الناس بالحيطة والحذر، فاكتشفوا رجلًا بين صفوف المسلمين لكنه أنكر أنه جاسوس للعدو، إلا أنه كان مرتبكًا عندما رآه أبو عبيدة بن الجراح، فاستجوبه ثم اختبره بالقرآن والصلاة فلم يحسن ما يحسنه المسلمين فاعترف أنه عين للعدو.

ولنجاح تحقيق الأهداف يعتمد الأمر على البراعة في الطريقة والأسلوب ثم القدرة على تطويرها المستمر، ولتلك المهمة طرق عديدة نذكر أهمها فيما يلي.

طرق التجسس

1. الاعتماد على زراعة أجهزة تصنت صغيرة

تتم زراعتها في أماكن يُحسن الشخص اختيارها تمكنه من استماع الأحاديث التي تدور في المحيط. هذه أكثر أنواع التجسس استخدامًا، في الغالب تفشل لكن أحيانًا تنجح وبرغم قلة النجاح إلا أن عملية نجاح واحدة قد تغني الدولة عن عشرات المرات من الفشل وتحقق هدفًا ثمينًا.

2. كاميرات تصوير

وتكون صغيرة الحجم مخفية بشيء غير مثير للانتباه وموجوده معتاد بحسب الموضع والمكان.

فمثلًا هناك كاميرات خاصة بالتصوير السري على شكل قلم ومنها على شكل أزرار قميص وأخرى داخل جهاز التحكم الخاص بمفتاح السيارة، وكل يوم هناك أشكال جديدة بتقنيات أكثر تطور.

ومثل هذه الكاميرات استخدمناها بداية الثورة الشامية بكثرة، حيث كانت تهمة تصوير المظاهرات أكبر من جرم التظاهر، فاعتمدنا على بعض الأجهزة للتصوير وبشكل شخصي كنت أستخدم (ميدلية) تشبه جهاز التحكم بقفل السيارة لتصوير المظاهرات وفي وقت لاحق لتصوير "الشبيحة".

3. الصحف المحلية

ومن خلالها يتم إرسال رسائل مشفرة متفق عليها بين الجواسيس أو بين الجاسوس وجهازه المسؤول عنه، ويتم الاعتماد على هذه الطريقة في حالات كلاسيكية فهي قديمة جدًا.

4. الراديو

كذلك من خلال الأخبار أو برنامج معتادٌ بثه في الراديو، من الممكن أن يكون هناك شيفرة معينة، يتم نقل رسالة مختصرة من خلالها.

فمثلًا من خلال تنسيق جملة بشكل معين ممكن أن يفهم الجواسيس الأوامر، هذه الطريقة تستخدم في حال إيصال معلومة لعدد من الجواسيس في أماكن متفرقة كأن يذاع خبر زفاف

لكن فيه جملة (نتمنى للعروسين العودة لمنزلهم بسلام بعد شهر العسل)، يفهم العملاء والجواسيس أن المهمة انتهت وعليهم العودة.

مثل هذه الطريقة القديمة مازالت تُستخدم في ظل انتشارٍ واسع أشبه بثورة في عالم الصوتيات والمرئيات على الشبكة العنكبوتية أو المحطات الفضائية المتلفزة.

5. الحصانة الدبلوماسية

أو ما تُسمى الحقيبة الدبلوماسية، وهي حصانة يتمتع بها صاحبها تمنع أي جهة من تفتيشه أثناء تنقله وسفره، تمكنه من حمل المعلومات أو الأوامر بكل سهولة والتنقل من بلد لآخر بكل أريحية.

6. الاختراق الإلكتروني

وهذه أكثر الطرق الحديثة المتبعة إما من خلال ما يُسمى "هاكرز" أو من خلال برامج تجسس خاصة يتم حقنها بالأجهزة أو من خلال روابط تحمل فايروسات معينة تمكن الجهة المخابراتية من الولوج في الجهاز الشخصي للهدف، وقد يكون اختراقًا ظاهرًا واضحًا، وقد يكون اختراقًا خفيًا.

سنتكلم عن الأمر بشكل أوسع في نهاية الفقرة حول طرق التجسس، ثم نتوسع بشكل أكبر في باب الاختراق.

7. طائرات الاستطلاع

طريقة ليست جديدة كليًا لكنها متبعة باستمرار، وأول من استخدمها أمريكا في حرب فيتنام بحسب ما أعرف، لكنها كانت كبيرة الحجم مختلفة عن الطائرات الموجودة اليوم من حيث الحجم والمهام والقدرات، مصادر ثانية تتكلم عن أول طائرة مستخدمة للتجسس تعود لإنجلترا.

روسيا طبعًا ليست بعيدة عن العمل، ولعلها اليوم المنافس الأكبر لأمريكا في هذا المجال وقد أثبتت الطائرات الروسية دقة عالية في العمل على المسرح السوري، لكنها فشلت مرات رغم ذلك النجاح.

فمثلًا، تم خداع الطائرات الاستطلاعية الروسية من خلال استخدام المقاتلين في سوريا لمجسمات تحاكي الآليات الثقيلة ولم تستطع الطائرات اكتشاف المجسمات وحتى اللحظة من غير الواضح أنها وجدت حلًا للأمر، لكنها نجحت بعمليات رصد أرض المعركة وكذلك التجسس الظاهر في المناطق المحررة الخارجة عن سيطرتها وبعض الطائرات التجسسية تمتلك ميزات التنصت وسحب الذبذبات الصادرة عن أجهزة إلكترونية في محيط محدد، كما أن إسرائيل برعت في هذا النوع من الطائرات بل تفوقت بشكلٍ خيالي.

كتائب عز الدين القسام دخلت على الخط ونجحت بصناعة أول طائرة استطلاع استخباراتي عسكري أطلقت عليها اسم طائرة أبابيل وقد أثبتت نجاحها وفاعليتها بعد استخدامها لأول مرة في عملية العصف المأكول عام ٢٠١٤، وبكل تأكيد فإنها اليوم طورت جيلًا أو أكثر.

8. الابتزاز

وهذه الطريقة من أكثر الطرق استخدامًا لنجاعتها ودقتها في الغالب، تهدف لتجنيد العملاء من داخل دائرة الهدف، ويتحقق ذلك من خلال استغلال حاجة الشخص للمال بشكل ملح، أو من خلال الإغراء الجنسي، ثم عملية الابتزاز ووضعهم تحت الضغط النفسي.

9. الجاسوس المزدوج

وهو الذي يعمل لصالح دولتين وجهازين مختلفين في نفس الوقت، وهو أخطر وأصعب أنواع وطرق التجسس للمخاطرة الكبيرة فيه، يحتاج عقلًا مميزًا وقدرة هائلة على العمل.

جاء في كتاب صبح الأعشى لصاحبه أحمد القلقشندي: "اعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك وربما غشوك وربما كانوا لك وعليك، فنصحوا لك وغشوا عدوك وغشوك ونصحوا عدوك، وكثيرًا ما يَصدُقونك ويَصدُقونه".

ليس كل الجواسيس المزدوجين يكون الأمر باختيارهم، بعضهم يتم اكتشاف أمر عمله لصالح جهة ما، فيكون القرار بتجنيده لإيصال معلومات مغلوطة وإيهام الجهة الأولى أن الجاسوس يقوم بعمله دون أن يكتشفه أحد، بعضهم مقابل المال وممكن أن يكون هناك أشياء متعلقة

بالانقلاب الفكري!، من الممكن أن يعمل في دولة لصـــالح دولتين أخريين، فمثلًا "جورج بليك" كان جاسوسًا في ألمانيا لصالح انجلترا وفي نفس الوقت لصالح روسيا.

ولدينا مثالًا أقوى، حادثة هزت العالم وعصفت بأقوى قوى المخابرات العالمية، "همام البلوي" المشـــهور باســـم أبو دجانة الخراســـاني، ســـنأتي على ذكر تفاصـــيلها في فقرة نمر فيها عن أهم قصص الجاسوسية.

10. مكاتب تجارية

تتيح عملية فتح مكاتب تجارية التعاون مع أشخاص بارزين في الدولة المستهدفة واحتكاك أكبر بأفرادها، وهي تسهل عمليات اصطياد المعلومات.

11. رؤوس أموال

عرض وضخ رؤوس الأموال لأبناء الدولة المستهدفة تحت غطاء الاستثمار وبناء وتنفيذ مشاريع عمرانية وإنشائية، يسهل وضع موطئ قدم لزراعة الجواسيس والبحث عن عملاء.

12. الحرفة والمهنة

وهي إرســـال الصـــناعيين مثلًا للبلد المراد التجســـس فيه، كحاجة البلد لمصـــنعي ســـلع معينة يمتلكون خبرات مطلوبة.

13. الحيوانات

وذلك يتم من خلال زراعة أجهزة تصـــنت بالحيوانات كالقطة الأمريكية "كيتي" والتي تم زراعة أجهزة خاصة بجسدها أثناء فترة الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي، كانت مهمتها التجسس على مسؤولين من السوفييت، فشل المشروع بسبب دهس سيارة أجرة للقطة "كيتي"!

كذلك تم اســـتخدام الحمام الزاجل من خلال تثبيت كاميرة أســـفل منتصـــف جســـم الحمامة ليتم اســـتخدامها كطائرة تجســـس تصـــور نقاطًا وأماكنًا معينة، أثبتت جدارة كونها غير مثيرة للشكوك وتستطيع الاقتراب من الأهداف أكثر من الطائرة وكما قلنا بدون إثارة شكوك.

14. التزكية

وهي من أخطر الطرق وأكثرها استخدامًا بين أجهزة المخابرات، حيث تعتمد على زراعة الجاسوس لهدف واحد لا غير ويبقى يعد لهدفه سنوات، تقتصر مهمته اللحاق بجهاز مخابرات آخر أو نظام حكم أو كيان ما، يبقى دون تواصل مع جهازه الرئيسي لسنوات ولا يستقبل أي تعليمات ولا يرسل أي معلومات ويزاول عمله الذي يتخذه كغطاء بشكل طبيعي، حتى تأتي اللحظة التي كانت ضمن مخطط جهاز المخابرات بالتواصل معه ليقوم بتسهيل دخول العملاء أو الجواسيس ضمن نطاق نفوذه أو من خلال تزكيته وشهادته الإيجابية بالملتحقين الجدد تحت غطاء مناسب لهم، تزكيته لهم وتسهيل دخولهم في العمل يُعتبر من أعظم الإنجازات رغم سهولة الأمر وابتعاده لسنوات عن التعرض للمخاطر بشكل كبير، وقد لاحظنا مثل هذا النوع كيف تم استخدامه بكثرة في بعض التنظيمات الغير إسلامية والإسلامية كتنظيم "داعش" التي اعترفت في أكثر من مرة بشكل مباشر و غير مباشر باكشتاف أمراء على مستوى عالي يتبعون لجهات استخباراتية رغم سيرة "قتالية" طويلة ممتدة لسنوات .

15. التجسس الإلكتروني

تكلمنا عن طيران الاستطلاع ذو المهام التجسسية، لكن هنا الأمر أعمق كما أننا حين سنتكلم عن الاختراق سيكون أعمق كذلك.

أدركت معظم دول العالم أهمية التجسس وعلى وجه الخصوص التجسس الفضائي من خلال الأقمار الاصطناعية فسارعت لها.

إسرائيل ليست بمعزل عن ذلك أكيد بل في الصدارة داخل هذا المضمار، بل صار اعتمداها على تلك الاقمار التجسسية مرتفعًا، فارتفع في العقد الماضي من 150% إلى 200% كما أكد أحد الضباط في دولة الاحتلال من شعبة التنصت التابعة للمخابرات الحربية أن الاعتماد على الاقمار الصناعية في أعمال التجسس يزداد.

كذلك ذكرت صحيفة "إسرائيل اليوم" أن دولة الاحتلال تسيطر على فضاء الدول العربية بواسطة 6 أقمار صناعية مهمتها تصوير كل شيء يحدث فوق تلك الأرض، والوحدة المسؤولة عن إدارة الأقمار تُعرف باسم "عاموس".

كذلك أذكر فيما مضى سمعت نحو هذا الكلام عن أقمار اصطناعية أمريكية متطورة بل أذكر حينها إن لم تخني الذاكرة أن أحد المسؤولين الأمريكان قال: "الأقمار الصناعية الأمريكية الحديثة تمت تجربتها فالتقطت صورة لكتاب ملقى على الرصيف في أحد شوارع باريس، وصورة أخرى لتفاحة مقضوم منها جزء، ملقاة في ضواحي لندن". ولا أدري حقيقة صدقه في الأمر.

بالعودة لإسرائيل، ولماذا إسرائيل؟، الحقيقة لأنها أكثر دولة برعت في مجال التجسس الإلكتروني على الإطلاق، فاستعان بتقنياتها وبرمجياتها دول كثيرة من بينها دول عربية! نعم دول عربية يحكمها طغاة وعملاء بغية التجسس على أبناء الأمة في بلدانهم أو في بلدان نشط فيها صوت الحق وبدأت تتحرر كاليمن والشام ومصر.

دولة الاحتلال "الوحدة 8200" وحدة تجسس تتبع لشعبة المخابرات العسكرية، تجمع المعلومات وتفك الشيفرات عبر وسائل الاتصال بشكل متطور تكنولوجيًا، تعتمد في المجال الاستخباراتي على الرصد والتصنت والتصوير والتشويش وفق مجالٍ متقدم من التقنية.

الوحدة تستخدم ضمن أعمالها طائرات صغيرة "درون" لتنفيذ مهام خاصة وقد تم استخدامها ضد شخصيات فلسطينية مقاومة، حيث تحمل صواريخ صغيرة قاتلة.

بعد ثورات الربيع العربي، يقول المعلق العسكري الإسرائيلي "يوآف ليمور إن": "الوحدة 8200 باتت تركز معظم مهامها على مواقع التواصل الاجتماعي التي يتواجد فيها الشباب العرب، وعلى وجه الخصوص "فيسبوك وتويتر" بغية رصد التحولات السياسية والاجتماعية والنفسية، ثم تحليل الأمر لمعرفة كيفية التعامل معهم حتى لا تحصل مفاجأة جديدة بعد تفجر الثورات العربية".

وفي تصريحٍ آخر عبر صحيفة معاريف فذكر "رايبو بورت" أن الحواسيب المتطورة التابعة للوحدة 8200 قادرة على رصد الرسائل ذات الطابع الاستخباراتي من خلال معالجة ملايين الاتصالات وتحليل مليارات الكلمات.

هذه الوحدة من مهامها كذلك مرافقة الجنود على الأرض للقيام بعمليات استخباراتية تكتيكية وهي تضم ضباط وجنود، تعمل بشكل وثيق مع وحدة "سييرت متكال" الوحدة الخاصة النخبوية والتي تتبع مباشرة لشعبة المخابرات العسكرية.

وأثناء كتابتي لهذا الكتاب قرأت لمصادر متعددة أن الوحدة 8200 وبالتعاون مع عملاء إلكترونيين من كردستان العراقية يقومون من خلال نحو 100 صفحة وحساب يمتلكونهم في "فيسبوك وتويتر" بالتحريض على حرب أهلية في العراق من خلال توجيه الرأي العام في المجتمع بصبغة مدروسة.

إسرائيل في هذا المجال تعتبر في المركز الثاني بعد الولايات المتحدة، وبينها وبين الولايات تعاون كبير، وكذلك بينها وبين بريطانيا وحتى دول أخرى، في بريطانيا اللواء 77 المكون من عدد من الوحدات العسكرية منها عمليات الإعلام والمجموعة خمسة عشر الخاصة بالعمليات النفسية، وهذه الوحدات تتألف من حوالي 1500 جندي بين نظامي واحتياط، مهمة اللواء تكمن في إحداث التغيير في المجتمعات المستهدفة من خلال منصات التواصل الاجتماعي عبر بث تغريدات وتدوينات معينة، كذلك تحليل البيانات وغيرها مما يتعلق في الحرب النفسية، بل من الأسرار التي تتكشف كل يوم، أن المسؤول التنفيذي لمنصة "تويتر" في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا هو ضابط في اللواء 77 !!. ناهيك عن فضائح برمجيات التجسس التابعة لبعض الدول المتحكمة، ولعل آخر تلك الفضائح ما نقلته كثيرٌ من المواقع الموثوقة حول رصد خبراء وباحثين لبرمجيات إسرائيلية منتشرة في أكثر من 45 دولة في العالم بهدف الاختراق والتجسس.

كنت أود التعمق في الحديث حول تطور التجسس الإلكتروني الأمريكي لكن فضلت الحديث عن دولة الاحتلال لأنها الأقرب لبلداننا ولأني أعتقد أنها الأخطر، كما أعتقد أن تواجدها التجسسي في المنطقة أكبر من غيره بكثير ولو لم يظهر هذا في العلن، لكن لفت انتباهي مؤخرًا كثير من الأحداث بعضها أخذ صدى كعمليات القصف لمواقع حساسة في سوريا والعراق واليمن وبعضها تم بدون ضجة إعلامية كعمليات اغتيال حصلت لعقول عربية منها يتبع

للقسام ومنها مستقل بعمله، ناهيك عن عمليات اغتيال مسلحين وشخصيات موالين للروافض أو هم ذراع لها.

نعم قد بلغوا من التطور ما بات مخيفًا لكن ليس للحد الذي يريدون فيه تأطير عقل الإنسان حتى يشعروه أنهم باتوا معه في كل مكان ويعرفون كل حركة وكلمة وكأنهم يقارنون أنفسهم بالإله نعوذ بالله من ذلك.

فلقد رأينا فشل تلك الأقمار في فيتنام وفي أفغانستان وفي لبنان وفي فلسطين وفي العراق وفي كثيرٍ من الأماكن التي كانت فيها الحرب حرب إجرام وخسة تقتل آلافًا من العوام العزل لكي يحققوا القدرة على قتل فرد أو أكثر ممن يسمونهم "متطرفين" ومن ديانات مختلفة.

بل سيأتي معنا في باب الاختراق كيف أن هذا التطور كان سخرية في بعض الأحيان، من خلال أحداث وهجمات منفردة جعلته يظهر بمظهر مضحك للغاية.

إذًا نحن علينا أن نوازن بين حقيقة تطورهم وحقيقة حربهم النفسية، فلا نُكذب قدرتهم الكبيرة على التجسس بواسطة التكنولوجيا، ولكن نثق أنهم بشر يفوتهم الكثير ويخطؤون وينسون ويعمي الله على سمعهم وأبصارهم وقلوبهم ويقدر الرب تبارك وتعالى أن يمحو ما يشاء من ذاكرتهم ونباهتهم ويصرف عقولهم وحواسهم حيث يشاء، لذا فالمسلم بشكل عام والمجاهد بشكل خاص لديه الحصن المنيع والرادع لهذا التطور، ألا وهو الدعاء والأذكار المختلفة في كل حركة وسكون مع الأخذ بأسباب الأمان.

إذًا؛ فمن الواضح أن معظم طرق التجسس تحتاج لفرد يكون مؤهلًا للعمل التجسسي، وكما مر معنا أن الجاسوس يكون عمله في الشر، والناموس في الخير، نحاول الآن تعريف الجاسوس والناموس أو من الممكن أن نسميه العين.

◈ الجاسوس

هو الشخص الذي يمارس التجسس ليحقق الهدف المطلوب منه بشكل سري، ويعتمد ذلك منه على السرية المطلقة والقدرة على الوصول لمعلومات محجوبة عن العامة.

يتطلب كل هذا العمل تحت شعار كاذب للتمويه، كأن يتغلغل بصفة غير ملفتة للانتباه أو كشخصية معتبرة روتينية، وفي الغالب يكون الجواسيس هم الدبلوماسيين في السفارات والقنصليات.

يقول "لوديك": "الجاسوس لا يحتاج إلى وسيلة إخفاء مجددة فقط، بل كذلك يحتاج إلى مهارة ليلعب دورًا لشخصيته التي يتخيرها لاختفائه ومن الأهمية أن يكون ممثلاً بارعًا وأن يكون سريع البديهة قادرًا على أن يواجه في ثبات واتزان أخطر المواقف وأعقدها".

◈ الناموس

وهو في بعض تعاريفه نقيض الجاسوس، فيطلق على متتبع العورات والزلات والمفتش عن خفايا الأمور بالجاسوس وذلك في الشر ونعته بالوصف السيء، والمحافظ على الأسرار الممتلك للغيرة والشرف والشهامة فيقال له ناموس، ومن الممكن أن نضيف قولًا فيه بما يخص العمل الاستخباراتي: هو العنصر الذي يحافظ على أمن أمته وأسرارها ويسد الثغرات فيها مع عمله لاختراق عدوها ومن يتربص المكر بها.

وتذكر بعض المعاجم في تعريف "الناموس": الحاذق – صاحب سر الرجل – الحيلة – المهارة.

وجمع ناموس نواميس.

إن التركيز على المصطلحات هو أمر هام وله أثر نفسي لا يمكننا التغافل عنه، ولذلك أردت الحديث عن الناموس نقيض الجاسوس مع التأكيد على أن المصطلح يوافق كثيرًا من الأوصاف التي تدل على العمل الواحد كوصف العامل بالعين.

◇ متطلبات في الجاسوس/الناموس/العين

1. قوة الذاكرة

يجب أن تكون الذاكرة قوية يستطيع استرجاع الأحداث والمعلومات التي حصل عليها أثناء العمل أو محادثة شخص ما.

2. المهارة المهنية

وهي المهارة الخاصة بغطاء عمله ليستطيع كسب الثقة والترقية في عمله أو ينجح في التصدر اجتماعيًا أو يزاول عمله السري بدون إثارة شبهات حوله.

3. اجتماعي

أن يكون ممتلكًا القدرة على مناقشة الآراء والغوص في الأحاديث، أما الانطوائي فلا يمكنه تحقيق جمع المعلومات ولا بناء العلاقات الضرورية.

4. المغامرة

يجب أن يكون لديه القدرة والحب لخوض المغامرات قبل أن تكون مجرد وظيفة ينفذ التعليمات فيها.

5. المعنويات

من الضروري توفر الروح المعنوية العالية التي ستنعكس إيجابًا على عمله فيكون مثمرًا أكثر، فبدون الروح المعنوية العالية التي تعتبر وقودًا روحيًا لن يستطيع الاستمرار.

6. الحنكة

الحنكة واللباقة في التصرف أمر ضروري وهام يجب أن يكون حاضرًا في التعاملات وفق الجائز والمباح.

7. العاطفة

يجب أن لا يكون عاطفيًا أو تحركه العواطف وحدها، إنما متزنًا في ذلك يستطيع تقدير المواقف بدون الضغط العاطفي.

8. الهدوء

ممارسة الهدوء لمعرفة نقاط ضعف الخصم ومراقبة التصرف الخاص للتخلص من الثغرات في الوقت الذي يجد فيه الثغرات عند الآخرين.

9. القيادة

القدرة على تحقيق القيادة للآخرين بدون شعور الآخرين بذلك، ويتحقق الأمر من خلال الديناميكية في التعاطي والدبلوماسية في الحوارات والتعاملات التي تؤهله ليكون بدور القائد للحديث أو العمل بشكل غير مباشر.

10. الدقة

أن يكون دقيقًا في عمله يدرك ماذا يريد ومتى وكيف يجب أن يحقق ذلك.

11. السرية

يجب أن يتمتع بحس عالي من الأمن وكتم اللسان وضبطه، ويدرك ثمن الإهمال في حفظ السر.

12. الجرأة

الجرأة أمر مطلوب لكنها بشكل منطقي أو عقلاني، مدروسة؛ حتى لا تتحول إلى تهور وحماقة، فبين الجرأة والتهور شعرة.

13. النباهة

هي ركن أساسي لا بُد أن يتحلى بها، ملاحظة الأمور الدقيقة والغير لافتة للنظر عند العموم.

14. المكر

الخداع والمكر صفة رئيسية عند العامل في هذا المجال، ونعني بها القدرة على التضليل والمناورة عند الحاجة لها في المخاطر، أو استخدامها بما يلزم تحقيق الهدف والغاية.

15. الخبرة في نقل المعلومات

لا بُد للجاسوس أو الناموس/العين من إيصال المعلومات بقدر أهميتها وحاجتها، لكن إيصالها يحتاج أن يكون آمنًا وسريًا وفي نفس الوقت يجب أن تصل المعلومة بشكل صحيح، لذلك قد تنوعت أساليب التواصل بين العاملين في المهمة وبين جهازهم الأم.

ومن أكثر الأساليب استخدامًا لدى الموساد مثلًا طريقة البريد الميت، وتعتمد هذه الطريقة على وضع المخابرات للمعلومات التي تحتاج من العميل أن يعمل عليها أو معلومات يتم تزويده بها، يتم وضعها في قرص ذاكرة أو "فلاشة" ثم توضع في مكان ما يكون بعيدًا عن متناول الناس كقطعة أرض متطرفة أو زقاق مهجور ونحوه، ثم يتم التواصل مع العميل عبر الهاتف أو برسالة بريدية أو من خلال عميل آخر يتم اخباره بموقع البريد الميت ليذهب ويحضره، والحقيقة طريقة آمنة من حيث الأمن الخاص بسلامة العملاء والمراسلين الاستخباراتيين لكن لا نجدها آمنة من حيث وقوعها بأيادي أخرى عن طريق "المصادفة" والتي نسميها التقادير الإلهية .

كذلك يتم التواصل بين العاملين وجهازهم الأم من خلال الراديو، حاليًا يحصل ذلك من خلال منصات التواصل الإعلامي وهي أكثر تعقيدًا بسبب انتشار آلاف المنصات، تعتمد هذه الطريقة على بناء حساب عبر موقع للتواصل الاجتماعي تحت غطاء صفحة إعلامية في الغالب، بالفعل هي تهتم بالشؤون الإخبارية العامة لكن في نفس الوقت توجه رسائل معينة لأشخاص معينين قد يكون عن طريق شيفرات معينة أو من خلال رسائل مباشرة حينما يتطلب الأمر التحذير، وحتى تلك الرسائل المباشرة يصعب على الجهة الثالثة فهمها بشكل مباشر، ولنوضح المقصد فنضرب مثالًا بسيطًا : منصة إخبارية تهتم بنقل أخبار متفرقة لكنها تتبع لجهاز المخابرات "ج"، جهاز المخابرات هذا وصلته معلومات حول قيام فرع الأمن "ن" بعملية مداهمة لعناصر يتبعون للجهاز "ج"، يبث الأخير عبر ذراعه الإعلامية الوهمية خبرًا مفاده : قوات الأمن تقوم بمداهمة حي كذا . فعليًا تم إحباط عمل الأمن وإن لم يتنبه الأمن للأمر فقد وصل الخبر للعاملين وقد فهموا الخبر وأخذوا احتياطاتهم، كذلك مثل بعض المواقع يتم استخدامها لتثقيف المجندين من خلال بث الدروس العامة والنصائح العلنية والتحذيرات وتطوير الذات، تكون منصة عامة لكن هدفها واحد ومحدد.

قد يتساءل الشخص: لماذا كل هذا التعقيد في إيصال المعلومات أو تلقيها حيث من الممكن التواصل مباشرة من خلال أسماء وحسابات وهمية، والحقيقة سؤال جوابه بديهي!، الاختراق الإلكتروني موجود وأجهزة التصنت والمراقبة تعمل بقوة وفاعلية كما مر معنا، أما وجود

الحسابات الإلكترونية في منصات عامة يشترك فيها الآلاف فلن تكون بذات الخطورة المتعلقة بالمراسلات المباشرة.

بكل حال مر معنا ما يوضح شيء من الجواب، وفي الفقرة التالية ربما يكون في ثناياها ما هو أعمق وأوضح من خلال بعض أشهر قصص الجاسوسية والأعمال الاستخباراتية التي تكاد لا تنتهي، سننقل جزءً بسيطًا جدًا منها.

◈ قصص شهيرة في الجاسوسية

يقول "إيليوت كوهين" أستاذ في كليات الدراسات الدولية المتقدمة: "العملاء السريين والجواسيس قد يلعبون دورًا أكثر أهمية من دور الجنود والطيارين".

وقد عرف التاريخ آلاف الجواسيس منهم مروا بأدوار ثانوية ومنهم كان دورهم محوريًا ولبعضهم دورٌ في المنعطف التاريخي، سنذكر بعض تلك القصص بشكل مختصر وسريع، ونحاول استخراج بعض الفوائد لنتمكن من فهم أن القواعد المتعلقة بالاستخبارات والتجنيد والأمن هي حقيقية ممكنة التطبيق وليست أمرًا صعبًا خياليًا يندر حدوثه، ومع ذلك فهذا لا يعني إمكانية العمل بدون مؤهلات في الموهبة والعلم والمعرفة.

1. الجاسوس "تشي ماك"

في قصة عمليات التصنت سننقل أكثر القصص التي ذاع سيطها وهي قصة "تشي ماك" الرجل الغير مثير للاهتمام أو اللافت للانتباه يتمتع بالعلامات التقليدية الأمريكية وقد بلغ الستين من عمره في وظيفة تقليدية نوعًا ما، في إحدى شركات الدفاع المتوسطة في المستوى والتي تختص بتطوير أنظمة الطاقة لصالح البحرية الأمريكية.

"تشي ماك" ذو الأصول الصينية هاجر من هونغ كونغ إلى أمريكا في أواخر سبعينيات القرن الماضي، استطاع أن يكون موظفًا نموذجيًا، بل كان يلجأ له كثير من الموظفين في العمل.

جرت أحداث على الأراضي الأمريكية عام 2001، جعلت المكتب الفدرالي FBI يضع لائحة طويلة تحت المراقبة حول الأشخاص الأمريكيين ذوي الأصول الصينية، "تشي ماك" من بين تلك الأسماء وبرغم الهدوء العائلي والوظيفي الذي كان يتمتع به، لكن المكتب الفدرالي لم يوفر جهدًا في مراقبته ومراقبة غيره، تحديدًا من يشغل مناصب هامة في قطاعات الصناعة والتكنولوجيا والدفاع العسكري.

قام المكتب الفدرالي بوضع كاميرات خفية خارج منزله لمراقبة كل التحركات وقوائم الزوار، كما زرعوا أجهزة تنصت لسماع ما يدور من أحاديث في منزله ومراقبة المكالمات الهاتفية، لكن لم تكشف أي شيء كل تلك المحاولات.

لاحظ المحققون أمرًا ربما مثيرًا للاهتمام وجرعة لمزيد من المراقبة، لاحظوا حب "تشي ماك" وزوجته للقيادي الشيوعي "ماو تسي" بل حب شديد!، استغل المحققون عطلة قضاها ماك وزوجته خارج المنزل، فقاموا بالتسلل للمنزل عبر فرقة خاصة عندها قدرة عالية على الفحص والبحث وإخفاء الأثر بعدها.

وجدوا الكثير من الأوراق والوثائق الخاصة بأنظمة الطاقة للسفن البحرية الأمريكية ومعلومات عن التقنيات الجديدة التي كانت قيد التطوير بالإضافة لرسومات ومعلومات عن غواصات جديدة شديدة التطور وتقنيات تسليحها، بالإضافة كذلك لأسماء موظفين ومهندسين من أصول صينية.

قام المحققون بتصوير كل شيء ثم محو الأثر، لم يكن يريدون القبض على ماك فورًا، يحتاجون أدلة أكثر ومعلومات أكبر حول من معه ومن يعاونه وما هي الجهة المتعاونة وتفاصيل أخرى، فاستمرت المراقبة لكن تطورت حيث صار المكتب الفدرالي يفتش كل يومٍ في أكياس القمامة التي يرميها "تشي ماك"، بقي الحال أشهرًا طويلة دون الحصول على معلومات إضافية.

عام 2005 حصلت المحققة "جيسي موراي" على بقايا ورقة ممزقة داخل القمامة مكتوبة باللغة الصينية، جمعت بعناية أجزاء الورقة، نتج عن التركيب استخراج وثيقتين واحدة مكتوبة بخط اليد والثانية تمت طباعتها على الآلة الكاتبة، كانت الورقة المكتوبة بخط اليد

تحمل مخطط للغواصات وتطويرها، والورقة الثانية فيها أوامر وتعليمات ل "ماك" للذهاب إلى مؤتمرات وأحداث معينة لجمع المعلومات.

هنا تيقن المحققون من أنَّ "تشي ماك" جاسوس لصالح المخابرات الصينية، لكن ومع ذلك لم يتم القبض عليه!، -نلاحظ العقلية المخابراتية العميقة والمحنكة-، أراد المكتب الفدرالي جمع أكبر قدر من المعلومات حول العملاء الشركاء مع "ماك" وحول ماهية المعلومات التي بالفعل قد أوصلها للمخابرات الصينية وحجم المعلومات التي توفرت لديه، كل ذلك لمعالجتها فيما بعد.

بعد التيقن من جاسوسية "ماك" نفذ المكتب الفدرالي عملية تسلل أخرى في غياب العائلة وزرع كاميرا خفية داخل البيت فوق طاولة الطعام.

صورت الكاميرا "تشي ماك" وهو يضع أقراص الليزر في الكومبيوتر لينسخها أثناء حديثه مع زوجته عن ما تحمل تلك الأقراص من معلومات هامة حول التقنيات البحرية الأمريكية، كما صورت حديثًا دار بين "ماك" وزوجته حول مغادرة أمريكا والتوجه للصين، كان الوقت قد عرفه المكتب الفدرالي، وبالفعل تم القبض عليهما في المطار وبحوزتهما قرص ليزري (سيدي) يحوي معلومات خطيرة.

فيما بعد وبعد التعمق في التحقيقات، تبين أن "تشي ماك" ليس مجرد جاسوس عادي تم تجنيده، إنما مدرب بشكل عالي تمت زراعته، حيث كان تابعًا للمخابرات الصينية حتى قبل أعوام طويلة من مجيئه لأمريكا، نعم منذ كان يعمل في هونغ كونغ

"يُستفاد من قصة تشي ماك، أن عمل رجل المخابرات في الجاسوسية يجب أن يكون حبيس صدره، وحتى المحادثة مع أقرانه يجب أن تكون بصوت منخفض مهما كان المكان يظهر عليه طابع الأمان، كذلك مراعاة عدم الحديث لا بصوت منخفض ولا عالي بأمور لا حاجة للحديث عنها، وكبح حالة المفاخرة أو التعبير عن السرور وحصاد النتائج قبل وقتها".

2. الجاسوس الخامس روجر هوليس

شغل ٢٩ عامًا في المخابرات البريطانية وتدرج بالرتب حتى وصل إلى مركز مدير المخابرات البريطانية.

كانت أكثر واجباته هي مكافحة جواسيس السوفييت والقدرة على التجسس عليهم، لكن الذي حصل هو العكس!، بالعودة لتاريخ روجر الشاب الذي فشل في دراسته فقرر السفر للمكسيك لأجل تحصيل المال، ثم عدل عن الفكرة وسافر للصين وهناك فيما يبدو صار شيوعيًا مضافًا لذلك أنه ذو ميول جنسي متعدد في ملاهي الصين، هذا سهل على مخابرات السوفييت تجنيده أو ابتزازه، ثم سافر لسويسرا لأجل علاج مرض أصابه ليعود أخيرًا إلى بريطانيا ويدخل في وظيفة المخابرات، وكون أبوه رجل دين فقد سهل عليه الأمر بنظر المخابرات البريطانية ولذلك لم يدققوا في خلفيته بشكل جيد رغم رفض توظيفه لمرتين سابقتين قبل أن يقبلوه في الثالثة .

استمر روجر بعمله الظاهري في مكافحة جواسيس السوفييت وفي عمله الحقيقي بتسريب المعلومات للمخابرات السوفيتية، وقد شعرت المخابرات البريطانية بخلل في الجهاز لكن لم تستطع تحديد أين الخلل وما هو سبب التراجع وتفوق المخابرات السوفيتية.

كانت المخابرات البريطانية تعجز عن كشف العملاء السوفييت بشكل دائم ولسنوات طويلة في حين تتفوق المخابرات السوفيتية وتسبقهم بخطوة.

المخابرات الأمريكية ومن خلال مصادرها الخاصة تعاظمت عندها الشكوك بروجر هوليس وقد مررت الشكوك لدائرة ضيقة في إدارة المخابرات البريطانية، لكن الأخيرة لم تشأ تصديق الأمر لأسباب كثيرة وربما كانت تحاول إقناع حليفها الجهاز الأمريكي ألا يقلق، فالمخابرات الأمريكية بدأت تحجم عن التعامل مع المخابرات البريطانية وفيما يبدو شعر البريطانيين أنه إن تم تأكيد شكوك الأمريكان فقد تكون العلاقة مهددة! .

وأثناء استمرار روجر في ترقيه بالعمل، وصلت معلومات للجهاز البريطاني أنه ثمة خمس عملاء للسوفييت يشغلون مناصب داخل جهاز المخابرات بينهم شخصية رفيعة المستوى، في ذلك الوقت كان روجر هو مسؤول في مكتب مكافحة الجواسيس وتم تكليفه بالتحقيق بالأمر!، أي بما معناه: كان روجر مكلفًا بالبحث عن نفسه!، وبعد مرور الوقت ولم يقدم روجر أي شيء مفيد تم كشف أربع جواسيس من خلال رجال ومكاتب المخابرات الأخرى، لكن بقي الجاسوس الخامس مفقودًا للمخابرات البريطانية.

لم يكن روجر هوليس شــخصًــا غبيًا، بل كان حاذقًا وكان مدركًا متى يمرر المعلومات للمخابرات الســوفيتية وأي معلومات إن مررها ســتفضــح أمره، لكن مع ذلك بدأت الشــكوك حوله تدور وبدائرة ضيقة حتى وصل أخيرًا لمنصب مدير جهاز المخابرات البريطاني!.

عمليات البحث عن الجاسوس الخامس لم تتوقف، لكن كان من الواضح أن بريطانيا وقعت بين نارين، تريد التأكد من الجاســوس الخامس وفي نفس الوقت تخشــى أن تكون معلومات الأمريكيين صحيحة مما يعني تهديد العلاقة والتعاون بين البلدين، عدا عن فضيحة ضخمة.

بقي الحال حتى اســتقال روجر بكل هدوء وأنهى خدمته، وقد كان ملاحظًا بشــكلٍ كبير تغير شــبه جذري في الجهاز البريطاني، فها هو بدأ يتفوق ويجاري المخابرات الســوفيتية بعد فشل تلو فشل طيلة سنوات عديدة، هذا دفع لشكوك قوية أن روجر هو الجاسوس الخامس المفقود، فُتح تحقيق معه لكن كان واثقًا من نفســه ولم يكن تحقيقًا عميقًا مما جعله طليقًا حرًا، وبعد موته وبسنوات طويلة أعيد فتح التحقيق بسبب الوصول لمعلومات متتالية دفعت للتأكد أن روجر كان جاسوس السوفييت الذي وصل لأعلى مركز في جهاز المخابرات البريطاني.

"نلاحظ أن بداية الكارثة على الجهاز البريطاني كان من خلال عدم الاطلاع على الســيرة الذاتية لروجر بشــكل حقيقي واعتمادهم على أنه ابن رجل دين، كما نلاحظ أن مخاوفهم البســيطة والتردد جعل الأمر يتعاظم والخطر يتضــاعف، في حين كان روجر يعمل بســلاســة ولديه الصــلاحيات الواســعة دون أن يجد الجهاز البريطاني حلًا لكبح ســيل المعلومات بين يدي الجاسوس".

3. الجاسوس المستشار

"أنطوني بلانت" مستشار في المملكة البريطانية قبل عقود قليلة، كانت قصته شبيهة بروجر هوليس أي جاسوس سوفيتي برتبة مستشار في بلاط المملكة البريطانية!.

ومثل تلك القصــص الواقعية التي حصــلت ولا نعلم بعد عقود من الزمن ما هي القصــص التي ســيفتضــح أمرها وتخرج للعن، تجعلنا نقف وقفة مطولة للتفكير بعقلية جديدة حول الجواســيس والعمل الاســتخباراتي وكيف أن التجنيد فن وعلم عظيم تحقق من خلاله ما لا

يمكن تحقيقه بأي سلاح آخر، كما يدعونا لإعادة النظر بطريقة التفكير حول الأشخاص الذين نمنحهم الثقة التي هي في غير موضعها أو نجهل تفاصيل حياتهم أو سير عملهم.

مما لفت انتباهي في عالم الجاسوسية، أن معظم الجواسيس الغربيين الذين يعملون ضد بلادهم، هم أصحاب شذوذ جنسي "مثليين"، الحقيقة لم أقف على السبب وراء هذه "المصادفة" لكن قد يكون من الأسباب التي جعلتهم متشابهين بالشذوذ الجنسي ثم العمل كجواسيس ضد بلدانهم، هو شعور النقص والخلل الداخلي أو فقدان الحالة الطبيعية ومحاولة العبث في الفطرة.

قصة أنطوني مشابهة إلى حد كبير بقصة روجر لكن الفرق فقط في الموقع، حيث استطاع أنطوني من الوصل لمركز المستشار في المملكة وبرغم الشكوك الكثيرة والكبيرة استطاع التملص مرارًا منها بالخديعة واللعب بالعاطفة، لكن في النهاية وضع حد له وتمت محاكمته بجريمة الخيانة والتجسس.

4. "همام بلوي" رجل الاستخبارات المسلم.

طبيب أردني مواليد الكويت 1977، دخل الأردن عام 1991، وكان عمره حينها 14 أربعة عشر عامًا، درس فيها الطب ثم سافر لتركيا وتزوج هناك قبل أن يعود للأردن بعد مدة قصيرة.

عام 2008 تم اعتقال همام من قِبل المخابرات الأردنية بتهمة نشاطه الجهادي، فقد كان همام متأثرًا بحال المسلمين في غزة وأفغانستان والعراق وكل مكان، وكون المخابرات الأردنية بيد المخابرات الأمريكية فتم اللعب على تجنيده لصالح "السي آي أيه" وتحويله لجاسوس، وبالفعل تم الافراج عنه مقابل تجسسه على القاعدة والسعي للقاء زعمائها ثم إرسال المعلومات لوكالة الاستخبارات الأمريكية، وافق همام وأقنعهم أنه جاهز لهذه المهمة.

توجه همام لوزيرستان والتحق بحركة طالبان الباكستانية، أحبوه هناك وصار مقربًا منهم، همام أخبر من يثق به بما حصل معه وبدأ اللعب بأسلوب كلاسيكي لكنه بذكاء حاذق، فصار همام يمد المخابرات الأردنية بالمعلومات والتي بدورها ترسلها للمخابرات الأمريكية، بكل تأكيد معلومات مدروسة لكسب ثقة المخابرات.

بالفعل همام بعد عام تقريبًا على عمله، استطاع كسب ثقة المخابرات الأردنية والتي امتدحته بشدة عند وكالة الاستخبارات الأمريكية، فطلبت الأخيرة لقاءه بشكل مباشر لتقديم المعلومات السرية بشكل مباشر، تم تنسيق اللقاء الذي من المفترض أن همام سيلتقي هناك أهم سبعة ضباط مخابرات أمريكيين وضابط ارتباط في الجهاز الأردني، ليأخذ التعليمات منهم والمهمة الجديدة، لقدرة همام على بناء وكسب ثقة المخابرات بذكائه وحنكته فلم يكن يخضع لعمليات تفتيش، توجه للقاء وعلى خصره حزام ناسف من العيار الثقيل، فجره وسطهم ليقتل كل من في الغرفة، سبعة ضباط أمريكيين وضابط أردني .

لقد سردناها كقصة عابرة، لكن لو تكلمنا عن تفاصيلها ومذكرات همام بلوي لذهل القارئ!، كيف له القدرة على فعل ذلك؟ كيف نجح وحده في اختراق أقوى جهاز مخابرات كيف استطاع خداعهم !، لكن لا زلت أذكر لليوم بعد تلك العملية كيف أبهرني الأمر فرحت أفتش عن خلفية القصة، من هذا همام؟ لماذا حصل هذا التفجير في مبنى مدني؟ هل من المعقول هذه الصحف والإذاعات صادقة حول هجوم "إرهابي" على مدنيين!، حتى أهم القنوات لم تذكر شيئًا في الأيام الأولى إلى أن بدأت القصة تتكشف وراح بعضهم يعترف بحقيقة الأمر.

وقعت بين يدي القصة كاملة من خلال صديق استعنت به وقتها وبشكل سري، فنحن في دولة بوليسية (سوريا).

وبعد مرور الوقت ظهر همام بلوي من خلال مقطع مسجل قبل تنفيذه للعملية "إصدار" بثته مواقع تابعة لتنظيم القاعدة، همام يروي بالتفصيل كيف تم اعتقاله ثم تجنيده ثم كيف خدع المخابرات ثم اللحظات الأخيرة له وهو ذاهب لتنفيذ العملية.

"في عمل همام المتقن، نستفيد أن عمليات التجنيد العكسي هي أولى أولويات العدو والخصم، لكن العدو ليس بالسذاجة والغباء الكافي لتنطلي عليه الخدعة بدون إتقان وحرفية عالية قادرة على إقناعه أنه نجح بعملية التجنيد العكسي، هذا يتطلب من الشخص أن يدرك كيفية التصرف ويعرف كيف يختار من يساعده بهذه المهمة لتحصيل فائدة حقيقية، كذلك العمل منفردًا بدون إبلاغ جهة مختصة سيكون أمرًا سلبيًا غير مقبول".

5. كيبورك يعقوبيان

جاسوس لصالح المخابرات المصرية داخل إسرائيل، يمتلك مهارات استثنائية وفريدة من نوعها تدور حول البداهة والذكاء، طمحت المخابرات المصرية لزراعته داخل جيش الاحتلال، بل كانت مهمته المحاولة والسعي للدخول في وحدة القوات الخاصة أو سلاح الاستخبارات الحربية.

كانت المهمة بحسب الخطة زراعة الجاسوس فقط لعام واحد يكفي!، لكنه نجح في البقاء كجاسوس لمدة عامين.

"كيبورك" شاب مصري أرمني يبلغ من العمر نحو 24عام، ناجح دراسيًا يهوى التصوير الفوتوغرافي، سرعان ما تحولت الهواية لصنعة لأجل سد احتياجات الحياة الصعبة لديه، لم يكن المردود المادي كافيًا، مما دفعه لعمليات نصب واحتيال أدت به للسجن قبل أن يخرج بصفقة مع المخابرات المصرية وذلك بعد إدراك المخابرات أنه من الممكن صناعة جاسوس محترف منه.

"كيبورك" الشاب الوسيم المتقن لخمسة لغات، بدأ عمله بتقمص شخصية اليهودي المتدين ليكسب الثقة في الوسط اليهودي بوقتٍ قصير، وهذا تطلب منه وقتًا قياسيًا لفهم وتعلم كل ما يتعلق باليهودية وكل ما يتعلق بفن التملص من المراقبة والاستدراج والأمن وأنجز كل ذلك في عام واحد، بل حتى كانت المخابرات المصرية حريصة في أدق التفاصيل حيث قامت بختان كيبورك لأن اليهود يختتنون (الختان : قطع الجزء الزائد فوق العضو الذكري)، بدأ بعدها بالتردد للمعبد اليهودي في مصر على أنه من أصل تركي دفعت الحرب والده للجوء لمصر، كيبورك بدأ الخطوة الثانية في عمله، فصار اسمه "كاوتشوك" بشكل رسمي صادر عن الطائفة اليهودية بمصر، سافر للبرازيل وحصل على شهادة اللجوء من وكالة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة عام 1960م. في البرازيل تعرف "كيبورك" على "أرجمان" اليهودي المتعمق في التدين، فاستطاع كيبورك كسب ثقة وود "أرجمان" الذي عرض كل خدماته على كيبورك، بل حاول إقناع كيبورك بالسفر لإسرائيل، إلا أن كيبورك كان يرفض!، يرفض وهو الذي يريد الدخول لإسرائيل؟، نعم حتى يستفيد من هذا الرفض في حال عملت المخابرات الإسرائيلية

على جمع المعلومات، وبهذا الرفض المتكرر سيبعد الشبهات عنه، وأنه أصلًا لم يكن يرغب بالمجيء لإسرائيل لولا إصرار "أرجمان". هذا الرفض دفع أرجمان لمحاولات عديدة في إقناع كيبورك منها تعريفه بمسؤولي الوكالة اليهودية ليقنعوا كيبورك أن دولتهم بحاجة لأمثاله من الشباب الغيورين، في النتيجة أخبرهم أنه اقتنع بكلامهم وصار جاهزًا للسفر إلى إسرائيل لتقديم خدمته، كانت الخطة التي أعدتها المخابرات المصرية والضابط المسؤول عن متابعة كيبورك تقضي بوصوله إسرائيل وهو في سن التجنيد الإلزامي وسيتم ضمه للجيش، وعليه حينها أن يجتهد ويثبت جدارة حتى يستطيع الانضمام للقوات الخاصة أو جهاز الاستخبارات الحربية، وذلك بتدرج وبشكل طبيعي كأي شاب يهودي متميز يطمح لخدمة بلده إسرائيل، كما طلبت منه المخابرات المصرية أن يبقى قريبًا من الحدود المصرية أي في قطاع غزة، حتى يتمكنوا من تخليصه وقت اللزوم .

انضم "كيبورك" للجيش وعرف الجميع عنه أنه مصور هاوٍ، فاستمتع الجنود بالصور التي كان يلتقطها لهم، ثم صار سائقًا عند أحد الضباط الكبار في قيادة الدفاع المدني كان الضابط "شمعيا بكنشتين"، هذه الوظيفة قدمت له الكثير من المعلومات الهامة والسرية التي ساعدت المخابرات المصرية في فهم العمل العسكري وقدرات التسليح لدى الجيش الإسرائيلي.

استفادت المخابرات المصرية لمدة عام من كم كبير من المعلومات، لكن أخبرت كيبورك أن يتجهز لمهمة جديدة متعلقة بالمجتمع الإسرائيلي وبعيدة عن الأمور العسكرية !، معظم الأوامر كان يأخذها من المخابرات من خلال الراديو وتحديدًا عبر إذاعة "صوت الشعب" كما جاء في المذكرات المنتشرة حوله، بعد عامين انتهت قصة كيبورك الاستخباراتية، فالذي حصل لسوء حظه فقد عاشت المخابرات الإسرائيلية في ذاك الموقت هاجس المؤامرة الكونية مما دفعها لمراقبة الآلاف وعمليات تفتيش ضخمة أدت لكشف كيبورك واكتشاف الحبر السري بحوزته وبعض الوثائق والمستندات .

وصفته صحيفة "يديعوت أحرنوت" العبرية بالحوت الضخم الذي لا يمكن لأجهزة الأمن الإسرائيلية القبض على أمثاله إلا نادرًا.

"في قصــة كيبورك، ندرك أهمية وضــرورة غطاء لتنفيذ العمل الاســتخباراتي، ونلاحظ أسـلوب المخابرات المصـرية في أكثر من عمل اسـتخباراتي اتباع نفس الطريقة في عملية تجنيد الجواسيس، وهنا ندرك أنه يمكننا الاسـتفادة من أي شخص يمتلك المقومات اللازمة ولو كان غير منتسـب كموظف اسـتخباراتي، فمن الممكن تجنيد البارعين كمجندين لهم مهمة محددة وزمن محدد".

6. جاسوسة الموساد "أمينة مفتي"

"آني" الجاسـوسـة التي وضـع اسـمها بلوحة "الشـرف" عند مدخل مبنى الموسـاد اليهودي. أردنية الأصــل، غيرت دينها من الإســلام إلى اليهودية لتتمكن من الزواج بعشــيقها اليهودي، شركسية العرق لوالد غني مرموق في تجارة المجوهرات، في عام 1957 سافرت أمينة إلى النمسا لاســتكمال دراســتها، هناك أغراها التحرر والانحلال، عادت للأردن لكن ســرعان ما طلبت النمســا مجددًا بذريعة طلب الدكتوراه والحقيقة كان الهدف البيئة التي أغرتها، هناك تعرفت بأخ صــديقتها وهو طيار يهودي عســكري برتبة نقيب، تزوجته بعد أن غيرت دينها، ثم أصــرت على زوجها السـفر لإسـرائيل خوفًا من وصـول أهلها لها وقتلها، "موشـيه بيراد" زوج أمينة تقلد رتبة رائد طيار في سـلاح الجو الإسـرائيلي بعد وصـولهم لأرض الاحتلال، في عام 1973 أسـقطت المدفعية الســورية طائرته وتم فقدان أثره، هنا بدأت أمينة رحلت الانتقام ممن قتلوا زوجها وعلى وجه الخصوص من المقاومة الفلسطينية، فأصبحت مجندة في جهاز الموساد عارضة كل خدماتها .

بدأت مهمتها بالانتقال إلى لبنان على أنها طبيبة ميدانية، هناك بدأت رحلة الجاســوســية لصـالح الموسـاد من خلال التغلغل في الفصـائل الفلسـطينية، عملت بدهاء مكنها من الوصـول بسـرعة لمكتب ياسـر عرفات الرئيس الفلسـطيني الذي منحها إذن وتصـريح مكتوب يمكنها من الدخول لأي موقع فلسطيني تريد كونها طبيبة ماهرة ومتطوعة.

خدعت أمينة الكثيرين على أنها تتألم لأجل المشـــردين الفلســـطينيين، وأنها تتبنى المقاومة الفلسطينية مما جعلها تتغلغل أكثر فأكثر.

كانت مهمتها التحري عن مراكز إقامة قادة المقاومة والطرق الذي يســلكها الفدائيون للتسلل إلى أراضي الاحتلال ومعرفة أسمائهم ونوعية تدريباتهم وتسليحهم.

لم تنجح أمينة بمحاولاتها الأولى فقد فشــلت حين أدركت أن محيطها الذي تحاول من خلاله الحصول على معلومات ليس سوى محيط أصلًا لا يملك المعلومات التي تحتاجها، قررت أكثر من مرة ترك الجاســوســية وإعلان فشــلها، لكن حقدها ودافع الثأر لزوجها كان يعطيها شعور متجدد بمحاولات جديدة.

وكعادة عملاء الموســاد، ســلـك أســهـل الطرق لجمع المعلومات من دنيئي النفس وأصحاب النزوات، نعم من خلال الجنس.

"مارون الحايك" مسؤول في خطوط الهاتف العام، ذو نزوات ورغبات وجد مبتغاه عند أمينة التي منحته ما يريد وأخذت ما تريد، كانت معلومات بسيطة لكن مفيدة حول الاتصالات الســرية بين المنظمات الفلســطينية وعناوين لزعماء في المقاومة، وكان الهدف الأول وعلى وجه التحديد "علي حســن ســلامة" رئيس الأمن والمخابرات التابعة لمنظمة فتح، المطارد من مختلف مخابرات العالم فهو صاحب عملية "ميونيخ" التي أدت لمقتل أحد عشـر إسـرائيلي، وهذا ما لم يتحقق لها إلا بعد جهد وانتظار، لكن أخيرًا اســتطاعت الوصــول له من خلال دلالة "مارون" على مكان تواجد علي ســلامة في أحد الفنادق التي يرتادها بشــكل دوري غير منتظم، حرصــت أمينة على زيارة الفندق مرتين بالأســبوع وبشــكل منتظم، فالفندق يوجد فيه أماكن للترفيه والسباحة التي يطلها "سلامة" بين الحين والآخر فيما يبدو أنه محب للملذات!.

اعتادت رؤيته واعتاد أن يراها في المكان، إلى أن وقع "ســلامة" في فخ "أمينة" وتوجه لطاولتها محاولًا فتح حديث يخلق منه صداقة ثم إرضاء وإشباع لنزوته، فهو كذلك (زير نساء).

تقول أمينة في مذكراتها، وقف علي ســلامة أمامي فجأة وعرفني بنفســه على أنه تاجر فلسطيني، ثم سألني عن نفسي لخلق حالة صداقة بيننا، وهذا ما حصل بالفعل.

من خلال تلك الصداقة استطاعت أمينة كسب ثقة الجميع مما سهل عليها عملها التجسسي، فانخرطت بعلاقات كثيرة ووطيدة مع قادات في المقاومة بل صارت محط احترام واهتمام من خلال إظهار حماسها للمقاومة! .

استطاعت تحويل عيونها لكاميرات تلتقط كل شيء وتحويل أذنيها لآلة تجمع كل الأسماء وعقلها تحول لمكان كبير يتم فيه تخزين كل شيء، ثم تقوم بعدها بصب المعلومات على الورق لترسلها إلى الموساد من خلال البريد الميت.

بعد عمل طويل وعلاقات كثيرة وإرسال معلومات غاية في الأهمية، وفي إحدى الجلسات بين علي وأمينة، وقعت أمينة بخطأ فادح من خلال سؤالها لعلي عن صحة أولاده، مما جعل علي يستنفر بحسه الأمني فهو لم يخبر أمينة عن أولاده بل لم يقل لها بالأصل عنده أولاد، كيف عرفت ومن أين ومن أخبرها بهذه المعلومة التي تشكل عند علي معلومة سرية، وعلى إثر ذلك بدأ علي بالتحري عن أمينة، فوصله بلاغ من المخابرات التابعة له يفيد أن شابًا فلسطينيًا صرح لأحد المصادر السرية بأنه قابل أحد الفلسطينيين في فيينا، وبعد عدة لقاءات بينهما في حانات المدينة، أخبره بأن له صديقة نمساوية يهودية ماتت إثر تعاطيها جرعة زائدة من عقار مخدر، تزوج شقيقها الطيار من فتاة عربية مسلمة وهربت معه إلى إسرائيل خوفًا من اكتشاف أمرها، وأن الفتاة تدرس الطب في النمسا وانتقلت إلى لبنان بعدما أسقط السوريين طائرة زوجها .

لم يكن الأمر يحتاج الكثير من التفكير لدى رجل المخابرات علي السلامة المعروف بحسه الاستخباراتي العالي ودهاءه، سرعان ما تم القبض على أمينة مفتي جاسوسة الموساد الإسرائيلي.

"نستفيد من قصة أمينة، أن العمل الاستخباراتي يجب أن يكون بدوافع عقدية أو دوافع للثأر أو حتى بدوافع مادية مع إمكانية ذلك ضمن مهمة محدودة ومعلومات مقننة تُعطى للعميل، وأن على رجل الاستخبارات التفريق بين المعلومات التي يمتلكها عن خصمه وبين المعلومات التي يعرف الخصم أنها لدى رجل الاستخبارات حتى لا يقع بخطأ تكون من خلاله النهاية، وهذا يتطلب أن يعيش رجل الاستخبارات في عالمين مختلفين، عالم في الخفاء وعالم في الظاهر".

7. لورنس العرب

"تومس إدوارد لورنس" أحد أهم الشخصيات التي ساهمت بسقوط الخلافة العثمانية بأمكر الطرق وأكثرها خباثة، "لورنس" جاسوس بريطاني أرسلته بريطانيا لتحريض العرب ضد الدولة العثمانية بدعوى القومية، وقد نجح لتصبح بعدها المنطقة العربية مقسمة بين دول الاحتلال التي كانت في المنطقة بحدود تُعرف "بسايكس بيكو" وذلك مهّد لوعد بلفور والذي منحت من خلاله بريطانيا أرض الفلسطينيين لليهود.

درس "لورنس" الهندسة العسكرية واستراتيجياتها بالإضافة للتاريخ العسكري، وزار عدد من البلدان العربية تحت غطاء بعثات التنقيب عن الآثار في أرض الدولة العثمانية، مكث نحو ثلاث سنوات في المنطقة العربية وهذه المدة مكنته من تعلم اللغة العربية والثقافة الاجتماعية في المنطقة، ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى أرادت بريطانيا الاستفادة منه كحال أي حكومة بلد تعمل بإخلاص لصالح شعبها وأمتها، فاستدعته لمقر قيادة الجيوش في القاهرة وضمته لقسم المخابرات السرية كونهم رأوا فيه العقلية الفذة والكفاءة المناسبة، استفاد مقر الجيوش من معلومات لورنس الذي حفظ مواقع الجيش العثماني عن ظهر قلب من خلال تواجده في المنطقة، واقترح الخطوة الثانية أن يبدأ بتحريض العرب ضد الأتراك، وبالفعل بدأ عمله واستغل التغلغل بالعرب تحت شعار تشجيع الثورة العربية للتخلص من حكم الأتراك مستفيدًا من تغذية القومية في النفوس، ودخل الجزيرة العربية ليقف مع الشريف "الخائن" حسين الذي بدأ الثورة العربية ضد الجيش العثماني، اختار لورنس تأجيج الشعور الوطني والقومي وتهميش الدور العقائدي والرابط الديني بين الأمة الواحدة، ودعم هذه الثورة بكل قوة عن طريق بريطانيا!، فصار المستشار العسكري والسياسي لدى الخائن حسين في الجزيرة العربية، وقدم الوعود الكثيرة كحال أي جاسوس يسعى لخداع الخونة .

كان لورنس قد برع في الفنون العسكرية وأساليب حرب العصابات مما مكنه ذلك من تحقيق نصر متتالي بالقوات العربية ضد جيش الخلافة، وفي عام 1918 استطاعت القوات العربية التي التحقت بالحسين دخول دمشق وبعد سقوط الخلافة غاب لورنس عن الأنظار ومعه تلاشت كل الوعود التي حملها من بريطانيا للعرب الذين عملوا على إنهاء الخلافة،

وبعدها صـار لورنس محط الأنظار ليتم تعيينه كمسـتشـار لوزير المسـتعمرات البريطاني "ونستون تشرشل" لكن تتحدث بعض المصادر عن استقالته من هذا المنصب ليعمل تحت غطاء شركات خاصة.

"نستفيد من قصة لورنس أن معرفة الثقافة المجتمعية وتقمصها تُسهل عملية رجل الاستخبارات وتمكنه من العمل براحة أكبر، وتعطيه فرص كثيرة ليختار طرق التغلغل ثم استثمار الظروف والحالة العامة في المجتمع، ومنها استغلال النعرات والخلافات لتنميتها بطريقة تخدم المصالح المطلوبة لرجل الاستخبارات وليست بطريقة عبثية فوضوية".

8. شولا كوهين

أخطر جاسوسة من إسرائيل والتي لقبها الموساد بالجاسوسة الحديدية. ولدت في القدس من أب يهودي عربي مصري، لها 13 أخ، تمتلك مقومات جمال مميزة وجاذبية في التواصل مع الآخرين.

في عمر 16 تزوجت من ثري يهودي لبناني، وانتقلت معه للعيش في بيروت، كانت تحمل هم بناء دولة لليهود وعملت على ذلك بكل الطرق التي أمكنتها، ذات يوم كتبت رسالة وأرسلتها مع بائع جوال ليوصلها إلى المستعمرة اليهودية في فلسطين، كتبت فيها : أنا شوالا كوهين أنا يهودية من بيروت أريد أن أساعدكم .

بعد أسابيع من الانتظار، طرق باب البيت شخص قال لها أنه يحمل لها رسالة من أهلها، وحين فتحت الرسالة تبين أنها من جهاز المخابرات اليهودي يطلب منها المساعدة لإيجاد مخبأ لرجل يهودي، وبعد نجاحها بالمهمة الأولى وصلتها رسالة ثانية تطلب منها المقابلة، كانت المقابلة مع رجال المخابرات ينتظرونها على الحدود الفلسطينية اللبنانية، قابلتهم وتم تكليفها بمهمة جمع كل المعلومات الممكنة عن معسكرات تدريب الثوار.

تحول بيت "شولا" لمكان خاص بالحفلات والسهرات الخاص بالطبقة المخملية من المجتمع اللبناني، لم يكن الأمر سوى أسلوب عمل لدى شولا، تمكنت من بناء علاقات واسعة وجمع معلومات كثيرة والعمل بسهولة أكثر، وكانت ترسل وتستقبل المعلومات والتعليمات من خلال الحبر السري وتارة من خلال الراديو وبرامج أو شيفرات متفق عليها.

عملها لم يقتصر على التجسس، بل كانت مهمتها تأمين تهريب اليهود من لبنان إلى فلسطين، واستطاعت بناء شبكة تجسسية بمفردها.

نشاطها الكبير المتزايد وبناء شبكة كبيرة من التجسس، لفت انتباه المخابرات اللبنانية وأثار حولها الشكوك، وبعد مراقبة وتنصت باستخدام أجهزة متاحة عرفوا أن "شولا" ليست مجرد جاسوس صغير، بل كانت ترسل معلومات حساسة وخطيرة عن الثكنات العسكرية وقوام الجيش وأسماء ضباط وتفاصيل أعمالهم، بل حتى معلومات كانت تحصل عليها بما يخص دول عربية أخرى.

استطاعت المخابرات اللبنانية اختراق شولا كوهين من خلال رجل استخبارات اسمه "ميلاد القارح" كان ذكيًا بما فيه الكفاية حتى يستطيع اختراق شولا بل حتى أن يبني معها علاقة عاطفية تحتاجها أنثى يهودية ضجرة من زوجها العجوز، وقد وقعت شولا في حبه وصارحته بكثير من الأمور منها أشياء تخص عملها التجسسي!، وبعد حصول المخابرات اللبنانية على معلومات كافية حول شولا وشبكتها التجسسية، جاء قرار القبض عليها ومداهمة وكرها لكن بطريقة ذكية، فكان ميلاد قد طلب منها إقامة حفل وسهرة وقد لبت طلبه شولا ودعت للحفل كالمعتاد طبقة معينة من المجتمع، ومع وصل ميلاد وطرقه للباب فتحت له لتجد مسدسه موجه لرأسها، فأدركت أن لعبتها انتهت .

"نلاحظ أنه مع قدرتها على بناء شبكة تجسس والعمل بدقة وحرفة ورغم انشغالها بعدم ترك أثر خلفها، إلا أن أخطر ثغرة أمنية ارتكبتها ألا وهي "العاطفة" أو ترك القلب يفكر ويقرر ويميل، مما جعل كل تدابيرها الأمنية الأخرى ليست ذات قيمة بل جعلها ورقة مكشوفة يقرأها خصمها الذي غرها قلبها فيه ليظنه الحبيب العاطفي، فأولى تدابير الأمن تكون بتجنيب العاطفة التدخل في حياة رجل الاستخبارات والجاسوس تحديدًا".

9. القسامي عبد المنعم أبو حميد

عبد المنعم "أبو معاذ" طالب جامعي وابن مخيم الأمعري، اعتقلته سلطة الاحتلال الصهيوني بتهمة تقديم بعض المساعدات للمقاومة الفلسطينية في كتائب عز الدين القسام، خلال السجن أظهر عبد المنعم تجاوب مع العدو ليستطيع بذكائه الإيحاء لهم أنه من الممكن تجنيده لصالحهم ليتجسس على المقاومة، وبالفعل صدقت المخابرات الإسرائيلية أنها استطاعت تجنيده ليصبح رئيسه في العمل الضابط السري "نوعم كوهين" الملقب بالكابتن مجدي.

تم إطلاق سراح عبد المنعم ليبدأ عمله "التجسسي" كما خططت المخابرات الإسرائيلية، وبدأ عبد المنعم بنقل أخبار عن المقاومة للمخابرات، لكن كل ذلك كان بالترتيب مع جهاز المقاومة وبتخطيط من الشهيد يحيى عياش وقتها وبطريقة غاية في السرية والحذر.

كانت معلومات مضللة وبعضها حقيقي لكنه غير مضر للمقاومة، هذا الأمر دفع المخابرات الإسرائيلية المكلفة بعمل عبد المنعم بمنحه الثقة التي استثمرها ليكسب منهم معلومات مهمة قام بنقلها للمقاومة كطرق عملهم وأساليب تحركاتهم الخفية وكيفية تجنيد العملاء، كما أفرغوا عليه بعض الأموال التي اشترى بها الأداة التي ستقتلهم "مسدس".

وعندما اختارت كتائب عز الدين القسام إنهاء العمل وخططوا لكيفية النهاية، اتصل عبد المنعم "بالكابتن مجدي" ضابط المخابرات الإسرائيلي السري ليبلغه عن ضرورة اللقاء بغية إعطاءه معلومات سرية وخطيرة أثارت لعاب مجدي الذي حدد وقت ومكان اللقاء، قام عبد المنعم ومعه رفاقه بنصب الكمين، ومع وصول مجدي قام عبد المنعم بإفراغ المسدس برأسه ثم انبطح أرضًا ليقوم رفاقه من خلفه بإمطار السيارة بالرصاص، نتج عن العملية مقتل هذا الضابط الخطير وجرح من معه في السيارة.

كانت ضربة موجعة جعلت المخابرات الصهيونية لا تهدأ بحثًا عن عبد المنعم، وبالفعل بعد أشهر من المطاردة استطلعوا الوصول لمكانه واغتياله.

"يُستفاد من قصة عبد المنعم والتي تشبه قصة همام بلوي، أن خداع المخابرات سهل بقدر صعوبته، يحتاج إيمان حقيقي بالله ثم بالقضية مع توفر عقل جيد يمكن من خلاله

التخطيط حتى في أصعب الظروف، فعبد المنعم وبرغم وجوده في المعتقل وبقبضة المخابرات بتهمة مساعدة المقاومة، إلا أنه فعليًا استطاع خداعهم ومساعدة المقاومة بشكل أكبر! كونه لم يعرف المستحيل من خلال إيمانه بالله ثم ثقته بنفسه وقضيته".

10. الجاسوسة المزدوجة "آنا مونتيس"

ملكة كوبا كما يسميها الكوبيين، ولدت في أمريكا عام 1957 عاشت حياة طبيعية ودخلت الجامعة الدراسية في أمريكا ثم انتقلت لإسبانيا لاستكمال دراستها وهناك تعرفت على طالب زميل لها لكن لديه قناعات ضد أمريكا، ساهمت صحبتهما تبصير "آنا" على حقيقة سياسات أمريكا الإجرامية ودعمها الأنظمة الاستبدادية وذلك ليس كما يروج الإعلام الأمريكي وما كانت تظنه "آنا" .

ومع مرور الوقت تحولت الطالبة الجامعية البسيطة من شخص لا يعرف السياسة إلى معادية للحكومة الأمريكية، وراحت تشارك في المظاهرات المنددة بالحكومة الأمريكية في إسبانيا، وفي عام 1984 أنهت دراستها وعملت في وزارة العدل بواشنطن مع استكمال دراستها للحصول على الماجستير، وفي ذات يوم عرض عليها أحد زملائها سهرة لمقابلة بعض الأصدقاء ومساعدتها في ترجمة بعض المقالات من الإسبانية إلى الإنكليزية، ذلك الصديق كان أحد وكلاء المخابرات الكوبية والذي لم يستغرق وقتًا طويلًا لإقناع مونتيس للعمل معهم في صراع كوبا ضد أمريكا .

بعد عام كانت مونتيس قد برعت في عملها بوزارة العدل مما جعل الوزارة تثق بها وتمنحها صلاحيات أكثر، مما مكن مونتيس من الوصول لمعلومات حساسة أكثر، وبعد إنهاء رسالة الماجستير تقدمت للحصول على وظيفة في وكالة الاستخبارات الدفاعية الأمريكية!، وبالفعل تم قبول طلبها لتصبح في أكثر الأماكن حساسية وخطورة، وكانت أول مهمة لها من وكالة الاستخبارات هي رحلة سرية للتجسس على كوبا !!، في كوبا التقت العملاء السريين الكوبيين الذين علموها طرق التواصل مع العملاء وطريقة التعامل مع جهاز كشف الكذب وطرق إيصال المعلومات السرية، لم تثر الشكوك حولها عند وكالة الاستخبارات الأمريكية بل كانوا يرونها مبدعة في العمل مما دفعهم لترقيتها لتصبح المحلل الرئيسي لوكالة المخابرات الدفاعية

الأمريكية ثم تمت ترقيتها لتصبح المحلل العسكري والسياسي، وتلقت كثيرًا من الأوسمة والشهادات، وفعليًا أصبحت "آنا" تساهم برسم سياسة أمريكا تجاه كوبا (كوبا التي جندت آنا)، كوبا كذلك منحتها وسام التميز لكن بالطبع لا يمكن أن يكون حينها الأمر علني، بقي تكريم المخابرات الكوبية لها بشكل سري ويعتبر وسام رمزي لتشجيع آنا .

كانت آنا تستطيع الوصول لعشرات المعلومات الغاية في السرية والتي تخص كوبا، كانت تحاول حفظها ثم تعود للبيت لتنسخ ما حفظت على جهازها الكومبيوتر، كانت تحاول عدم تصوير أو نسخ المعلومات وهي في العمل وذلك منعًا لأي شكوك تثار حولها، كانت مونتيس تحصل على التعليمات من خلال جهاز راديو تضعه على تردد الموجات القصيرة في ساعة ويوم محدد، تسمع فيه صوت المذيعة تقول أحرف ورموز لا يفهمها أحد ممن يستمعون للمذياع سوى مونتيس، سافرت أربع مرات بطريقة سرية إلى كوبا لتقابل كبار رجال المخابرات هناك، بعض رفاقها في وكالة الاستخبارات الأمريكية أبدوا تخوفهم من أن تكون "آنا" تم اختراقها أو تجنيدها لصالح دولة أخرى، فأخضعوها لجهاز كشف الكذب ولكنها نجحت بالاختبار بل خرجت من الاختبار أكثر قوة وثقة بنظر زملائها فصارت فوق مستوى الشبهات، إلا أن "كار مايكل" الضابط المتخصص في مكافحة الجواسيس كان لديه شكوك قوية تجاهها، زادت تلك الشكوك حين اتصل به ضابط كوبي رفض التعريف عن نفسه ودوافع اتصاله لكنه قال يوجد لديكم عميل يعمل لصالح كوبا وهو موظف في أحد الأماكن الهامة داخل الحكومة الأمريكية ويستخدم في مراسلاته مع الحكومة الكوبية جهاز كومبيوتر ماركت "توشيبا" وهذا كل ما أعرف .

بدأ "كار مايكل" عملية التقصي والتحري وحصل على بيانات أكثر من 100 شخصية ممكن الشك بها، تشمل بيانات حساباتهم المصرفية وتحركاتهم وتاريخهم الطبي، وبعد إعادة المسح والتنقيب واستبعاد بعض الأسماء، بقي 20 أسم تدور حولهم الشكوك، كان اسم "آنا مونتيس" يأخذ رقم 20 في الأسماء المثيرة للشكوك والتي سيعمل ضابط مكافحة الجواسيس على تقصي الحقائق حولهم.

لم يهتم مكتب التحقيقات الفدرالي بما أثاره "كار" من شكوك حول "آنا"، لكنه ثابر بالعمل وجمع المعلومات والمراقبة، وبعد أسابيع قليلة جمع خيوط جديدة استطاع من خلالها إقناع مكتب التحقيقات أن يمنحه معاونين للعمل في مراقبة آنا والتفتيش السري لشقتها ومكتبها، ذلك مكنهم من الوصول لكثير من الخيوط كاتصالاتها بأرقام مشتبه أنها خاصة بالمخابرات الكوبية وهي عبارة عن أكواد سرية، بعد مدة قصيرة استطاعوا الحصول على بطاقات الائتمان التي عرفوا من خلالها أن "آنا" في عام 1996 اشترت جهاز كومبيوتر محمول ماركت "توشيبا"، ولأنهم لم يرصدوا أي عملية تصوير لمستندات أو غيرها قامت بها مونتيس في عملها، كان لا بُد لهم من الدخول لشقتها بشكل سري وعبر فريق متخصص، في تلك الأيام كانت مونتيس على وشك الانضمام إلى المجلس الاستشاري لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وهو منصب غاية في الحساسية، استطاع الفريق المتخصص دخول شقة آنا بشكل سري ووجدوا فيه الكومبيوتر المحمول وراديو مثبت على الموجات القصيرة، فقاموا بنسخ كل البيانات الموجودة في الكومبيوتر ثم أعادوا كل شيء لمسوه في المنزل إلى طبيعته، حلل المكتب الفيدرالي كل المعلومات فوجد بينها شيفرات سرية ووجد اسم ضابط مخابرات أمريكي يعمل في كوبا كانت آنا قد أرسلت للكوبيين اسمه الحقيقي فكشفت لهم هويته، تأكد مكتب التحقيقات من تجسس مونتيس لكن لم يستطع اعتقالها فبعد لم يصل للمعلومات التي تمكنه من فك الشيفرات وكل المعلومات التي أرسلتها مونتيس لكوبا، فأرادوا بعض الوقت للوصول إلى تلك المعلومات .

في تلك الأثناء ضربت طائرتان مركز التجارة العالمي فيما يعرف بأحداث سبتمبر، وكانت وكالة الاستخبارات في حالة استنفار وطوارئ، وتم تعيين مونتيس نائبة رئيس وكالة الاستخبارات الأمريكية!، فعمليات التحقيق والتقصي كانت سرية ومحصورة ببضعة أشخاص وباقي الزملاء لا يعرفون أي شيء حول عملية مراقبتها.

نيلها لمناصب حساسة جعل فريق التحقيق والمكافحة يقرر ضرورة توقيفها وكشفها بأسرع وقت، وعرفوا أن الدليل الأخير الذي يبحثون عنه هو موجود في حقيبة آنا بكل تأكيد، وبحيلة بسيطة استطاعوا إخراجها من مكتبها دون أن تأخذ حقيبتها التي لا تفارقها، أبلغوها بالمسارعة

للقاء المفتش العام للضرورة القصوى، في هذه اللحظات دخل فريق متخصص لمكتبها وفتش حقيبتها فوجدوا رموز التشفير والأكواد السرية التي كانت تستخدمها في المراسلات مع المخابرات الكوبية وبهذا كان الفريق حصل على أقوى وآخر الأدلة، وهي في مكتب المفتش العام دخل مسؤول مكافحة التجسس ليخبره بأن الأدلة صارت كاملة، فالتفت إليها المفتش العام ليخبرها أنها رهن الاعتقال بتهمة التجسس لصالح دولة أخرى .

"هذه من أكثر قصص التجسس المبهرة، نلاحظ حرص "آنا مونتيس" على عدم المخاطرة بتصوير المعلومات واعتمدت حفظها ثم في مكان آمن تسترجع ذاكرتها لتفرغ ما حفظته بشكل جيد، كما نلاحظ كذبة "جهاز كشف الكذب" وعدم فاعليته وأنه عبارة عن خداع نفسي أكثر من كونه حقيقة علمية وهو بالأصل محل خلاف علمي، ونجد كذلك حرص المخابرات على عدم الاعتقال المباشر ومحاولة الوصول لأكبر قدر ممكن من المعلومات لتحليل الألغاز حول الشيفرات ومعرفة المعلومات التي تم تسريبها فهذا يفيد في معرفة التعامل مع الامر".

11. الجاسوس المزدوج الطلالقة

محمد سليمان الطلالقة، أحد أهم رجال مصطفى سليمان برتبة رائد الاستخبارات الفلسطينية العامل في غزة والذي ترأس العمل بما عُرف بمجموعة الفدائيون، وهو مصري الجنسية ومسؤول عن عمليات التجسس والتخريب داخل إسرائيل.

الطلالقة وهو الجاسوس الذي يعمل لصالح الجهاز الفلسطيني المصري، كان قد نجح باختراق الجهاز الإسرائيلي والعمل كجاسوس مزدوج، لكن لم يعتقد أن المخابرات الإسرائيلية قد اكتشفت أمره وظن أنه استطاع خداعهم بأنه جاسوس لهم، كان عملًا قمة في الغباء أو عدم القدرة على التحليل الكامل، لذلك حينما طلبت منه المخابرات الإسرائيلية الحضور لأرض الاحتلال متسللًا ليلًا عبر الحدود، لم يتردد أو يشعر بالخوف كونه واثق من نفسه وقدرته على خداعهم كما يعتقد.

التقى بشخصين يتبعان للمخابرات الإسرائيلية أعطاهم بعض المعلومات "البسيطة" ثم أوكلوا له مهمة ستكون المهمة الأخيرة والمؤسفة دون أن يشعر، أخرج أحدهم له كتاب عادي

كان بعنوان الإحصاء والإنسان لمؤلف ألماني، ثم طلبا منه تسليم الكتاب للملازم في شرطة غزة وهو لطفي المكاوي، وأنه بعد تسلمه الكتاب سيعرف المطلوب منه ويستطيع فك الشيفرة من الكتاب، ثم ليقنعا الطلالقة أن الأمر حقيقة واستكمالًا للخطة المخابراتية الإسرائيلية، أعطوه ورقة نقدية فئة ١٥ قرش مصري، وقالا : سيسألك مكاوي من أين لك هذه بعد أن تظهرها أمامه، وقتها أخرج له هذا الكرت الذي فيه دعوة باسمه وسيعرف أنك تتبع لنا ويطمئن لك، هكذا قالوا للطلالقة الذي صعق حينما علم أن مكاوي عميل إسرائيلي، لكن استطاع أن يخفي صدمته، وحقيقة البطاقة هي قديمة كانت لحضور مناسبة عامة.

قبل موعد عودة الطلالقة لقطاع غزة، أخذ أحد العنصرين الكتاب ليغلفه في غرفة جانبية، وبعد دقائق عاد وأعطاه للطلالقة الذي أخفاه تحت "الشروال" ثم تسلل لغزة عائدًا ومعه كنز ثمين كما يظن وهو كشف عميل إسرائيلي خطير! حيث كان يعتقد أن مكاوي تم كشف أمره، في الصباح كان الكتاب على مكتب مصطفى حافظ والطلالقة يحدثه عما حصل، غضب حافظ جدًا وأراد معرفة الرموز الموجودة في الكتاب لمحاولة فك الشيفرة والرموز، وبالفعل فك الغلاف بحذر حتى يتمكن من إعادته كما كان ويسلموه لمكاوي حتى لا يشك أحد بشيء، لكن ومع سحب الكتاب من الغلاف وقع انفجار شديد، الكتاب والغلاف هما طرد ملغوم ابتلعاه بسبب غلطة صغيرة وهي الثقة الزائدة من محمد سليمان الطلالقة بنفسه ولم يفكر لحظة "هل بالفعل أنا من أخدع المخابرات الإسرائيلية أم أنهم اكتشفوا أمري وقد يستغلونني كطعم؟"، لو فكر لحظة لأخذ الاحتياطات السليمة، وطبعًا مكاوي لم يكن عميلًا كما أوحى العنصرين .

"لقد تكلمنا عن أن المخابرات المعادية من أهدافها مكافحة التجسس بطرق عديدة منها التجنيد العكسي، وليس الشرط أن يتحول لجاسوس معادي بل يكفي أن يكون غبيًا لتستخدمه المخابرات بالطرق الذكية لتحقيق وتنفيذ مخططاتها في حين يظن الفرد نفسه ذكيًا!، وهو من يلعب بالمخابرات، ولي أمثلة في هذا كثيرة قد سمعتها ورأيتها ولطالما حذرنا من ذلك ونقول: الأمر ممكن، لكن يحتاج الشخص المناسب ثم كادر خلفه يدرس ويحلل".

وحقيقة قصص الجاسوسية بحر عميق ومع مرور كل يوم نكاد نسمع قصة تظهر للعلن فيها من التفاصيل ما نعتقده خيالًا مبالغًا فيه، إلا أن الأمر واقع وبرغم نقلي لبعض القصص وبشكل مختصر جدًا، نكاد نرى الأمر فيه من الأمور المبهرة الكثير الكثير، ولا نعلم مع مرور الوقت كم من القصص التي ستظهر للعلن وما فيها من أحداث.

وكل تلك القصص التي نقرأها بالنتيجة بدقائق معدودات، في حقيقتها تطلبت مجهودًا ضخمًا جدًا، وجهازًا خلفه يعمل على مدار الساعة دون أي عطلة أو راحة، واستكمالًا لطرق الاستخبارات وأدواتها ننتقل للطريقة الثانية وهي المراقبة.

المراقبة

◈ تعريف

الحراسة والملاحظة والرصد. وهي عملية رصد للسلوك وتتبع سير عمل ونشاط الهدف، بغرض الحصـــول على المعلومات وجمعها، وقد تكون المراقبة ســـريعة أو بطيئة وقد تكون علنية أو سرية بحسب الحاجة لها والهدف منها.

◈ مفهوم المراقبة

تعتبر المراقبة ذراعًا رئيسيًا في جهاز الاستخبارات، تهدف لمراقبة فرد أو مجموعة، أو حتى شعبًا كاملًا، مثلًا من خلال وســائل التواصــل لتحديد التوجه الفكري الطارئ عليه، كما أن المراقبة مرتبطة بشــكلٍ وثيق بعمليات التجنيد واصــطياد الأفراد المناســبة لمهام متنوعة، أو كشــف وإحباط عمليات معادية.

◈ مبادئ المراقبة

1. عدم لفت الانتباه من خلال النظر المباشر للهدف.

ممكن التفاعل مع المحيط والتعامل بشــكل طبيعي والابتعاد عن التشــدد في النظر مع عدم إغفال تتبع الهدف بين العين المجردة وبين الطيف.

2. ترك مسافة مناسبة بين الهدف والمراقب.

تُقدر المسافة بحسب المكان ونوع المراقبة إن كانت ثابتة أو متحركة، عدم الابتعاد بحيث يغيب الهدف أو تغيب أي ملاحظة قد تكون هامة، وعدم الاقتراب بشــكل يمنع المراقب التصــرف في لحظة تنبه الهدف عليه.

3. الراحة الجسدية والنفسية وعدم الارتباك والتشنج.

يجب أن يكون اللباس مريحًا والنفس هادئة غير مضطربة تدفع المراقب للتشنج.

4. القدرة على تسخير الزجاج والمرايا في المكان.

للتناوب بينها وبين العين المجردة في المراقبة. كاستخدام زجاج المحلات أو المرايا في تقاطع الشوارع، وممكن حمل جهاز خليوي يخدم في عملية المراقبة من خلال انعكاس الصور على سطحه.

5. القدرة على تنبؤ حركة الهدف أثناء المسير.

يتطلب دراسة الطريق ما بعد الهدف لتخمين أي طريق قد يسلكه الهدف حتى لا يحصل ارتباك عند المراقب إن أخذ الهدف منعطفًا مفاجئًا.

6. تحضير قصص مقنعة لاستخدامها كغطاء في حال أي طارئ.

يجب أن تكون قصصًا مقنعة وبسيطة ممكن قولها في حال شعر الهدف بريبة وتوجه بالسؤال، أو حتى أحد الموجودين في المنطقة.

7. عدم المبالغة في التنكر وأسلوب المراقبة.

يجب أن يظهر كل شيء بشكل طبيعي وعلى ما يرام، اللباس غير ملفت للانتباه من حيث شكله أو لونه، كذلك عدم حمل شيء مميز كحقيبة أو غيرها مما يجعل المراقب مميزًا بين الموجودين في المحيط.

◈ أهداف المراقبة

1. جمع المعلومات.

أي معلومات وتفاصيل ممكن الحصول عليها ثم تدوينها بشكل مباشر أو في الذهن إن كانت القدرات الذهنية قوية.

2. رصد نشاط الأهداف.

لتقييم حالة الهدف ومعرفة التفاصيل الهامة المتعلقة بعمل الهدف وتحركاته ولقاءاته ومحيطه.

3. تقديم المعلومات الدقيقة.

تقديمها للجهة المسؤولة لتحليل المعلومات أو اختيار التصرف الأنسب للتعامل مع الهدف.

4. **التثبت من المعلومات السابقة أو المتوقعة.**

أي: تأكيد أو نفي المعلومات الموجودة مسبقًا عن الهدف ومعرفة التغيرات في السلوك أو النشاط.

ملاحظة: السلوك هو ما ينتج من فعل الهدف وتصرفاته وأساليبه والنشاط هو عمل الهدف وارتباطه بمحيطه.

5. **ردع الهدف من خلال إشعاره بالمراقبة.**

في بعض الأحيان تُستخدم المراقبة ليست بغية جمع المعلومات، إنما لردع الهدف من أي مخاطر أو الحد من نشاطه من خلال جعله يعيش في حالة نفسية ضيقة.

6. **حماية أشخاص أو مسؤولين.**

ممكن أن تكون المراقبة صديقة بحيث تؤمن الحماية عن بُعد لمسؤول أو شخص له أهمية معينة، وقد تكون مراقبة سرية لتقديم المؤازرة والدعم عند الحاجة.

◈ أساليب المراقبة

1. **سرية**

أي بدون لفت الانتباه أو ترك ملاحظة طالت مدة المراقبة أو قصرت.

2. **علنية**

أي إشعار الهدف أنه يخضع للمراقبة ومحاط بها، وقد يتم اتباع أساليب لخلق هالة مبالغ فيها تجعل الهدف يشعر أن المراقبة مكثفة أو بحسب الحاجة المطلوبة في خداع الهدف.

◈ أشكال المراقبة

1. **ثابتة**

في العادة تستهدف مبانيًا أو مواقعًا أو طريقًا، وقد يتم استخدامها لهدف متحرك من خلال شبكة تَتَبُع، كأن تكون فريقًا من المراقبة متمركزًا يرصد هدفًا متحركًا.

2. متحركة

وهي تتبع هدفٍ متحرك مثل السيارات أو الدراجات الهوائية والنارية أو شخصًا راجلًا، وقد تكون مراقبة متحركة لهدف ثابت، كمرور المراقب أو عناصر تناوب المراقبة من قريب الهدف لرصده بين الحين والآخر وذلك بحسب الهدف والظروف المحيطة.

3. دائمة

أي يبقى الهدف تحت المراقبة بشكل مكثف خلال ساعات اليوم كاملة وأيام الأسبوع كاملة.

4. مؤقتة

تكون ضمن ساعات أو أيام محددة، وقد تكون ضمن نطاق جغرافي معين وخارجه تتوقف المراقبة، وذلك بحسب خطورة الهدف أو سبب المراقبة.

5. متقطعة

تستخدم بحسب الحاجة لها وحالة الهدف، لا تخضع لتوقيت محدد أو أيام معينة، إنما تستهدف الهدف للتفقد أو للتأكد من بقاء المعلومات السابقة حوله ما زالت كما هي ولا يوجد طارئ، وبعدها يتحدد بقاء المراقبة متقطعة أو تحديد نطاق دائم لها أو جعلها مؤقتة ضمن حدود خاصة.

◈ طرق المراقبة

1. بواسطة أفراد

يتم تخصيص فرد أو مجموعة أفراد يتناوبون في عملية المراقبة.

2. بواسطة مجموعة

بعض الأهداف تحتاج أكثر من شخص للمراقبة، فيتم تعيين مجموعة خاصة تكون متدربة على لغة الإشارة بينهم وتوزيع المهام أو قطاع المراقبة الجغرافي من أجل العمل كفريق متجانس.

3. بواسطة أجهزة

كأجهزة التصنت أو الكاميرات الخفية أو الأجهزة اللاسلكية المزروعة.

ومثل هذه الطريقة حصلت وتحصل باستمرار، وهي جزء من عمليات التجسس، ذات يوم شب حريق في السفارة السوفيتية بكندا، وأثناء الترميم وإعادة البناء شعرت المخابرات الكندية والبريطانية بالفرصة المناسبة لإيجاد طريقة تمكنهم من التجسس ومراقبة السفارة السوفيتية، فقاموا بإدخال أجهزة تصنت صغيرة داخل الإسمنت المخصص في البناء، لكن المخابرات السوفيتية فيما بعد اكتشفت الأمر وقامت بإخراج الأجهزة ثم وضعها في مكان محدد من خلاله يرسلون معلومات مضللة، وهذا ما يسمى بالاستخبارات المضادة.

4. بواسطة التتبع

أي من خلال برامج خاصة بالهاتف المحمول يتم حقنها أو اختراقها من خلال روابط تحمل فايروس، أو من خلال تقنية GBS أو من خلال أبراج الاتصالات أو من خلال أجهزة خاصة يتم زراعتها في السيارة أو الآلية أو حتى ملابس الهدف مثل جهاز "الباليز" وهو جهاز بحجم حبة الأسبيرين تستخدمه مخابرات حلف الناتو ويمكن ابتلاعه أو وضعه في الجسم.

5. جهاز أكس

وهو جهاز متطور لديه القدرة على التقاط صور من خلف الجدران أو الموانع، هو حقيقة لا خيال ولقد تم استخدامه في كثير من المرات ومن بينها كشف إحدى أهم جواسيس روسيا في أمريكا "جودي كويلن" بعد مراقبتها عن كثب.

متطلبات المراقبة

1. الصبر

يجب أن يتحلى المراقب بالصبر وعدم الاستعجال أو الملل في حال مضى وقتًا طويلًا دون القدرة على الاستفادة من المراقبة أو ملاحظة شيء مريب.

2. الهدوء

ضبط النفس وعدم الضجر الذي يولد الارتباك أو التذمر، والمتابعة في العمل دون صرف الذهن عن المهمة والتلهي عنها.

3. حب العمل

من الضروري أن يكون الفرد محبًا لعمله وليس مكرهًا أو مجبرًا أو مفروضً عليه الأمر، وفي حال وجود هذا الضغط فيجب عدم تقديم معلومات مغلوطة كردة فعل

4. الذكاء والنباهة

يجب أن يكون المراقب شديد الملاحظة مهتمًا بأدق التفاصيل، لا يُفوت شيئًا يحدث أمام ناظريه، ويحاول التحليل لما يشعر به حين حصل بعيدًا عن ناظريه، الخيال الواسع مطلوب لكن يحتاج خيالًا منضبطًا بالخبرة العملية.

5. اللياقة واللباقة

جيد أن يكون المراقب في صحة جيدة وجسده مرنًا يمتلك طاقة تحمل ولياقة تمكنه من استخدامها عند الحاجة أو إن ثمة خطر غير متوقع.

6. التكيف

يجب أن يكون مطلعًا على مكان المراقبة، يضع دراسة في عقله ولو مبدئيًا، من خلالها يستطيع معرفة أنسب ما يمكن أن يفعله لتسير المراقبة بشكل جيد، ومن خلالها يختار اللباس المناسب وما يحتاجه في عملية المراقبة من أدوات تمويه أو قصص مقنعة في حالة الطوارئ.

7. الاحتياطات

أمر يجب أن يكون في الحسـبان قد يحتاجه المراقب وقد يكون بغير حاجته، مثلًا حمل نقود مختلفة (فكه / فراطة) لاستخدامها في وسائط النقل إن احتاج الصعود خلف الهدف دون الانشغال، أو حمل قارورة ماء صغيرة أو شيء يسكن الجوع، أو نظارات وقبعة في حال دخل الهدف في مكان محاط بكاميرات مراقبة ظاهرة كالتي منتشرة في كثير من الدول، وبكل حال كما قلنا الدراسة المسبقة لموقع المراقبة أو توقعها فهو يسهل معرفة الاحتياطات التي قد تلزم.

يتضح معنا أن المراقبة ليست عملًا ارتجاليًا مندفعًا، رغم أنها تحتاج الارتجال في بعض ما يتخللها وذلك مقرون بالبداهة، وبكل حال لم تعد المراقبة ذات أهمية منفردة في ظل العالم المتطور، نعم فالاختراق عوض ووفر الكثير وهذا ما سنتكلم عنه.

الاختراق

◈ تعريف

هو الدخول/الولوج إلى مكان بغير تصريح أو موافقة، أو الحصول على المعرفة بشيء دون معرفة صاحب الأمر (المُختَرَقْ).

◈ مفهوم الاختراق

هو القدرة على الوصول للمعلومات من خلال إيجاد ثغرات في نظام الأمان البشري أو الإلكتروني للاستفادة المادية أو المعنوية أو العسكرية أو السياسية بطريقة غير مشروعة في الأنظمة الوضعية التي تدعي ما لا تطبق، أما من الناحية الشرعية فقد بينا الحكم فيها عبر الحديث عن التجسس.

قد حرم الدين الحنيف كذلك الأمر، لكن ذلك بما يخص المسلم للمسلم، أو فيما فيه ضرر للأمة أو لفرد منها، باستثناء حالات ضيقة بشروط صعبة، وقد أجاز الشرع الاختراق لصفوف العدو لمعرفة أسراره، لكن ضبطها وجعلها بمبادئ.

قبل أن نبدأ أود لفت الانتباه لأمر مهم: عالم الاختراق كبيرٌ جدًا، فلا يمكن الحديث عنه في هذا الكتاب إلا بشكل مختصر، بحيث يكون مفهومًا بشكل جيد، أما التعمق فيه فيحتاج خبرة كافية واختصاص عالي وتخصيص مجال كافي للتبحر فيه.

◈ الاختراق بين التسلية والحرفة

حينما نتكلم عن الاختراق فيتبادر للأذهان تلك الخاصة بعالم التقنية والهواتف والحواسيب، ذلك صحيح، لكنها ليست كل شيء.

الاختراق قد يكون بالعنصر البشري كذلك، لكن مشاع في عالم الإلكترون بعد التقدم والتطور البشري واعتماد الجنس البشري في معظم أعماله على التكنولوجيا حتى الحساسة منها.

ما قبل عام 1980، لم يكن حواسيب ولا هواتف نقالة لاختراقها، فكان المعنى السائد للاختراق هو ذاك المتعلق بالعملية البشرية التي تعتمد الوصول لأماكن غير مصرحٍ بدخولها أو

الحصـــول على معلومات غير مشـــروع الحصـــول عليها، فمثلًا لســـرقة معلومات أو خرائط أو الدخول لأماكن مغلقة كانت تتم من خلال اختراق عنصـــر بشـــري نظم الحماية كالأســـلاك أو الجدران أو الحرس، لسـرقة المعلومات، أو ممكن أن تكون عملية الاختراق البشـري من خلال الخديعة للوصول إلى الأماكن الغير مصرح بالوصول لها.

في عام 1980 كانت بداية الاختراق للهواتف النقالة من خلال شـركات الاتصـال، حيث كان بعض الموظفون يسـتمتعون بالاسـتماع للمحادثات الجارية بين المرسـل والمسـتلم، وفيما بعدها بسنوات قليلة وحيث بدأ ضخ الحواسيب فبدأت معها عمليات الاختراق عن طريق هواة في البـدايـة. تحولـت لظاهرة في عـام 1990 وحصـلـت عـدد من جرائم الاختراق، وحتى يومنـا فعمليات الاختراق الإلكتروني للأنظمة التشـــغيلية هي الســـائدة والرائجة من هواة ومخابرات على حد ســـواء، وســـنأتي على ذكر بعض أشـــهر وأغرب تلك القصـــص لنحاول فهم هذا الفن الخطير.

عمليـات الاختراق الإلكتروني تتم بعـدة طرق وأســـاليب، فمنهـا اختراق ظـاهر يـدركـه الشـخص المسـتهدف ومنها عمليات اختراق غير واضـحة تكون خفية، ولكل شـكل من أشـكالها هدف وسبب وآلية عمل.

وأشهر طرق الاختراق تتم من خلال أسلوبين:

- **الفايروسات:** هي برمجيات خاصة يستطيع الشخص تكوينها بحسب الهدف المراد، إن كان عمليـة تـدمير أو محو أو تخريـب لمعلومات وخصـــوصـــيـات الهـدف، يتم زراعـة الفـايروس بجهـاز الهـدف عن طريق المخـادعـة أو من خلال روابط وبرامج ملغومـة لا يكتشفها الهدف إلا بعد أن يقوم الفايروس بتنفيذ المهمة التي حُقنت به.
- **التروجان:** أو ما يُسـمى بحصـان طروادة تيمنًا بمعناه فيما يشـبه نفس الأسـلوب. وهي برامج يقوم المســـتهدف بتحميلها بكامل إرادته حيث يظنها برامج في مجال ما وحقيقتها تحمل برمجيات محقونة بشـــكل خفي بغية تنفيذ عملية اختراق للنظام لأجل المراقبة أو التلاعب بالمعلومات.

يُسمى القائمون على عمليات اختراق الأنظمة "هاكرز" وهم أصحاب خبرات عالية في أهم أنظمة التشغيل وثغراته، ويمتلكون احترافية عالية في البرمجيات وصناعتها، كذلك تستخدم الأسلوب المخابرات وبعض الأجهزة تقوم بعملية تجنيد لهاكرز متميزون. ومع ذلك فليس هذا كل شيء عن الاختراق بغية التدمير أو المراقبة والتتبع أو التجسس.

في الساحة الشامية كشفنا عن كثير من معدات مرسلة تحمل أجهزة خاصة متعلقة بالاختراق، إن كان على مستوى الملابس المقدمة من منظمات "إنسانية" أو معدات عسكرية ولوجستية مرسلة لفصائل مدعومة خارجيًا وتحديدًا أمريكيًا، ولا شك أن ما تم ضبطه واكتشافه ليس كل شيء، فحتى على مستوى المنظمات الإغاثية تعمل المخابرات لتستطيع من خلالها الوصول إلى معلومات وأماكن لا يمكن بغير ذلك، ولعل ضبط بعض المنظمات أو حتى "الصحفيين" في سوريا كان يثبت ويؤكد أن المخابرات تطرق كل المجالات وتتبع كل الأساليب لتنفيذ عملياتها وتحقيق مهامها، وتحديدًا المنظمات الإغاثية والمنظمات التي تقدم العلاج أو التلقيح والتطعيم الخاص ببعض الأوبئة والأمراض .

◈ مبادئ الاختراق

1. الخبرة العالية

ونقصد بها على المستوى البشري أو التكنولوجي، فلا يمكن لأي عملية اختراق أن تبدأ بدون خبرة عالية وليست فقط مجرد خبرة عادية، لأنه في بعض الأحيان عدم الخبرة العالية تأتي بنتائج عكسية، فعلى الطابع البشري قد تفضي للاعتقال أو القتل، وعلى الطابع الإلكتروني قد تحصل عملية اختراق عكسية.

وفيما يخص عالم الهواتف النقالة والحواسيب، فيتطلب منك معرفة ودراية كاملة في عالم البرمجيات والخوارزميات وأنظمة التشغيل واللغة البرمجية، ثم القدرة بعدها على تطوير برامج وأنظمة معينة لتعطيك خبرة تؤهلك الوصول لمرتبة الاختراق الاحترافي أو ما يُسمى "هاكرز".

2. التخفي

من الضروري أن تكون عملية الاختراق إن كانت على الصعيد البشري فيجب أن يكون التخفي حاضرًا لسهولة التسلل وتنفيذ المهمة دون لفت الانتباه أو ترك أثر، أما على الصعيد الإلكتروني فيجب أن يكون الهدف غير ملاحظ لعملية الاختراق إلى ما بعد الولوج في الهدف وبعد فوات الأوان.

3. التمويه

بعض المهام التي تكون صعبة التنفيذ، يلجأ المخترق لعملية التمويه حتى يخدع الهدف كالتي ذكرناها في عملية "التروجان" بما يخص الفايروسات البرمجية، وعلى المستوى البشري فقد تكون كالتي ذكرناها في فقرة الاختراق بين التسلية والحرفة.

4. التضليل

وهي عملية إيهام الهدف وتضليله لصرف نظره عن الاختراق الأساسي وإشغاله بعملية ثانوية بما يخص الاختراق البشري أو فايروس ثانوي بما يخص اختراق نظام هاتف نقال أو حاسوب شخصي.

5. معرفة الهدف

لا بُد للمخترق جمع ما يستطيع من معلومات حول الهدف، هذا فيما يخص تنفيذ عمليات اختراق بغية تنفيذ مراقبة تجسسية أكثر منها عملية تدمير وتخريب.

6. المثابرة

قد يضطر المخترق لعدد كبير من المحاولات قبل نجاح إحداها وقد لا تنجح مع بعض الأهداف، فقد يحتاج محاولات كثيرة تتطلب منه المثابرة الدائمة.

7. مواكبة التطور

وهذه نقطة أساسية، فكل يوم تقريبًا هناك محاولات لتحسين أنظمة التشغيل ضد فايروسات مبتكرة ولسد ثغرات يتم اكتشافها، وهذا يحتاج من المخترق "هاكرز" مواكبة هذا التطور ودراسة المحاولات التي جرت من غيره ليستطيع اختصار الوقت والقدرة على إيجاد ثغرات

جديدة أو فايروسات فعالة، وللعلم؛ فإنه حتى الآن لا يوجد أي نظام تشغيل خاص بالهواتف النقالة أو الحواسيب لا يوجد فيه ثغرات.

◈ أهداف الاختراق

1. التجسس

يكون الاختراق بهدف التجسس من قِبل جهاز مخابرات معادي بغية الحصول على المعلومات والكشف عن الأسرار أو تتبع الهدف.

2. التخريب

ويكون الاختراق بهدف الوصول للمعلومات ثم القيام بعمليات تعديل مدروسة بهدف تخريب المعلومات وجعلها مغلوطة أو مرتبكة بالشكل الذي يريده المُختَرِق.

3. التدمير

وهو تدمير كامل المعلومات أي حذفها وشطبها بشكل نهائي عشوائي أو منظم.

4. السرقة

ليست كل عمليات الاختراق هدفها مرتبط بأجهزة المخابرات، قد وضحنا بدايةً أن الاختراق هو حرفة الهاكرز ومطلب الكثير من الهواة. بل إن بعض أجهزة المخابرات والوكالات الاستخباراتية نفسها تعرضت للاختراق من قراصنة الشبكة العنكبوتية!

ولذلك سنتحدث قليلًا عن عمليات الاختراق لنفهمها بشكل أوضح وأوسع وندرك بعض نتائجها الخطيرة.

◈ عمليات الاختراق

عام 2018، سُمي عام الاختراق!، لكثرة العمليات الخاصة بالاختراق والمتنوعة الأهداف والأسباب.

فمثلًا مليار حساب تم اختراقه من خلال اختراق قاعدة بيانات "أدهار" الهندية الخاصة بتخزين البطاقات الشخصية للمواطنين وتشمل بصمات الأصابع وقزحية العين والأرقام الخاصة ومعلومات البطاقات المصرفية.

سلسلة فنادق "ماريوست" العالمية لم تكن أكثر حظًا، حيث تعرضت لعملية اختراق تتضرر منها نحو 500 مليون شخص! استطاع المخترق الوصول إلى الأرقام والمعلومات الخاصة بجوازات السفر وبطاقات الائتمان.

موقع جوجل نفسه لم يكن بعيدًا عن دائرة الاستهداف، تعرض برنامج "جوجل بلس" لعملية اختراق كبيرة لم يُعلن عنها إلى أن فضحت الأمر صحيفة "وول ستريت" لتكشف عن تعرض نحو 53 مليون من مشتركي موقع جوجل بلس تعرضوا للاختراق من خلال حساباتهم مما جعل جوجل تقرر إغلاق البرنامج تحت ذريعة العدد القليل من رواد البرنامج.

فيسبوك أسوأهم حظًا، يكاد لا يمر وقت قصير دون تعرضه لعمليات اختراق تجر خلفها فضائحًا كبيرة، أو نفسه "فيس بوك" يقوم بعمليات اختراق لبعض المشتركين في البرنامج لأهداف سياسية أو مخابراتية.

وفي عام 2013 استيقظت دولة الاحتلال "إسرائيل" على صدمة عنيفة، فقد تم تنفيذ هجمات إلكترونية من خلال قراصنة هاكرز تتبع لمنظمة "الأنونيموس"، طال الهجوم نحو 500 موقع إلكتروني إسرائيلي حكومي وخاص، قدَّرت بعض المصادر أن عدد المهاجمين بلغ نحو 10000 شخص من بلدان مختلفة منها: سوريا والمغرب والسعودية وفلسطين ومصر وإندونيسيا والعراق .

أهم المواقع التي تم استهدافها كانت الكنيست الإسرائيلية ووزارة الاستخبارات!، ورئاسة الوزراء وموقع وزارة الأمن ووزارة التربية وسوق الأوراق المالية وحوالي 200 حساب "فيس بوك" و 500 حساب "تويتر" و 3000 حساب مصرفي، كما تم اختراق حسابات سياسية رفيعة المستوى منها حساب نائب رئيس الوزراء، اضطرت الحكومة الإسرائيلية لقطع "الإنترنت" ساعات من أجل تفادي المزيد من الضربات الإلكترونية ورفعت الجاهزية الكاملة لجيوشها الإلكترونية للحد من الخسائر، ووجهت طلبات لدول عدة تطلب منها المساعدة في عمليات التصدي ضد المهاجمين.

وقد تكون من أشهر عمليات الاختراق الخاصة بالسرقات المالية في السنوات الأخيرة تلك التي ضربت أكثر من 100 مصرف في حوالي 30 دولة !، منها روسيا واليابان اللتان كانتا أكثر المتضررين، بلغ حجم الأموال التي استطاع المخترق تحصيلها وسحبها حوالي مليار دولار.

أما أشهر عمليات التخريب والتدمير تلك التي نفذها الشاب المسلم الجزائري "حمزة بن دلاج" حيث استطاع حمزة إدخال فايروس إلى أنظمة معلوماتية نتج عن العملية ضرر كبير لعدد من الشركات والمؤسسات الرسمية والمدنية في العالم، أمريكا كانت صاحبة النصيب الأكبر فقد لحق الضرر آلاف الحواسيب في المؤسسات الرسمية الحكومية.

من ضمن عمليات الاختراق التي نفذها حمزة كانت لنحو 217 بنك مالي ومصرف، استطاع سحب 4 ملايين دولار ووزعها على الجمعيات الخيرية في فلسطين وفي الدول المسلمة الفقيرة.

حمزة ذو 24 عامًا حكمت عليه وزارة العدل الأمريكية 15 سنة سجن، وترددت أنباء حينها أن المطالبات والحكم قد يرتقي لإعدام الشاب الذي صار لقبه "الهاكرز المبتسم" وذلك بسبب صورة له وهو في قبضة الشرطة لكنه مبتسم ابتسامة ساخرة منهم.

و كوننا فرقنا بين عمليات الاختراق وجعلناها نمطين، جسدي وإلكتروني وتحدثنا عن بعض العمليات الخاصة بالشبكة العنكبوتية، فإن الاختراق الجسدي ليس بأقل أهمية من حيث الفعل والأهمية على الصعيد العسكري والسياسي والأمني، ولعلنا نذكر القصة التي لها صنعوا الأفلام وكتبوا الروايات، وهي عملية "إيلات" التي تطلبت اختراق أنظمة الحراسة الدقيقة والحديثة في حينها، نفذ العملية يومها رجال القوات البحرية المصرية بالتعاون مع المخابرات المصرية، فاستطاعوا إغراق أربعة سفن وتفجير الرصيف الحربي للميناء "إيلات" عام 1967، والجدير بالذكر أن هذه العملية مختلفة عن تفجير السفينة "إيلات" والتي كذلك دمرتها القوات البحرية المصرية في نفس العام .

وكذلك من القصص التاريخية تلك المتعلقة بحصان "طروادة" والتي ابتكره الإغريق بعد حصار دام عشر سنوات لقلعة طروادة، فصنع الإغريق حصانًا خشبيًا بلغ طوله نحو 108م ووزنه نحو ثلاثة أطنان، داخله أجوف مُلئ بالمحاربين الأشداء سرًا، ثم تم عرضه على الطرواديين كهدية للسلام، وتظاهر باقي الجيش الإغراقي بالانسحاب، فقبل الطرواديين الحصان وأدخلوه القلعة محتفلين بالنصر، حتى جاء المساء وكانوا في حالة سكر شديد، فخرج المحاربين من الحصان الخشبي وقتلوا كل الرجال واستباحوا المدينة، قد تكون أسطورة!، لكنها تحولت لمثال في فن الاختراق ونتائجه المؤلمة .

وحتى انتفاضة السكاكين في أرض فلسطين المقدسة، والتي كانت تتطلب اختراق أنظمة الحراسة وتجاوزها للوصول حيث أي هدف ممكن، فكانت أروع وأعظم عمليات الاختراق الفدائية التي أوجعت اليهود المحتلين وجعلتهم يشعرون بالذعر وأن كل مسلم فلسطيني مشروع شهادة.

أو حتى كمحاولة استخبارات الاحتلال الإسرائيلي زراعة أجهزة تنصت من خلال أرسال مجموعة استطاعت اختراق منطقة المقاومة عبر ثغرة ثم قامت بزراعة أجهزة خاصة تعترض خطوط الاتصالات السرية للمقاومة في إحدى الأراضي الزراعية لكنها فشلت بعد نجاح استخبارات المقاومة باكتشافها وإحباطها.

◈ أنواع الاختراق

1. الاختراق الإلكتروني

ويكون من خلال استهداف الأجهزة بشكل مباشر كما شرحناها من خلال الفيروسات أو التروجان وهي بشكل عام من صنع قراصنة الشبكة العنكبوتية "الهاكرز"، أو تكون رسمية تتبع لوكالات وأجهزة استخباراتية، وقد يكون الاختراق من خلال اعتراض البيانات أثناء عملية الإرسال والتلقي من جهاز لآخر، أو من خلال اختراق الخوارزميات الخاصة بالبرامج، وكذلك ممكنٌ من خلال أبراج الاتصال.

في السنوات الأخيرة باتت طرق الاختراق كثيرة ومتنوعة ومتطورة بشكل خيالي، فوصلت مرحلة قد نعتقدها ضربًا من الخيال لكنها في الحقيقة واقعية، فعلى سبيل المثال، هناك تقارير تكشف أن عملية الاختراق لأي جهاز ممكنة، ولو كان الجهاز غير متصل بأي شبكة اتصال أو شبكة خاصة بالشبكة العنكبوتية "واي فاي" ويكفي أن يكون بقربه أي جهاز متصل!، كذلك هناك تقارير تتحدث عن فايروسات خاملة تُسمى "الدودة" يتم نشرها بشكل عشوائي، محقونة مسبقًا بمهام ومعلومات لا تنشط الفايروسات إلا بعد دخولها لتلك المعلومات بعينها لتبدأ بعملها!، وقد ضُربت إيران بمثل هذه الفايروسات، تحديدًا في القصة الشهيرة التي هزت إيران حين تم الاضرار بأجهزة الطرد المركزي لتخصيب اليورانيوم، وبعد البحث والتحقيق تبين أن السبب "فلاشة" تم إدخالها بأحد الأجهزة الخاصة بالبرنامج النووي، تقف خلف العملية أمريكا فيما يُعتقد أنها صنعت ملايين منها ثم وزعتها بشكل طبيعي كأي عملية بيع للمنتجات تحت اسم شركات معينة، ثم انتظرت إلى أن تصل هذه "الفلاشة" عن طريق (الصدفة) لإيران وتحديدًا إلى يد أحد موظفي البرنامج النووي!!، قد نعتقد أنها خرافة لكن في الحقيقة أنها قصة حقيقية موثقة وكان لها تأثيراتٍ وصدىً كبير في عام 2010.

2. الاختراق الجسدي

ويكون من خلال اختراق الشخص لمكان محصن يخضع لنظام حراسة أو أنظمة حماية، من أجل تحقيق هدفٍ معين معدٍ مسبقًا.

ومن الأمثلة كالتي ذكرناها في فقرة -عمليات الاختراق-والمثال في عملية "إيلات" وحصان "طروادة" وانتفاضة السكاكين التي لا يمكن ذكر حجم العمليات البطولية للمسلمين المرابطين في فلسطين. وكوننا نتكلم عن الاختراق وعالم الإلكترون فلا بُد لنا من التوقف بشكل سريع مع "السيبر" أو الحرب السيبرانية.

3. الحرب السيبرانية

وهي شكل للحرب الإلكترونية ومن الممكن أن نقول عنها حرب البيانات، تدخل في الحروب العسكرية ويُستخدم فيها كذلك الطاقة الكهرومغناطيسية لمنع الطرف الآخر من استخدام البيانات في أنظمة الشبكة والبنية المرتبطة بها حيث يُمكن تقسيم الحرب السيبرانية لثلاثة أشكال:

1) الهجوم السيبراني

وهو اختراق الشبكات والمواقع ثم حقنها بمعلومات مُحرفة أو مضللة بهدف إرباك مستخدم الشبكة، أو زراعة فايروسات تؤدي إلى تدمير النظام أو تعطيله.

2) الأمن السيبراني

وهو عملية تحصين الشبكة والأنظمة الخاصة منعًا لدخول أي متطفل أو مخترق أو هجوم معادي، ويُستخدم لأجل ذلك برامج حماية متطورة مع المراقبة والحراسة.

3) الاستطلاع السيبراني

وهو عملية تسلل داخل بيانات الشبكة في محاولة اصطياد المعلومات الحساسة داخل الأنظمة إن كانت عسكرية أو أمنية أو غيرهما.

توضيح: حين نقول حرب سيبرانية، فيُعنى بها "حرب إلكترونية" فقط، وكذلك حين نقول أمن سيبراني فهو متشابه مع أمن المعلومات لكن يختلف معه من حيث الشكل، فأمن المعلومات يتعلق بالمعلومات الإلكترونية والمادية وغيرها، والأمن السيبراني هو خاص بعالم الإلكترون، فكلمة "سايبر" تعني الشيء المتعلق بالإلكترون والفضاء الإلكتروني حصرًا.

هذا النوع من الحروب بأشكاله الهجومية والأمنية والاستطلاعية، بات مُستخدمًا بشكل كبير ويتطور بشكل متسارع، ربما يشبه شكل الحرب الباردة بين الدول المتنافسة أو المتحاربة.

وكل ما مر معنا من التجسس والمراقبة والاختراق ضمن العمل الاستخباراتي، له أهداف تكون معدة وواضحة مسبقًا، هي أهداف المخابرات التي سنتحدث عنها.

أهداف المخابرات

1. مكافحة الجواسيس

من أهم مهام وأهداف أجهزة المخابرات والوكالات الاستخباراتية، تكمن في كشف جواسيس البلدان الأخرى داخل أراضي الدولة، ثم التعامل معهم وفق المناسب من خلال المحاولة لتحويلهم إلى عملاء مزدوجين أو تجنيدهم عكسيًا، أو مكافحتهم من خلال القتل أو السجن أو النفي.

2. ضبط الخلايا

الخلايا هم أفراد أو مجموعات توكل لها مهام تخريبية من جهات معادية، يتم كشفها أو اختراقها ثم جمع المعلومات الكافية لتحويل الملف إلى الجهة المسؤولة، أما أجهزة الشرطة أو أجهزة أمنية مختصة أو فرقة قتالية تتبع للمخابرات.

3. تحقيق الأمن

ويتحقق من خلال مكافحة الجواسيس وضبط العملاء والخلايا، لتبقى المناطق أو الدولة تحت السيطرة بشكل كامل أو شبه كامل وتجنب الخسائر ما أمكن.

4. المحافظة على كيان الدولة

وذلك من خلال تقديم الحماية اللازمة استخباراتيًا لشخصيات الدولة، وتتبع الشخصيات التي يصدر منها الشبهات.

5. جمع المعلومات

وتشمل الصعيد الداخلي والخارجي، فجمع المعلومات أساسٌ في عمل المخابرات، على الصعيد الداخلي؛ تشمل جمع المعلومات للقيام بعمليات تقييم حول أشخاص معينين ثم تحليل تلك المعلومات لكشف إمكانية وجود المنافقين أو المؤهلين ليكونوا سلاحًا بيد العدو، وعلى الصعيد الخارجي تشمل جمع المعلومات المتنوعة بما يخص السياسة والعسكرة والأمن والاقتصاد ..إلخ ثم إخضاع المعلومات للتدقيق والتحليل قبل تقديمها للجهات المعنية بالمعلومة .

6. التقييم والتحليل

وهي أحد أهم مهام المخابرات، تحليل الأحداث وتقديم رؤية وتصور حولها، ثم محاولة جمع المعلومات المتعلقة بالحدث للوصول إلى معلومة حقيقية ومؤكدة ثم تقديمها كمعلومات خالصة.

7. زراعة جواسيس وعملاء

القيام بعمليات اختراق لدول ضمن المهام بغية زراعة جواسيس وخلايا، أو القدرة على تجنيد جواسيس في صفوف الدول المستهدفة.

8. بناء تحالفات استخباراتية

إن معظم التحالفات السياسية والعسكرية لا تنشأ إلا من خلال مجهود استخباراتي يمهد لها، بل يكون تحالفًا استخباراتيًا قبل أن يكون عسكريًا أو سياسيًا، أو على الأقل يكون تعاون استخباراتي.

9. الحرب النفسية

يقول ونستون تشرشل رئيس وزراء بريطانيا الأسبق: "كثيرًا ما غيرت الحرب النفسية وجه التاريخ"، ويقول القائد الفرنسي شارل ديجول: "لكي تنتصر دولة ما في حربها، عليها أن تشن الحرب النفسية قبل أن تتحرك قواتها إلى ميادين القتال، وتظل هذه الحرب تساند هذه القوات حتى تنتهي من مهمتها".

بث الشائعات والأخبار المغلوطة أو الشبهات بين صفوف العدو هدف رئيسي لجهاز المخابرات تختاره بعناية ودقة ولا يمكن أن يكون عشوائيًا، كذلك احتواء عمليات الهجوم المضاد لدعاية العدو وتقديم ما يناسب لتفنيدها، فهذه أساسيات في الحرب ككل وركيزة أساسية في الحروب العسكرية.

لقد مر معنا في كتابنا السابق حرب الأشباح الذئاب عن بعض أهم طرق العدو، وذكرنا استخدامه لنظرية التشتيت ونظرية التأطير ونظرية الإسقاط ونظرية كسب المصداقية وهي هامة سنأتي على ذكرها بشكل أشمل، ولخطورة الأمر نمر الآن بشكل بسيط وسريع عبر التاريخ الحديث لعلم النفس ضمن الاستخبارات، فمثلًا أسست أمريكا عام ١٩٤١ مكتب

الخدمات الاستراتيجي، وهو سلف أو ما تحول فيما بعد ليصبح وكالة الاستخبارات، كانت مهمة المكتب دراسة احتياجات الحرب كما أن من مهامه القيام بأبحاث داخل وخارج الولايات المتحدة، كذلك إيجاد الطرق المناسبة لرفع الروح المعنوية للعملاء السريين عن بعد وفي نفس الوقت تدمير العدو نفسيًا وكل ذلك تركز بشكل كبير عبر المذياع "الراديو" ثم باقي الوسائل المتوفرة، كما كان من أهم ركائز المكتب علماء في علم النفس أمثال "دونالد فيسكي" و "هنري موراي" مهمتهم على وجه الخصوص اختيار الأشخاص المناسبين للقيام بالمهام ضمن قدراتهم بعد إخضاعهم لسلسة من الاختبارات ودراسة عميقة، ولقد نجح المكتب بتقييم نحو ثلاثمئة شخص كل شهر!، من خلال التقييم السيكولوجي، وفي عام ١٩٥١ أرادت الإدارة الأمريكية توسعة مشروعها وتعميقه أكثر فأقدم حينها الرئيس الأمريكي "داويت أيزنهاور" على إنشاء هيئة للاستراتيجيات النفسية تقدم مشوراتها لمجلس الأمن القومي .

أما دولة الاحتلال الإسرائيلية فلديها وحدة خاصة في مجال الحرب النفسية الدعائية تسمى دائرة الحرب النفسية "لاب" وهي تتبع للموساد، من مهمتها بث الدعاية خلف الخطوط واستهداف العقول، ولقد نجحت مرات كثيرة في إقناع الجيوش العربية أن الجندي الإسرائيلي لا يُقهر، وحتى أنها أقنعت كثيرًا من الشعوب أن كل حدث يحصل هو من ترتيبها، من الحروب إلى السلم وحتى الخسائر التي تلحق بها أقنعت بعض الشعوب بأنها خلف كل شيء وأنه من تخطيطها حتى باتت "نظرية المؤامرة" مقرفة بشكل لا يطاق وخارج نطاق أي منطق وواقعية، لقد نجح اليهود بمكرهم وأتقنوا الخداع ويبدو أنهم استغلوا التجربة العلمية لمكاتب علم النفس في الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ثم ابتكروا خلطتهم الخاصة التي كثيرًا من أساليبها ما سبقهم لها أحد.

فعلى سبيل المثال لا الحصر "آفيخاي أدرعي" ناتج لتلك الحرب التي نجحت بها دولة الاحتلال لحد مؤلم، فلقد استطاع هذا الضابط بمنصب الناطق باسم جيش الدفاع الناطق بالعربي، أن يخرب كثير من العقول ويشعل كثيرًا من السجالات والمهاترات ويخلط خلطة عجيبة بين الجهال العرب المنتشرين عبر مواقع التواصل، كل ذلك ليس بمجرد بضعة كلمات يقولها أو بعض الصور والمقاطع المرئية التي يبثها عن تعاطفه بشؤون عربية وإسلامية أو

تضـــامنه مع مناســـبات خاصـــة، بل الأمر أعمق من ذلك بكثير ويقف خلفه كادر كبير يقدم التحليلات النفســـية ويدس الســـم بخطوات دقيقة نحو تخريب مزيد من العقول، أما على مستوى الشعوب الغربية وجيوشها فلعبت دورًا مناقضًا تمامًا عن أسلوب القوة التي لا تُقهر وأحيانًا مارست الخلطة بين القوة والضعف، لكنها في الغالب خططت لاستعطافهم من خلال بث الشعارات والمقالات التي تداعب العواطف والشعور بالاضطهاد، فلقد انتشر في أوساط الغرب على سبيل المثال : الحق التاريخي – ارض الميعاد – أعداء الســامية – أرض بلا شـعب لشعب بلا أرض – حق الولادة – إسرائيل المكافحة – إسرائيل خط الدفاع الأول عن الغرب . وكل تلك المقولات ما بين تخويف الشـــعوب الغربية من العرب وبين اســـتعطافهم كونهم "أمة مضطهدة تكافح لنيل حقها"!! .

وفي هذا الســـياق تكلم الدكتور إياد قنيبي في إحدى الحلقات من ســـلســـلة بعنوان "سيكولوجيا الانحراف" حول علم النفس واستخدامه في الاستجواب وتغيير القناعات.

فيما يلي مقتطف من الحلقة المرئية للدكتور إياد قنيبي، ننقلها بشـــكل حرفي لأهميتها وجميل السرد والترتيب للأفكار حيث قال: ""إخوتي الكرام، أحد أكثر الكتب مبيعًا في أمريكا هو كتاب -التأثير وســيكولوجيا الإقناع-للبروفيســور الأمريكي "روبرت شــالديني" هذا الكتاب يتناول في الفصـــل الثالث منه أســـلوب الالتزام والتوافق، كواحد من أنجح الوســـائل في الإقناع، حيث استخدمه المحققون الصينيون لإقناع الأسرى من الجنود الأمريكيين بالتعاون معهم في الحرب الكورية.

يُكمل الدكتور حديثه : سنعرض بدايةً لما جرى مع الأسرى الأمريكيين لنفهم من خلاله أســـلوب "الالتزام والتوافق" .، قصـــتنا تبدأ مع الأســـرى الأمريكيين العائدين من معســـكرات الاعتقال في الصين الشيوعية بعد الحرب الكورية التي اشتركت فيها الدولتان في الخمسينيات من القرن المـاضـــي، حيث تفـاجـأت القيـادة الحربيـة الأمريكيـة بنجـاح مقلق للمســـتجوبين الصـينيين في تطويع الجنود الأمريكيين واسـتخراج المعلومات منهم بدون اسـتخدام الأسـاليب الوحشـــية أو التعذيب، فقد كان الأســـرى متعاونين إلى أقصـــى الحدود في الإبلاغ عن محاولات الهروب لزملائهم وكانوا يقدمون هذه المعلومات دون إكراه!، وبمجرد أن تعرض عليهم مكافئة

لا قيمة لها ككيس من الأرز .، على إثر ذلك شـكلت القيادة الحربية الأمريكية فريق التقييم النفسي والعصبي بقيادة الدكتور "هنري سيكال" الذي قام باستجواب أسرى الحرب العائدين بشكل مكثف للوقوف على طرق الصينيين في استمالتهم للتعاون معهم وتغيير قناعاتهم، فتبين أن الصـينيين يعتمدون طريقة "انتزع تنازلًا صـغيرًا ثم ابن عليه" بحيث ينتزعون من الأسـير الأمريكي أي تنازل يسـير ثم يوثقون هذا التنازل ثم يسـتدرجون الأسـير إلى الاعتراف بتبعات ولوازم هذا التنازل، فيلتزم الأسير بهذه التبعات ويقر بها إلى أن يجد نفسه يغير نفسيته ليصبح منسجمًا مع موقفه الجديد، ومن ثم تتفاقم تنازلاته إلى أن يصبح في النهاية عميلًا من حيث لا يشعر .، هذه هي خلاصة أسلوب الالتزام والتوافق .

ويضـيف الدكتور من خلال الشـرح طريقة ما مر من تطبيق النظرية، فيقول: تعالوا نتابع تفاصيل هذه القصة لنتفهم هذا الأسلوب بعمق، بدايةً كان الصينيون يطالبون الأسير الأمريكي أن يعطي تصـريحات تبدو في غاية البسـاطة وبدون أي تبعات تذكر، مثل: الولايات المتحدة الأمريكية ليسـت كاملة.، أو : لا توجد مشـكلة البطالة في الدولة الشـيوعية .، ولكن ما أن تتم تلبية هذه الطلبات البسـيطة حتى يطالب الأسـرى باتخاذ موقف آخر يبدو نتيجة تلقائية للتصـريح الأول لكنه يمثل تنازل أكبر وتلبية أقرب لمطالب العدو .، فمثلًا الأسـير الذي يوافق مع المسـتجوب الصـيني على أن الولايات المتحدة ليسـت كاملة يُطلب منه كتابة قائمة بهذه المشـاكل أمريكا التي تجعلها غير كاملة، ثم يوقع باسـمه على القائمة، ثم بعد فترة يُطلب منه قراءة هذه القائمة في مجموعة نقاش مع الأسرى الآخرين، وقد يطلب منه بعدها أن يكتب مقالًا يتوسع فيه بشرح تفصيلي للنقاط التي كتبها في قائمته وجوانب تلك المشاكل، ويُقال له في ذلك كله أليس هذا ما تعتقده أنت بنفسك دون إجبار أحد؟، لا نطالبك بأكثر من أن تصرح بمعتقدك إن كنت واثقًا من معتقدك فأنت على اسـتعداد أن تلتزم به أليس كذلك؟، -وهذا ما نقصـده بالالتزام- .، صـرح تصـريحًا بسـيطًا لكنه التزم بتبعاته ..، وكان الصـينيون يجرون مسـابقات بين الأسـرى الأمريكيين لأحسـن مقال عن مقارنة أمريكا بالشـيوعية، وأحيانًا يفوز مقال يمدح في عمومه الولايات المتحدة لكنه يلين لوجهة النظر الصينية الشـيوعية في موضع أو موضـعين، المهم انتزاع أي تنازل مهما كان بسـيط .، ثم إذا بالصـينيين يبثون مقال الأسـير

الأمريكي مع اسـمه على الراديو الموجه للقوات الأمريكية المقاتلة و كذلك في كل معسـكرات الاعتقال، بحيث يسمعه الأسير نفسه وفجأة يجد الأسير الأمريكي نفسه قد قام بتصريحات تخدم العدو، أي أنه أصبح بطريقة أو بأخرى متعاونًا مع العدو .، والمهم جدًا في الأمر أن الأسير يدرك في قرارة نفسه أنه قد قام بما قام به وكتب مقاله واتخذ مواقفه طواعية بدون تهديدات شديدة أو إكراه، فلو تم الأمر بالإكراه لوجد الأسير لنفسه عذرًا لمواقفه هذه وكذلك الناس حوله، بل سيؤدي الإكراه إلى نفوره من المواقف التي اتخذها ورفضها وتبرؤه الداخلي منها، لكنه في الواقع فعل ما فعل دون إكراه، فينتهي الأمر بالأسير إلى تغيير نظرته إلى نفسه حتى يصبح متوافقًا ومنسجمًا مع الفعل الذي قام به ومع التعريف الجديد لنفسه كمتعاون مع العدو .، بدأ الأمر بتصريحات تبدو تافهة وعديمة القيمة لكن الأسير التزم بهذه التصريحات ثم استدرج لخطوات أخرى غيرت من نفسيته، وهذا التغيير بدوره سمح له بتقديم تنازلات أكبر وهكذا دواليك على مبدأ الحلقة الخبيثة، إلى أن يكتب مقالًا موسعًا ينتقد فيه نظام الدولة التي كان يحارب من أجلها بل ويتعاون مع عدوها، هذه هي خلاصة أسلوب الالتزام والتوافق .، وقد لاحظ الفريق النفسي أربعة عوامل مهمة للغاية لضمان فعالية هذا الأسلوب في تغيير موقف الأسير وقناعته، العامل الأول ضرورة أن يوثق الأسير الأمريكي مواقفه أو تصريحه، حيث أن هذا التوثيق أقوى في تغيير انطباعه عن نفسه وانطباع زملاءه عنه، فالشخص يستحضر لا شعوريًا مواقفه السابقة وخاصة الموثقة منها وكأنها المصدر الرئيسي لمعلوماته عن نفسه وتحديد شخصيته، وعليه فقد كان الصينيون حريصين على انتزاع موقف موثق منسجم مع رغباتهم، إلى درجة أن الأسير إذا رفض العبارات المذكورة مثل أمريكا ليست كاملة أو لا بطالة في الشيوعية فإنه كان يطلب منه نسخ سؤال وجواب مكتوبين له مسبقًا فيهم هذه المعاني، فهذه الكتابة بخط يده كدليل ملموس تستدرج الأسير إلى تغيير نفسي ولو بدأ قليلًا، كما أن الصينيون كانوا يطلعون الأسرى الآخرين عليها لتغيير نظرتهم إلى زميلهم، والغريب في الأمر أن الآخرين حتى وإن علموا بأن الكاتب لم يختر كتابة تلك السطور بدافعية ذاتية، إلا أنهم سيشعرون بأن تلك الكتابات تمثل حقيقة اعتقاد الأسير وإحساسه طالما أن صياغتها لا تُشعر بأنه كتبها مكرهًا، و هذه خلاصة دراسة لعالمي النفس "إدوارد جونز" و

"جيمس هارس" .، تغير نظرة الآخرين لك تجعلك في النهاية تغير نظرتك إلى نفسك، العامل الثاني لضمان نجاح الاستدراج إلى الالتزام والتوافق "الالتزام العلني"، فالذي يتخذ موقفًا معلنًا يكون أكثر التزامًا به ودفاعًا عنه ممن لا يعلن موقفه على الملأ، لذا فقد كان الصينيون في المسابقات المذكورة يأتون بالمقال الذي يلين ولو قليلًا للشيوعية وسط مديح كثير لنظام أمريكا فيعلقون هذا المقال في معسكرات الاعتقال ويبثونه في الراديو ليجد صاحب المقال نفسه مدفوعًا إلى المحافظة على الموقف الذي اتخذه مبررًا للتصريح الذي صرح به، ليبدو كإنسان لديه مبدأ ثابت كإنسان منسجم مع ذاته و متوافق مع أفعاله وهنا حِبكة الموضوع، فالشخص الذي يتصرف بأشكال متناقضة يبدو في عيون الناس متقلب غير واثق مشتت الفكر غير جدير بالثقة، وهذه خصائص كلها مكروهة من المجتمع ومن الشخص نفسه، بينما يبدو الشخص المتوافق الثابت في تصرفاته بأنه واثق سديد الرأي، ولذلك فإنك تجد الناس سيعون دائمًا لأن يكونوا متوافقين في تصرفاتهم ويتجنبوا كل ما يمكن اعتباره تضاربًا في مواقفهم"" . انتهى -مقتطف من حلقة مرئية للدكتور إياد قنيبي بعنوان سيكولوجيا الانحراف-

روسيا في سباق داخل المضمار في ألاعيب الخداع النفسي، يبدو من خلال حربنا المباشرة معها أنها تعتمد تحقيق أكبر كم ممكن من الضغط النفسي لتتمكن من إتمام الإرباك الذي ينتج عنه انكشاف ثغرات تطفو على السطح، تمكنها من معرفة نقاط الضعف وزيادة الشرخ في تلك الثغرات بما يخدم تحقيق النصر العسكري الذي هو وبشكل دائم يكون بقوة إجرامية جبانة، هذا فيما يخص العسكرة أما فيما يخص الحرب الإعلامية وحرب التجنيد وغيرها فهي كثيرة متعددة وبفضل الله ثم بجهود الرجال معظمها يتم إحباطه.

وللتوضيح أكثر حول تلك الحرب الخفية الفتاكة سنذكر بعض أهم النظريات التي توضح لنا معالم السلاح الحسي.

أ- نظرية التأطير (خداع العقول)

هذه النظرية القديمة الحديثة المتطورة باستمرار بأساليب الخداع ومهارة التضليل مازالت مسيطرة على شرائح واسعة، بل حتى هي مسيطرة على عقول كبيرة من الكوادر والنخب المجتمعية.

ولفهم هذه النظرية دعونا نضرب أمثلة بسيطة توضح معناها وسيجد القارئ أثناء القراءة كم هي مستخدمة بكثرة وبلا شعور قد تمر بذهنه صور كثيرة غير الأمثلة التي سنطرحها لكن كلها تصب من حيث النتيجة بمفهوم نظرية التأطير.

مثال: حينما أريد منك أن تفعل شيء معين لكن مسبقًا أعرف أنه مرفوض بالنسبة لك لو طرحته أو قلته لك بشكل مباشر، هنا ألجأ لفن الخداع الذهني وتطبيق نظرية التأطير من خلال إيهامك وحصرك بخيارات محددة وجعلك تعيش حالة تفكير مؤطرة لا تمكنك النظر بشكل أوسع أنه ثمة خيارات أخرى!، فمثلًا لو أنك سرقت شيء يخصني بدون أن تترك دليل خلفك لكني متأكد أنك السارق، هنا لا أقول لك هل أنت سرقت كذا؟، بل أوجه لك سؤال يجعلك تشعر أن القضية محسومة ولا حاجة للاستجواب، فأوجه لك سؤال مختلف: ماذا سرقت مع الشيء كذا؟ هل فعلته من تلقاء نفسك أم حرضك أحد؟ بهذه الطريقة سيرتبك بشكل واضح أكثر من لو وجهت له سؤال هل سرقت؟ فيكون جوابه مباشر: لا لم أفعل، وبجوابه هذا يكون أغلق مجال التوسع بالاستجواب الناعم أو كشف علامات الارتباك والتناقض الناتجة عن التوسع في الانكار أو الصمت هذا إن لم يعترف إن كان ضعيف.

كذلك يُستخدم التأطير في السياسة والعسكرة وغيرها كونه فن من فنون الخداع العقلي، فمثلًا حينما حصلت معركة المطار عام ٢٠٠٣م. في العراق أثناء الغزو الأمريكي، سوق الأمريكان كل الجهود على أن معركة المطار مهمة للغاية وتعتبر الفاصلة وهي من تحدد النصر والهزيمة، وكل هذا كذب فمعركة المطار ثانوية ولم يكن الجيش العراقي يعطيها أهمية إلى أن تم خداعه تحت تأثير الصخب الإعلامي وموقف الشعب المنجر وراء الخدعة المترقب لهذه المعركة، والأمريكان مسبقًا كانوا يعلمون أن معركة المطار محسومة بالنسبة لهم وأن لا نية للجيش العراقي بالاستماتة بالقتال في هذه النقطة الغير استراتيجية، وحينما حصلت المعركة

وطبعًا انتصـر الأمريكان وروجوا على أنهم أبطال الحسـم، انهارت معنويات الشـعب والجيش العراقي وشعروا بعقلهم الباطني أن العراق سقط أو يسقط وأنها معركة محسومة مسبقًا .

كذلك من صـور الخداع والتأطير بالخيارات وحصـرها، ما حصـل أثناء سـقوط طائرة تجسـس أمريكية في الصـين عام ٢٠٠١م.، حينها سـارع الرئيس الأمريكي عبر بيان متلفز إلى توجيه رسـالة غاية في الذكاء، فوجه خطابًا للصـين مختصـره: لماذا تأخرتم بإعادة حطام الطائرة؟ هذا أمر غير مقبول. فكان رد الصـين أنها سـتعيدها لكن بعد أن تفتش حطامها وتبحث في محتويات الطائرة. والأمريكان يعلمون مسـبقًا أن الصـين سـتفتش الحطام لكنهم كانوا متخوفين من عدم إعادة الصـين لحطام وبقايا الطائرة فوجهوا لها سـؤال عن سـبب التأخير ولم يسـألوها: هل سـتعيدون لنا الحطام؟ أو يخاطبوها: عليكم إعادة حطام الطائرة الخاصة بنا. بل كان خطاب مخادع أطرهم ضمن جواب بعيد عن نيتهم بعدم إعادة الحطام.

ومن الأمثلة المؤلمة ما حصـل في الثورة السـورية لمرات عديدة بعد إقدام قوات الاحتلال الروسـي على محاصـرة المناطق، فكانوا يضـعون المقاتلين ضـمن خيارات لا تصـب إلا في صـالح العدو، فمثلًا بعد حصـار المنطقة كان يروج الروس إلى أن المجموعات المسـلحة بين خيارين وهما أما التهجير ونقلهم لمكان محدد أو يسلموا سـلاحهم ويصبحوا تحت الوصـاية الروسـية، وكانت تأتي هذه الخيارات بعد عملية إجرامية بالحديد والنار تسـبب الصـدمة والترويع مما لا يدع مجـال للثوار والمجـاهدين التفكير بخيـارات أخرى ويقعوا بفخ التـأطير ثم التفكير بـأحد الخيارات التي يطرحها العدو وإلا فمصيرهم الإبادة!، والحقيقة لو كان العدو يضمن إبادتهم لما عرض أي خيار ولكنه تجنب الاسـتنزاف والوقت الطويل الذي يعتبر عنصـر إيجابي في صـالح المجموعات بمنطق حرب العصابات .

والآن في هذه الأثناء تدور معارك عنيفة قرب مدينة معرة النعمان، في هذه الأثناء يروج العدو الروسـي لمقترح تسـليمها دون قتال أو مصـيرها التدمير كليًا محاولًا خداع العقول أنه لا أمل ولا حل آخر للمجاهدين والثوار وقد اسـتخدم مثل هذه الخدعة من قبل حينما سـيطر على خان شـيخون ومناطق واسـعة، ترافق مع العملية سـطوة عسـكرية لكن المتفكر بالواقع المراقب للأحداث والتصـريحات والحالة النفسـية العامة يدرك أن القصـف والتدمير ليس

العامل الرئيسي، ولعل أبرز الأدلة على استخدام العدو الخداع النفسي والذهني قبل الحقد العسكري، هو قدرته على فرض المعركة في المكان والزمان الذي يحددهما وحده، وجعل المجاهدين والثوار يظنون أن أنسب خيار الدفاع في نفس النقطة ولا خيارات أخرى متاحة ضمن العمل القائم، بما معناه يقعون في فخ الارتباك والتشنج ويظنون الدفاع ومحاولة إيقاف تقدم العدو هو الأنسب لكن ومع ذلك فإن العدو دائمًا يحقق مبتغاه ضمن سياسة القضم، كان يجب أن يفكر الثوار لمرة واحدة هذا ما يريده العدو أن يختاروا الدفاع ومنعه من التقدم، وأن عليهم عدم تكريس الجهد في صده وجعل الدفاع ثانوي، والتركيز الأكبر في الانتقال للهجوم من نقاط ومحاور مختلفة فالهجوم أقل كلفة من الدفاع وهو خير وسيلة لكبح تقدم عدو متفوق عسكريًا .

هذه أمثلة بسيطة يتضح فيها أن نظرية التأطير تُطبق وبشكل متكرر ومتطور، وواضح أن العمدة فيها على المهارة العقلية ومعرفة الشخص الآخر ومحاولة فهمه للقدرة على تطبيق أنسب ما يمكن من خطط الخداع والتحايل ضمن النظرية، وأن أنسب حل لمكافحة هذه النظرية وعدم الوقوع بها هو النظر في مقترحات العدو والخصم ليس للتفكير بها بدايةً، بل لمعرفتها ثم التفكير بعيدًا عنها كونها خيارات فهمنا أن العدو اختارها بعناية وكلها تصب في صالحة ولو كان ظاهرها غير ذلك.

ب- نظرية التشتيت (الإدراكي والعاطفي)

هذه النظرية تعتمد على تشتيت الطرف الآخر أما فكريًا أو عاطفيًا ولها استخدامات أخرى أوسع، لكن سنسلط الضوء عليها من الناحية الحسية الفكرية بأسلوب يسهل فهم خطورة النظرية وطرق استخدامها في مجالات متنوعة.

تعتمد النظرية على تشتيت العدو أو الخصم من خلال الخداع الذهني والضغط النفسي لجعله أما متخبط أو متعاون فيما يراد له أن يفعل بدون إدراك منه، ولتتضح الصورة نضرب أمثلة مفهومة وبسيطة.

مثال : نتخيل حوار أو مناظرة بين شخصين يمثلان طرفين نقيضين وحولهم جمهور محايد سيكون الحكم بعد انتهاء المناظرة، يبدأ الحوار بشكل روتيني طبيعي إلى أن يبدأ صاحب

نظرية التشتيت يحرف مسار الحوار بطريقة غير مباشرة ساعيًا أما لإسكات الخصم بحقائق لا يمكن إنكارها أو تبريرها بشكل منطقي أو لإثارة الخصم من خلال أكاذيب مبالغ فيها وصبغها بصبغة الوقائع المعلومة للجميع!،، يبدأ الضحية في الحالتين بالارتباك وفقدان التوازن محاولًا أما التبرير والدفاع أو التكذيب والإنكار، يضاعف صاحب تطبيق النظرية من تكثيف الضغط النفسي محافظًا بشكل مستفز على هدوءه واتزانه مضطرًا خصمه للبقاء في محور الدفاع والتبرير والتكذيب متناسيًا القفز من النقاط الثانوية إلى الحوار المحوري الذي يمتلك فيه معلومات أو أعده مسبقًا .

الجمهور أو المتابعين سينتابهم نوع من الملل تجاه الضحية التي تتخبط وتصرخ ومعظم كلامها غير مفهوم أو غير منسق في سياق من الممكن الخروج به بنتيجة مفهومة أو أخذ جملة كاملة مفيدة، والسبب كما قلنا قفز صاحب النظرية من سياق لآخر دون إعطاء فرصة للضحية بمجاراة الرد أو إثبات الحقيقة، وهكذا يكون الخصم تحت تأثير الضغط ومرتبك ويبدو خائف من استكمال الحوار والمناظرة، في حين مُطبق النظرية هادئ يبدو واثق من كلماته وذلك أنه لم يعطي فرصة للخصم بتوجيه سؤال، وإن حصل فلن يكون الجمهور منتبه لسؤال عابر في خضم العصف الذهني والتركيز على المرتبك.

إذُا هي عملية تشتيت للعقل وتحقيق الإرباك النفسي والقدرة على تغييب حالة الوعي من خلال عدة عوامل وطرق نفسية ومعنوية كالقدرة على زراعة الوسواس والاكتئاب وفي حالات أخرى القدرة على جعل الطرف الآخر نتيجة عوامل النظرية يتحول لشخص متشنج سريع الغضب كثير التناقض ويبدو في حالات كثيرة سريع العدائية غير قادر على التمييز أو التفريق بين الأمور أو خلق حالة مقارنة بديهية نتيجة استهداف التركيز.

ينجح تطبيق النظرية على كثير من الناس لكنها تفشل عند البغض ممن يتميز بالبداهة والنباهة وسرعة تحليل ما خلف الأحداث أو الكلمات، أو لديهم القدرة على التمثيل ولعب أدوار مختلفة بين الحالة الصاخبة والهادئة بحيث يعكسوا النتائج المرجوة لدى صاحب تطبيق النظرية وقد يوقعوه نفسه في شباك نظريته.

ج- نظرية الإسقاط العكسي (الرموز)

وهي عملية استباقية مضادة للتملص من السقوط والحيلولة دونه مع توريط الخصم به مرغمًا، وتعتمد على الحيل النفسية والخداع الذهني وتوجيه العواطف باتجاه محدد ثم تضخيمها بطريقة لا شعورية لتعزز أفكار غير واعية بالعقل الباطني، كما أن من أهدافها نفي العيوب والتهم وإلصاقها بالخصم أو الطرف المعادي إذا ما تم تطبيقها في الحروب السياسية أو المناظرات الفكرية.

في الأمثلة التالية ستكون الصورة أوضح:

المثال الأول : يعتمد الطرف الأول حينما يكون مجرمًا قذرًا هاوي خباثة وسفالة وبعد ارتكابه لأفعال إجرامية ودنيئة، للمسارعة ليس فقط بنفي التهم عنه، بل يرفقها بتحويل توجيه التهم نفسها وزيادة عليها للطرف الآخر البريء منها تمامًا، وفي كثير من الأحيان يكون النفي ثانوي عنده والتركيز الأكبر هو توجيه التهم المتتالية المضخمة والمبالغ فيها لضمان تصديق جزء منها على الأقل محاولًا التذرع بأنه من غير المعقول أن كل ما يقوله غير صحيح مطالبًا "بالإنصاف" وعدم الانحياز، وبالفعل هذا ما يحصل بشكل مستمر في ساحة الصراع الشامية وما تفعله دولة الاحتلال الروسية التي لا تمتلك ذرة من شرف الحرب أو الخصومة، من خلال تصريحاتها التي تبدو مستفزة إلا أن الحقيقة هي مدروسة وبعناية فائقة .

مثال آخر: نظرية الإسقاط تعتمد على أهداف عدة فمنها ما يكون إسقاط لرموز معينة، فمثلًا يتعمد العدو توجيه كل تركيزه على شخصية معينة وتصويرها على أنها سبب معاناته وأنها محورية ومفصلية ثم يبدأ إظهار أنه يحاول النيل من تلك الشخصية عبر الكذب الواضح بشكل جلي وهو مقصود أو من خلال تلفيق التهم والدعاية السلبية لدفع المناصرين والمتعاطفين للاستماتة والانشغال في تفنيد الأقاويل الكاذبة الواضحة بشكل جلي، وبذلك يرتفع رصيد الشخص المُستَهدف نتاج الهالة الدفاعية الغير منطقية بحدها غير المنضبطة، مما يجعله رمزًا ولا كل الرموز أو حتى تصويره بشكل غير مقصود وكأنه الشخص المثالي المطلق والوحيد، ثم بعد ترسيخ هذه الصورة في الأذهان يبدأ الطرف المستخدم لنظرية الإسقاط باستهداف الهدف بشكل جدي وفعلي هذه المرة وإظهار العيوب الموثقة والمؤكدة أو محاولة حرف المستهدف أو حتى اغتياله، وكلها تؤدي لنتيجة نفسية سلبية واحدة عند معظم

المناصرين والمتعاطفين كردة فعل غير مسيطر عليها، وفي الغالب شعور الخيبة الداخلية يكون هو السبب بعد الانخداع والوقوع في فخ المثالية تجاه الرمز الذي انشغل فيه الفرد مدافعا .

إذًا؛ هي حيل نفسية مخادعة تستهدف العقل الباطني والعواطف الداخلية، وتعمل على إثارتها بشكل فوضوي غير مقترن بالمنطقية والعقلانية التي تؤدي للاتزان في الأمور، ينشأ جراء ذلك حالة من الاضطراب العاطفي الذي يغلب بدوره مجددًا العقلانية وكأنه يصيب فرص التفكير بالشلل مع كل محاولة في التفكير المنطقي، وهذا ما يحتاجه صاحب نظرية الإسقاط بالضبط، تحييد من يمكن تحييدهم عبر التخبط الداخلي داخل كل فرد، ودفع قسم آخر للتغير السيكولوجي السلبي بشكل كبير، ثم الاستفراد بالهدف "الرمز" إن لم يكن سقط قبل ذلك الوقت في عيون من دونه .

د- نظرية كسب المصداقية (الصدق حتى التصديق)

هذه النظرية تستهدف الحس الداخلي للقناعة، وتعتمد على سياسة "اصدق واستمر بالصدق حتى يتسنى لك الكذب".

مثال : في الحروب تدخل ضمنًا الحرب الإعلامية والدعائية، فيستغل الطرف الأول بعض الأخبار الضارة للآخر رغم عدم تأثيرها وحتى قد تكون ليست ذات أهمية، لكنه يستمر في الانضباط بالمصداقية والشفافية مهما طال الوقت منتظرًا فرصته الذهبية التي قد لا تتكرر إن فوتها أو فشل في السعي لتحقيقها، وهي أن يجبر الطرف الآخر على الاعتراف أو ما شابه الاعتراف بأمر كان قد ذكره بكل صدق وشفافية، وباعتراف الهدف بطريقة مباشرة أو غير مباشرة لكنها واضحة وكما قلنا ولو كان الأمر ثانوي وتافه، هنا يأتي الدور الجوهري لتطبيق النظرية فيستغل الطرف الأول هذا الاعتراف ليثبت أنه ذو مصداقية وشفافية وخصومته منضبطة بأخلاقيات ومبادئ، وهذا ما سيتقبله أنصار الهدف والمتعاطفين معه كونهم يرون ذلك واقعًا وباعتراف رؤوسهم، ونعيد ونكرر مهما كان الأمر تافهًا لكن الاعتراف له أثر داخلي يعطي مصداقية للخصم أو العدو الذي لن يستمر بتلك المصداقية بعد هذا الاعتراف وسينتقل بعدها لدس السم تدريجيًا حتى يصل لمرحلة الطلاق النهائي مع الصدق، وذلك بعد خلق حالة مضطربة في نفوس خصومه وأعدائه تميل في معظم الأحيان لتصديقه على تصديق رؤوس المستهدفين .

وقد تكون الحيلة وتطبيق النظرية عبارة عن تسـريبات بسـيطة وحقيقية متتالية تحاول دفع المستهدف للاعتراف بأيًا منها تحت ذريعة الاعتذار أو التوعد بالمحاسبة أو نحو ذلك، وهذا كله يؤدي إلى خطر مسـتقبلي وخلق فجوة كبيرة سـيملأها العدو بالأكاذيب بعد تخليه عن التسريبات الحقيقية البسيطة، ولذا ففي مثل هذه الحالات أفضل الحلول عدم الاعتراف بأي شـكل وكذلك عدم النفي والتكذيب لأنه قد يكون متوقعًا للتكذيب فيظهر أدلة كان يخفيها لا مجال لتكذيبها مما يؤدي لفقدان الثقة بين المرؤوسـين والرؤسـاء، فالتعامل مع مثل هذه الحالات حسـاس ويحتاج قدرة على تمييز أنسب الطرق وفي الغالب اللامبالاة أفضل شيء أو محاولة التقليل من شأن تلك الهجمات وتعزيز فكرة أنها ثانوية في العقول قد يكون من الطرق الفعالة .

من الخطأ الاعتراف بأي شيء يبثه العدو تحت أي ذريعة وحجة، ومهما كانت أمور تافهة فيلزم سياسة تعامل تكون على بصيرة وفيها توقع لحيل العدو وأهدافه، وحتى فيما يخص الأمور التي لا يمكن إلا الاعتراف فيها فيلزم أن تكون بأسـلوب مدروس وعبارات منتقاة بعناية وممكن خلطها بخطاب دعائي مضاد كمحاولة لتشتيت العدو ومخططه إن كان ثمة مخطط.

10. تضليل العدو

وذلك من خلال تمرير معلومات تظهر بأنها غير مقصودة أو أنها سرية، فيلتقطها العدو ليظنها كنز معلومات.

ومن أكثر استخدامات الحرب النفسية والتضليل على سبيل المثال الواقعي، بث الشائعات حول عمالة شـخص تعجز الأجهزة المعادية عن النيل منه، فتروّج بطريقة خفية أنه يتبع لها لتحقق مكسب النيل منه على يد رفاقه، كما تُستخدم ضد كيانات كاملة كحكومات أو أنظمة على أنها عميلة وذلك من خلال "تسريب" وثائق ملفقة، وحتى تُستخدم ضد عمليات معينة تم استهدافها بها، تروج على أنها عمليات مدبرة بتواطؤ معها.

11. خداع العدو

يتحقق بنشـر معلومات صـحيحة غير مؤثرة في حقيقتها لكن تهدف لمراقبة ردة فعل العدو ثم القيام بعملية دراسة وتحليل تعتمد على معرفة نواياه.

12. استفزاز العدو

من خلال بث أخبار معينة أو أمور تحمل تسـريبات تخصـه، ثم مراقبة ردة الفعل لتلقف تفاصـيل ردة الفعل وبناء أعمال أو وضـع خطط مناسـبة بما يخص الأمور العسـكرية أو السياسية أو غيرها.

13. التخريب الفكري

التخريب الفكري وخلق الفوضـى والغزو الثقافي والتسـميم العقلي والحرب النفسـية والإعلام الموجه، وغير ذلك الكثير الكثير كلها تقع على عاتق جهاز المخابرات. وتكون من خلال تزوير الحقائق وتحريف الوقائع من أجل ترسـيخ أدبيات أو ثقافات بديلة تقوم على أنقاض الفكر المخترق أو المدمر أو المخرب.

ولا شك أن أهم وسائل وأدوات الاختراق الفكري وتخريبه هي وسائل التواصل الحديثة مثل "فيسبوك-تويتر-انستغرام" وغيرها الكثير، لكنها ليست كل شيء، فالطرق التي تستهدف الأمم والشـعوب كثيرة، ومن أكثر الأمم التي تتعرض للاختراق الفكري بغية التخريب والتغيير، هي الأمة المسلمة السنية.

تعتمد عملية التخريب الفكري على المعرفة المسـبقة بالثقافة العامة للشـعب من تقاليد وعادات وطبائع وثقافة، ثم يُحدد الهدف المراد تدميره أو تخريبه في وسـط الشـعب أو الأمة، وبعدها يحصل الأمر بشكل غير محسوس للمعظم من أبناء الشعب أو الأمة الواحدة.

ولعل الناظر للأمة المسـلمة ككل يُلاحظ حجم الفرق الكبير بين كثير من عادات وطبائع ومعتقدات وثقافات الأمة، وحتى على مسـتوى الشـعوب ونتائج الهدم الفكري فنرى الجزيرة العربية وتحديدًا "السـعودية" لم تعد تشـبه "السـعودية" بالأمس ومع مرور كل يوم يتغير فيها الكثير رغم حفاظها على العادات والمبادئ والثقافات منذ عقود طويلة، لكن فجأة وخلال عامين نجدها في انهيار فكري وعقدي وثقافي خطير، وهذا لم يكن محض صـدفة نحن لا نؤمن بها، بل كانت عملية طويلة ودقيقة وأكثر وأخطر أدواتها "الترفيه" الذي بدأ بوسـائل التواصل الاجتماعي، ليصل إلى الحفلات على الأرض وقرب أقدس أماكن الارض وأكثرها رمزية لدى المسلمين، وكما ذكرنا سـابقًا ما قاله العميل السـوفييتي السـابق "يوري بيزمينوف"، أن

الأمر يحتاج لخطة تعتمد على مرور وقت ومجيء جيل قادم ثم جيل بعده ومع تنفيذ الخطط بدقة تنجح المهمة .

بعد الحرب العالمية الأولى ووصول هتلر لرأس السلطة في ألمانيا، كان يحتاج تحقيق بعض الأمور حتى يستطيع الدخول في حرب مفتوحة يسترجع فيها حق وكرامة ألمانيا من وجهة نظره وكانت بالفعل بعدها الحرب العالمية الثانية، فبعد خطته في تقوية الجيش وتطوير التسليح، وبعد قدرته السيطرة على قرارات البرلمان كان يحتاج دعم الشعب الألماني واقتناعهم بمشروعه وحزبه النازي، ولأجل تحقيق ذلك كانت خطته تقتضي استغلال التغيير الفكري من خلال "الراديو"، فكلف وزير الدعاية "جوزيف كوبيلس" بالمهمة، وبالفعل وبالسنة الأولى تم إنتاج وتوزيع مليون جهاز راديو دخلت البيوت الألمانية!، بالإضافة للسيطرة على كافة شركات الانتاج السينمائي والصحف المحلية، وبدأت بث الدعاية والترويج مما ساهم بتغير كبير في نظرة الشعب الألماني للحزب النازي ومنحهم تأييدًا كبيرًا له.

14. الاستطلاع الاستراتيجي

ويشمل الأمور العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأمنية ..إلخ. ويكون بشكل شبه دوري (سنوي – شهري) عام وشامل لكل الأحداث المحيطة من قريب أو بعيد، بحيث يكون كل شيء ضمن المعلوم وضمن التوقعات لإيجاد حلول أولية أو عميقة.

كما أن استراتيجية المخابرات تعتمد على فهم الخفايا والأسرار ثم تقديمها لرؤوس الدولة ليدركوا كيفية التعامل ورسم الخطط المناسبة في العلاقات الخارجية وحتى الداخلية أو الأحداث الجارية.

15. تحرير أسرى

وذلك من خلال إرسال العيون لجمع المعلومات الكافية حول الأسرى ووضعهم ومكانهم والحواجز الموضوعة عليهم، وتقديم دراسة كافية حول تنفيذ مهمة تحريرهم من قِبل المجموعة التنفيذية.

16. اغتيالات

وهي اغتيال شخصيات لها تأثير ورمزية في صفوف العدو، أو تصفية أشخاص مهمين داخل دائرة العدو. وأثناء كتابتي لهذا الكتاب حصلت مثل هذه المهمة على يد المخابرات الأمريكية التي ارسلت قوة قتالية تعرف باسم "دلتا" تتبع للمخابرات بغية تنفيذ عملية اغتيال وتصفية لزعيم تنظيم "داعش"، وقد نجحت بالمهمة دون خسائر في صفوفها.

17. الخطف

وقد يكون خطف أفراد معادية في مناطق العدو أو الصديق أو الحياد بغية تغييبها لمدة معلومة أو استجوابها بطريقة سرية تضمن عدم التصدر للمشهد تجنبًا لاعتبارات معينة، وقد تكون عمليات خطف لأشخاص غير معادين لكن بغية الحماية الغير المباشرة.

ومن الملاحظ أن جهاز المخابرات له مهام داخلية ومهام خارجية منها ما يتعلق بالشؤون المدنية ومنها العسكرية، ولهذا كان لجهاز المخابرات مكاتب أو أفرع ذات اختصاص ضمن الجهاز ككل، ومن تلك الأفرع ما اخترته بطريقة بسيطة وصغته بطريقة سهلة لتحقيق هدف فهمه ببساطة.

أفرع المخابرات

1. الفرع الخارجي

وهو الذي يهتم بالشؤون والأمور الخارج حدود الدولة على كافة الأصعدة، يهتم بجمع المعلومات وتحليلها والتأكد منها قبل تحويلها للجهة الخاصة المعنية بها، كما يهتم بإدارة وتوجيه الجواسيس/النواميس/العيون والخلايا وخلف الخطوط، كما أنه معني بالأخبار والأحداث كلها، ويعتبر الفرع الخارجي أصعب المهام وأكثرها دقة ويتطلب مجهودًا مميزًا وكوادرًا تمتلك خبرات مميزة، ويدور عمله حول دورين رئيسيين: الرصد والاستطلاع – الاستخبار والاختراق.

2. الفرع الداخلي

ويُعنى بالأمور والمهام داخل حدود الدولة، من مكافحة وتتبع الجواسيس والخلايا، وتقديم الحماية اللازمة للشخصيات البارزة في الدولة والمجتمع من خلال توجيه الأمن الداخلي والشرطة وإعلامهم بأي مخاطر يتم اكتشافها أو توقعها. ويتمحور الدور الداخلي حول: أمن الفرد والتوعية وأمن المعلومات والاختراق.

3. الفرع المدني

يختص بمراقبة شؤون الناس وحمايتهم فكريًا وأمنيًا، كما يهتم الجهاز المدني باصطياد أشخاص مميزين قادرين على أن يكونوا رجال مخابرات محترفين في مجالات معينة، أو التعامل المناسب مع الأشخاص أو الشرائح التي يتوقع منها خطر.

4. الفرع العسكري

مهمته الحماية الكاملة للجيش من خلال الحفاظ على أفراد الجيش من المخاطر المحتملة، وسعيه للحصول على المعلومات العسكرية المعادية إن ثمة حرب قائمة أو خط جبهة محتمل، أو خطط عسكرية معادية.

ملاحظة هامة:

قد يحصل خلط أو يكون ثمة شيء غير مفهوم بشكل جيد، بحيث لا يستطيع الشخص أن يعرف الفرق بين مهام وأهداف أجهزة المخابرات وأفرع الأمن وعملها، والفرق بسيط، المخابرات مهمتها توجيهية في معظم مجالاتها وحدودها، فالاعتماد عليها بالشكل الأكبر يكون بجمع المعلومات وتحليلها وتدقيقها، والأفرع الأمنية مهمتها تنفيذية بناءً على المعلومات الاستخباراتية في الغالب، إلا أن بعض المهام تتطلب تدخلًا من فرق خاصة بتبعيتها المباشرة للاستخبارات.

هذه الأفرع بمهامها الكبيرة والتي تحتاج مجهودًا كبيرًا، يقف خلفها رجال لديهم صفات خاصة وقدرات مميزة لكنها ليست مستحيلة، وهذه الصفات تختلف ما بين القائد والجندي لكنها متقاربة ومتشابهة بأوجه كثيرة، سنقف عند صفاتهم وما يميزهم عن غيرهم من البشر.

صفات قائد جهاز الاستخبارات

"القيادة الناجحة هي التي تستطيع فرض الثقة بينها وبين المرؤوس من خلال فنون التعامل على مستوى إصدار الأوامر أو تنفيذ العقوبات".

هذا فيما يتعلق بالبيت الداخلي، أما ما يخص الحرب والعدو، يقول القائد الألماني إرفين رومل الملقب بثعلب الصحراء: "أن القائد الناجح هو الذي يسيطر على عقول أعدائه قبل أبدانهم".

أما صن تزو القائد الصيني القديم يقول: "إن أعظم درجات المهارة هي تحطيم مقاومة العدو دون قتال".

إذًا فالقائد يحتاج جهد مضاعف عن غيره بمرات عديدة، من الاعتناء بالبيت الداخلي وتماسكه إلى إدارة الصراع من موقعه وضمن اختصاصه.

◈ تعريف القيادة

هي قيادة شخص لمجموعة أو جماعة للوصول بهم نحو هدف معلوم ومحدد وواضح، يحمل فيه القائد على عاتقه المسؤولية كاملة، ويمتلك قدرة على إقناع المرؤوسين بأنهم أصحاب قدرة على تنفيذ المهام على وجهها الصحيح واتخاذ القرارات المناسبة وخلق تأثير واضح في المعادلة.

يقول الشيخ عبد الله عزام: "وأعود وأُذَكِر، أن النفوس التي تقدم الإسلام للناس، لا مناص لها من أن تكون شريعة تدب على الأرض وتأخذ بالعزائم، ولا بُد لها من أن تكون المرآة الصافية التي تعكس حقيقة هذا الدين وأصوله وفروعه، إذ لا بُد من أن يكون لحمها ودمها هذا الدين الذي إليه تدعو والمنهاج الذي تهتف بالناس أن ينهجوا".

فصفات القائد ليست مجرد صفات روتينية أو عادية، فلا يمكن لمشروع أن ينجح إلا بنجاح القائد الذي يقوده، فهو يعتبر نواة للمشروع.

فأصل كل بناء متين ثابت متماسك هو أساسه السليم الخالي من الغش، وكذلك نواة المشاريع يجب أن تكون مبنية على أشخاص يعكسون صدق وصفاء ونبل المشروع بحيث يصعب على الأعداء والخصوم تشويهه من خلال أساليب التشويش والتشويه، مضافًا إلى كل ذلك، وضوح المشروع بخطوطه العريضة ومعلومية الهدف لترسخ القناعة عند المرؤوس

وعموم الناس (الحاضنة) أن هذا المشروع لخدمتهم والحفاظ على أمنهم، لا التسلط عليهم وإرهابهم دون عدوهم والمخاطر المحدقة بهم.

ذات مرة لفت انتباهي جواب عميلة لصالح وكالة الاستخبارات الأمريكية، حين تم توجيه سؤال لها، فاقتنصت الفرصة لتقول: "لو سألنا الشعب الأمريكي عن رأيهم في التدخل الأمريكي في أفغانستان والعراق وسوريا، سيقولون هذا واجبنا لإحلال السلام، فهم يثقون بجهاز الاستخبارات".

سلام! رغم وضوح الإجرام إلا أنهم يثقون بأجهزتهم الاستخباراتية ليس فقط لقضية المعتقدات الدينية، بل الثقة التي استطاعت أن تزرعها المخابرات في نفوس شعبها وتحديدًا بعد عام 2001، كان لها أثرًا كبيرًا في نجاح وكالة الاستخبارات نفسها، لم تكن تلك الثقة ولا ذلك الحب قبل عام ٢٠٠٠، وهذا ما شعرت بخطره والحاجة له وكالة الاستخبارات الأمريكية ووضعت الخطط لذلك ولقد نجحت.

تلك النواة التي تكلمنا عن أهميتها مضافًا لها الصفات التي سنذكرها بعد قليل، ستضع هيكلية تنظيمية مُحكمة بدقة حتى تبدأ عملها ويخرج للنور فيبرق في عيون الناس.

فالقائد الناجح يعرف كيف ينظم الهيكلية ويجعلها تمضي بشكلها السليم، فهي مهمة ومفيدة أكثر من كونها متطلب للمشروع وروتين، بل توزع أعباء العمل الثقيلة لتوزعها على الأكفاء فيسهل النهوض بها، على عكس احتكارها وحصرها، فإن تحديد وتوزيع المسؤوليات تُأطر الخلل وتحصره لحظة وقوعه، كما تجعل الجميع ملزمون بمنهجية واضحة محددة لكنها في مساحة الاجتهاد وتقديم الإبداع من خلال معرفة كل فرد مسؤولياته وواجباته وحدود الصلاحيات ودائرة الإمكانيات.

وكل ما مر مرتبطٌ بشكل وثيق بصفات القائد التي تتلخص في:

1. الكاريزما

هو مصطلح يوناني قديم شائع، يقابله في اللغة العربية: قوة التأثير على الآخرين من خلال الكلام أو مجموعة أفعال تؤدي التأثير عليهم بشكل إيجابي.

2. القوة والحكمة

القائد القوي يمنح المرؤوسين ثقتهم بأنفسهم ويجعلهم قادرين على تحدي الصعاب، لكن القوة تحتاج حكمة ليكون القائد قادرًا على معرفة المكان والزمان اللذان يحتاجان شدة أو تراخي.

3. العفة والأمانة

العفة تُحصن القائد من الدناءة التي تجرجره في مزالق خطيرة كالرشوة أو السرقة، فيبقى من خلال العفة محافظًا على الأمانة، ومن أعظم الأمانة صيانة الحقوق وإعطاء المهام لمن يكون أهلًا لها على أساس الكفاءة.

4. الهدوء والحماسة

التحلي بالهدوء وضبط النفس يعطي القائد قدرة على التخطيط بشكل جيد ويمنع عنه الوقوع في شباك ردّات الفعل الغير منضبطة ويمكنه من معرفة التوقيت المناسب لاستخدام واستثمار الحماسة المطلوبة.

5. الحزم واللين

ليستا صفتان منفصلتان، بل متلازمتان كلًا بمكانها وحسب الحاجة لها، القائد يجب أن يكون حازمًا حتى يتم تطبيق الأوامر والمهام على أكمل وجه، ويجب أن يكون هينًا لينًا في الأمور التي تحتاج منه تنفيس الضغط عن المرؤوسين أو سماع مشاكلهم واقتراحاتهم ونصائحهم.

6. الرهبنة والعمل

في وقت الفراغ يكون عابدًا زاهدًا متذللًا لله، يطلب منه السداد والتوفيق لما أوكل له من أمانة القيادة، ووقت العمل نشيطًا دؤوبًا لا يضيع ساعة في تكريس كل الطاقة الجسدية والذهنية في عمله فهي أمانة.

7. منتظمًا منضبطًا

هو أول المنضبطين المنتظمين بأوقات ومهام وسير العمل يمثل نموذجًا للمرؤوسين مما يجعل عندهم رادعًا داخليًا في عدم ارتكاب التجاوزات.

8. الجرأة والحذر

بين الجرأة والحماقة خيط رفيع، القائد المحنك الحكيم يدرك ذلك الفرق، فيعمل بحذر ليميز اللحظة التي تحتاج جرأة في الاقدام، واللحظة التي تحتاج التأني والحذر المبالغ فيه.

9. الاتباع والإبداع

يكون متبعًا لنهج الناجحين ممن أثروا الأعمال وشكلوا نماذجًا طيبة، ثم يسعى لإضفاء إبداعه بما يتناسب مع التطور والتقدم فيكون لبنة أساس لمن بعده ممن يسعى نحو إبداعٍ جديد وهكذا يبقى الأمر مُتَّقِد.

10. الهمة والهم

يحمل هم أمته في صدره ويجعلها شعلة نارٍ تؤجج حواسه كلها لتمنحه الهمة العالية المطلوبة نحو النهوض والتغيير إلى أفضل ما يمكن، فالقائد الذي لا يحمل همًا فبكل تأكيد لن يمتلك همة.

11. الصدق والإخلاص

الصدق عند القائد يمثل صدق القضية ونبالة المشروع ويبني شعور الثقة بينه وبين الجميع، فالصدق بالأقوال والأفعال يجعله كتابًا مفتوحًا عنوانه الإخلاص لأمته ومرؤوسيه.

12. المعاشرة والتعايش

من لا يعاشر عموم الناس ويعيش بينهم لا يمكن له ملامسة همومهم ولا بناء الثقة معهم، كذلك الجنود والعاملين.

الجلوس معهم بشكل مستمر وبصفة إنسانية تجعل القائد مدركًا تمامًا لما يدور خلفه، وتجعل من حوله حريصين عليه وعلى عمله لتقديم أفضل ما يمكن.

إن كل ما مضى وأكثر بكثير، لخصه القرآن والسُّنَّة، لنعرف صفات القائد المثالي الذي من الممكن أن يكون قائدًا ناجحًا ومحبوبًا وعنده من ثقة الناس ما يكفيه، فقال تعالى:﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴾. [القصص] وقال تعالى:﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾. [البقرة]

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِىُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِى كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلاَ تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلاَ تَقُلْ لَوْ أَنِّى فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ». [رواه مسلم]

أما ما يخص **ضابط المخابرات الناجح** على وجه الخصوص مضافًا للصفات السابقة فيما يخص القيادة ككل، فيقول "ألين دالاس" في كتابه حرفة المخابرات:

1) يجب أن يكون قادرًا على أن يعمل مع الآخرين تحت ظروف شاقة.
2) يجب أن يتعلم كيف يميز بين الحقيقة والخيال.
3) يجب أن يكون لديه حب استطلاع وأن يكون قادرًا على التفرقة بين ما هو ضروري وما هو غير ضروري.
4) يجب أن يكون على قدر كبير من البراعة والتفنن ويجب أن ينتبه إلى التفاصيل وأن يتعلم متى يلزم الصمت.
5) يجب أن يكون قادرًا على أن يعبر عن الأفكار بوضوح واختصار وبطريقة مشوقة وأن يكون متفهمًا لوجهات النظر الأخرى وطرق التفكير الأخرى، وطرق السلك الأخرى.
6) يجب أن لا يغالي في طموحه أو قلقه، من حيث الجزاء الشخصي على شكل شهرة أو ثروة فهذه لن يحصل عليها في عمل المخابرات.
7) يجب أن يبذل جهده في الحصول على المعرفة سواء في مجال الفنون والعلوم الاجتماعية وخاصة في علم التاريخ والجغرافيا.
8) يجب أن يكون على وعي سياسي، يجمع بين مواهب الثقافة، والإدراك.

9) يجب أن يكون مرنًا في التفكير، فإن ضـيق الأفق لا يخلق من الشـخص رجل مخابرات ناجح.

10) يجب أن يكون قادرًا على الموازنة بين الجرأة وإجراءات الأمن.

11) يجب أن يكون ملمًا بلغة أجنبية وخاصة لغة المنطقة التي يعمل بها.

12) يجب أن يكون على دراية بالعوامل السـيكولوجية التي تحدد سلوك الإنسـان كفرد في المجتمع وأن تكون لديه حلكة الابتكار، وأن يمارس هواياته حتى تسـاعده على قتل الملل الذي يعتريه نتيجة تعقيدات وأسلوب عمله.

صفات رجل الاستخبارات

هناك اختلاف بين الصفات المطلوبة لرجل الاستخبارات ورجل الأمن وما يتخللهما من أعمال وحرف من الجاسوسية/الاستخبار والعمالة والمراقبة والاختراق وخلف الخطوط، وأهم نقاط الفرق تكمن في الدوافع، لكن تلتقي معظم الاختصاصات بأمور كثيرة واجبة التوفر بهم جميعًا.

حتى رجال الاستخبارات تختلف الصفات المطلوبة عندهم من حيث المهمة ومجال العمل (مكتبي، مراقبة، اختراق، متابعة، رصد)، لكن الأمر بسيط والصفات منها قد يكون متحققًا ومنها يحتاج العمل عليه لتحقيقه، فليس الأمر كما يتصور الكثيرون أن رجل الاستخبارات شخص خارق ذو قدرات خيالية!

لا شك هو مميز، لكن ليس خارقًا نادر الحدوث، فقط يحتاج موهبة كلبنة أساسية فيما يخص الصفات التي نذكرها في رجل الاختراق والمراقبة والتي سنأتي عليها في رجل الأمن، ثم يطورها ويتدرب عليها لينمي النباهة ويتدرب على ضبط النفس وكيفية التورية وفن الخداع في تعامله مع العدو، وتطوير المهارات ضمن مهامه ومجال الاختصاص مع فهمه واطلاعه بشكل عام على متطلبات وصفات وأهداف ومهام الجهاز والمشروع ككل.

من أهم الفوارق والأمور التي يحتاجها رجل الاستخبارات هو معرفة أنه يجب أن يكون أقرب ما يمكن من العدو بالطرق المتاحة والشرعية لتحقيق نجاعة العمل، وهذا على عكس رجل الأمن الذي يجب أن يتحصن بالابتعاد عن العدو حتى لا يكون هدفًا استخباراتيًا أو أمنيًا. يظن الناس أن رجل الأمن هو من يحتاج حلق لحيته وفعل أمور تمويهية يسمونها "أمنيات"! من أجل المراقبة أو جمع المعلومات، وهذا من الخلط العجيب لفهم مهام رجل الأمن وعدم معرفة أهمية رجل الاستخبار بل هي من المصائب التي تحصل، حيث أنه كما قلنا رجل الأمن يجب أن يكون هو الأبعد عن الاحتكاك بالعدو وعملائه ويقتصر دوره كقوة تنفيذية مختصة ومتدربة على تحقيق الأمان، حتى لا يكون هدفًا للتجنيد العكسي أو الاغتيال، ورجل الاستخبارات هو من يحتاج فنون الخداع والتمويه وتفاصيل الاختراق كونه مدربًا بدايةً على

التحصين النفسي، ناهيك أن أهم شروط عمله الولاء للقضية والمشروع على عكس غيره ممن قد يكون عمله بدافع الأجر الوظيفي أو تحقيق حصانة ضيقة من وراء مجال عمله .

من الصفات المطلوبة لرجل الاستخبار والتي تميزه عن غيره، السيرة الذاتية الدقيقة والمتطلبات التي لا يمكن التساهل فيها مع غيره من رجال الأمن أو الشرطة أو الجيش، حتى أن السيرة الذاتية تشمل محيطه العائلي والاجتماعي وميوله الفكري، فالقضية ليست مجرد إتقان للنباهة وتحقيق الحرفية العالية في العمل أو القدرة على الإبهار، وهنا لا نقصد تحقق النزاهة والانضباط كشرط، قد نجد الصفات المطلوبة في شخص له تاريخ في مخالفة القوانين الوضعية تصل حد الإجرام، أو يعمل في مجال التهريب أو بأمور تُسمى مخالفة للقانون، لكن يتحقق فيه شرط الولاء العقدي سمته الإخلاص، كما أننا نستطيع التمييز في اختيار الشخص للمهمة، بين زراعته كمستخبر يجلب الأخبار، أو مراقب أو رجل استخبارات دوره اصطياد الجواسيس أو زراعة النواميس/العيون فقط وتسهيل أعمالهم من خلال تحقيق غطاء لهم .

"رفعت علي سليمان الجمال" المشهور باسم رأفت الهجان، كان تاريخه سيئًا بالنسبة للحكومة المصرية كما نقلت بعض المصادر، ومصادر أخرى نقلت عنه الاستهتار في تحمل المسؤولية على الصعيد العائلي والشخصي، في المقابل كان يهوى اللهو والحفلات والفنون المسرحية التي دفعته للمعرفة الثقافية، في المحصلة درس التجارة وتخرج منها ثم تقدم لوظيفة لدى شركة بترول أجنبية، اختاروه لإتقانه اللغة الإنجليزية والفرنسية سرعان ما تم طرده بعد اختلاسه لأموال خاصة بالشركة، بعد مرور بعض الأحداث دخل الولايات المتحدة بشكل غير رسمي مما عرضه للمطاردة من قِبل إدارة الهجرة الأمريكية، عاد لمصر بدون وظيفة ولا عمل ولا حتى جواز سفر مما جعله محبطًا إلى حد كبير، عُرض عليه العمل في شركة قناة السويس، لكن الأمور تحتاج أوراق ثبوتية هو لا يمتلكها مما دفعه للدخول في عالم التزوير تكرارًا ومرارًا، متنقلًا بأسماء مزورة كثيرة انتهى به المطاف في السجن بمصر بعد إلقاء القبض عليه عند الحدود الليبية على يد ضابط بريطاني شك أنه يهودي فسلمه للمخابرات المصرية التي شرعت بالتحقيق معه على أنه ضابط يهودي .

تولى التحقيق معه ضابط في البوليس السري المصري "حسن حسني" ضابط ذو فراسة، اعترف رفعت أو المعروف باسم "رأفت" بكل ما مر معه ومنها اختلاطه بالجاليات اليهودية من باب حبه للتمثيل والمسرح والحفلات، في نهاية المطاف وبعد تأكد المخابرات المصرية من كل ما قاله رفعت/رأفت والتحقق أن اليهود لا يشكون به بل يعرفونه يهوديًا، عرض حسن حسني على رفعت خيارين، أما السجن أو مسح الماضي كله بما فيه شخصية رفعت والبدء بحياة جديدة واسم وعمل جديدين.

وافق رفعت الجمال بعد أن اقتنع بكلام الضابط حسن حسني حول الثورة المصرية والقومية والوطنية وغيرها، وصار رجل مخابرات "جاسوس" بعد أن خضع لعمليات تدريب خاصة وحفظ الدور بإتقان، اللافت لانتباهي أن رفعت كان يهوى التمثيل ولعل الفرصة جاءته ليثبت موهبته لكن ليس أمام الكاميرا أو على المسرح، بل على أرض الواقع ولا شك قد أبدع في التمثيل العملي.

وكما معظم الجواسيس يدخلون البلدان تحت غطاء التجارة ورؤوس الأموال أو في عصرنا الحالي تحت اسم المنظمات الإغاثية والإنسانية، دخل رفعت دولة الاحتلال بصفته تاجرًا يهوديًا وصاحب مشاريع ورأس مال.

استطاع رأفت الهجان اختراق الموساد وأجهزةً ومفاصلًا أخرى في دولة الاحتلال، فزود مصر بكثير من المعلومات الهامة والحساسة منها موعد العدوان الثلاثي على مصر (فرنسا – إسرائيل – بريطانيا)، وكذلك تفاصيل ومعلومات عن "خط برليف" سلسلة التحصينات الدفاعية الإسرائيلية، كذلك مد مصر بمعلومات هامة إبان حرب أكتوبر.

قال "إيسر هاريل" رئيس الموساد الأسبق: "إن السلطات كانت تشعر باختراق قوي في قمة جهاز الأمن الإسرائيلي ولكننا لم نشك مطلقًا في جاك بيتون." جاك هو الاسم الحركي لرفعت علي سليمان الجمال داخل إسرائيل، ورأفت الهجان الاسم الحركي له في مصر كرجل مخابرات.

إذًا، فالمواصفات الخاصة برجل المخابرات دقيقة لكنها ليست خارقة، ولا تعتمد على بنود محصورة كالحال في رجل الأمن أو الشرطة أو الجيش، وممكن تلخيصها : الولاء، الإخلاص، الثقة، النباهة، الذكاء، البداهة، المعرفة، حب المهنة (الاستخبارات)، الكتمان، الحيلة،

المناورة، الخداع، المكيدة، الانضباط بخط العمل، السمع والطاعة، الاجتهاد بالحدود المسموحة، القدرة على التكيف السريع، مضافًا صفة الالتزام بالمشروع وما هو المباح عند رجل المخابرات المسلم وتعمقه في الأمور الشرعية التي من الممكن أن يتعرض لها، فيجب أن يكون على علم كافي بها، وأن لا يكون مترددًا أو ينتظر السؤال عنها، كما أنه يجب أن يتقن لغة عدوه أو على الأقل فهم شيء منها يمكنه التحليل لرسم الكلمات ومعانيها أقل ما يمكن .

هذه الصفات كفيلة ببناء رجل مناسب يؤدي الغرض المطلوب بدقة متناهية وتناغم كامل مع الجهاز ككل، كما تؤهله ليكون مبدعًا من ذاته مطورًا لنفسه لكن من الضروري التنبه لمسألة غاية في الحساسية وهي أن لا يكون فاسق، والفاسق هو المائل للمعاصي كثير تجاوز حدود الشرع، لأن العمل هنا تكليف ولا يمكن الوثوق بفاسق ،. ورد عند ابن كثير في البداية والنهاية أن عمر بن الخطاب أوصى سعدًا قائلًا : "والفاسق عين عليك لا لك" .

من الضروري التنبه لعدم الخلط وجعل علم الاستخبار محصورًا في الأمن أو التجسس وممارسة الحيل والخداع، فن الاستخبارات أوسع بكثير وأهدافه أبعد من ذلك في جوهرها، ولعل وصف علم الاستخبارات ب "العلوم الاجتماعية" أدق من غيره فهو يشمل الاقتصاد والسياسة والعسكرة والأمن والفكر والثقافة، من هذا المنطلق تبدأ أولى خطوات جهاز المخابرات بالنجاح والتطور.

◈ نصائح مفيدة وبسيطة لرجل الاستخبارات:

1) استخدم ومرن عقلك ليكون جهاز تخزين تُخزن فيه كل شيء مهما كان بسيطًا، من خلال عدسة العين لتلاحظ فيما بعد أي تغيير قد جرى حولك أو في طريقك المعتاد أو محيط معين أنت فيه.
2) درب نفسك أن كل شيء يحصل ليس مجرد صدفة لا نؤمن بها أو أمرًا قد يكون طبيعيًا، قد يكون خلفه قصة وأمرًا مريبًا، لكن اجعل الأمر باتزان حتى لا تقع ضحية الهذيان أو الوهم.
3) تعامل مع كل شيء بشكل طبيعي وكأنك لم تعطي الأمر حقه في التفكير، وضمنيًا يجب المبالغة في تحليل كل شيء.

4) سخّر كل شيء حولك ليكون من خلاله الإجابة على أي تساؤل في عقلك أو شكوك في صدرك، فمثلًا سخر زجاج المطعم أو المقهى أو أي مكان تكون فيه ويوجد حولك زجاج، اجعله للنظر بما يعكسه لك وليس النظر من خلاله لما خلفه.

5) خصص وقتًا كافيًا للمطالعة حول قصص الجاسوسية وأساليب كشف العملاء وطرق التجنيد، وآلية تطوير كل جهاز مخابرات أو وكالة استخباراتية.

العلم والمعرفة مضافًا لها التدريب الجسدي والنفسي والعقلي، يسهل عليك كل المهام الموكلة لك أو التي تحتاجها، سيجعل ذهنك مميزًا ومرنًا يمكنك من تحليل الأمور وحفظ الصور وتفاصيل المحيط بثواني معدودة.

إن هذه الحرفة علم عظيم حقق ما لم يتحقق بالقوة العسكرية، ولنا أمثلة غاية في الإبهار من الصدر الأول للإسلام، وكيف كانت المخابرات الإسلامية من أبرع الأجهزة وأكثرها دقةً ونجاحًا، مما ساهم بنهوض دولة عظيمة انتقلت من الضعف والاستضعاف والاضطهاد إلى دولة هزمت أقوى الإمبراطوريات والجيوش المتفوقة، وسنذكر الشيء اليسير من تلك القصص الموثقة.

صور من المخابرات الإسلامية

ليس إعجابي الشـــديد بالاســـتخبارات النبوية والإســـلامية ككل هو انحياز عاطفي مطلقًا، إنما هو عين الإنصـــاف الذي اعترف به حتى غير المســـلمين، ولئن كانت المخابرات المعاصـــرة بارعة في هذا المجال، فلقد برعت بعد كثير من الفشـــل ونهضـــت بإمكانيات خيالية سُـخرت لها ومع ذلك ما زلنا نسـمع عن فشـلها في بعض المواضـع، أما لو نقبنا في آثار الحرفة الاســـتخباراتية النبوية وغيرها، ســـنجد الدهاء المبهر والذي من الواضـح أنه كان بالنسـبة لهم بديهيات!، تطورت بعض تلك البديهيات لتصبح علمًا حقيقيًا وحرفةً متبعة، بل لو دققنا كيف اسـتطاع النبي صـلى الله عليه وسـلم النهوض بدولة للمسـلمين من قلب الضـعف لعرفنا أن الجهاز الإســـلامي من الممكن أن يكون من أقوى الأجهزة برغم الانضـــباط الشـــديد في العمل والذي يحد كثيرًا من الأمور التي هي مباحة في الأجهزة الغربية .

لم يكن الأمر مجرد وحي من الله تعالى لكن بلا شـــك بتوفيقه، بل لو راجعنا الســـيرة النبوية وفقراتها لوجدنا أن النبي صـــلى الله عليه وســـلم كان مدرســـة حقيقية في كل مناحي العســـكرة والســـياســـة والأمن والاســـتخبار، فالله تبارك وتعالى حينما بعث نبيه العظيم بعثه ليكون مُعلمًا في الدعوة والتأسـيس لركائز الدولة ويكون منهاجًا للمســلمين على مر التاريخ من بعده، ولذلك نرى المعجزات مقتصـــرة على أمور تؤيد وتؤكد أنه بشـــر مرســـل من الله، أما الشؤون الحياتية من حروب وسـياسـة وأمن ونجاحات وهزائم فقد جعلها الله تجري بما يفهمه العقل البشـري ويقبله المنطق النظيف ويمكن الاتباع من دراسـتها وتطبيقها، فمثلًا النصـر في معركة أحد كان بســـبب الخطة المُحكمة ثم حصـــلت الهزيمة بســـبب تجاوز الأوامر للقيادة، والقائد هو نفسه النبي ﷺ المؤيد من الله تعالى، وعلى مثل ذلك آلاف الأمثلة .

أســتغرب نجاح الغرب بجعل منظومتهم المخابراتية تنجح بالســيطرة على العقول من خلال الوهم فيدخل أبناء الأمة في نظرية المؤامرة، وهنا لا نقصـــد بالمؤامرة على الإســـلام فهي يقينية واقعية، إنما المقصد أن يظن مسلم أن ما من حدثٍ في العالم إلا وهو ترتيب المخابرات، ولو كان أصـــلًا يســـتهدف تلك المخابرات!، لا شـــك للمخابرات مكائدًا ومحاولات من هذا النوع

لكن أن يصل الحال وبدون شكل مباشر لجعل المخابرات الغربية شريكة مع الله تعالى في ترتيب الأحداث فهذا ما لا يمكن قبوله ولا تبريره، ولعل السبب في الوهم الحاصل هو النقص في تصدير الأثر الإسلامي لهذه الحرفة واستبدالها بتضخيم الهالة حول الأجهزة الغربية .

ومن الجيد أن نتذكر أن الحرفة الاستخباراتية لم تكن مقتصرة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، بل ما زالت حتى يومنا يتقنها أبناء الأمة على ضعفهم وتآمر الأمم عليهم، وبرغم كل المحاولات من طمس أعمالهم في هذا المجال إلا أن الحقيقة تفرض نفسها والتاريخ لا يُجامل أحد ومهما تحيز فلا بُد أن يأتي يوم ويعود للإنصاف. لو عاد الزمن لقرون مضت، لكان الدور الاستخباراتي المعادي على الهامش والصدارة بلا منازع للمسلمين.

يقول المؤرخ العسكري ريتشارد غابريال : "كان محمدًا زعيمًا عسكريًا فذًا، حاذقًا في التكتيك، قائدًا محنكًا، مفكرًا استراتيجي، قائد معارك على مستوى العمليات، وأول زعيم ناجح في التاريخ، كان بحق جنرالًا عظيمًا وخبير تكتيك، اشترك في ثماني معارك كبرى، وقاد ثماني عشرة غارة، وخطط ثماني وثلاثين عملية عسكرية أخرى، حيث كان آخرون يقودونها ولكن تحت إمرته وتوجيهه الاستراتيجي المباشر، ثبت أنه متمرسٌ بارع في استخبارات الحروب، وأضحى جهازه الاستخباري يفوق ما لدى الرومان والفرس، خصوصًا فيما يتعلق بالاستخبارات السياسية" .

هذا ما اعترف به غير المسلمين والنبي ﷺ بغنى عن شهاداتهم وهو أعظم وأشرف من أن يقيمه بشر، وللتنبيه فمصادرنا الإسلامية تتعارض مع الأعداد التي ذكرها المؤرخ ريتشارد، وفي نفس الوقت فهي محل خلاف في العدد وعلى الراجح أن النبي ﷺ خاض تسعة غزوات بنفسه كرأس حربة وقاد نحو تسعة وعشرين معركة وبلغ عدد غزواته وبعثات السرايا ما يفوق المئة.

بلغت أهمية ودقة المعلومات أن استطاع الجهاز النبوي حصار مكة اقتصاديًا من خلال قطع الطريق واعتراض قوافلهم التجارية لأجل فك الحصار عن المسلمين الذي فرضته قريش حيث منعت القبائل من التجارة معهم، وجه النبي ﷺ عدد من السرايا الاستخباراتية لتنفيذ مهام خاصة، فمنها سرية على رأسها عبد الله بن جحش وهو يعتبر أول أمير في منصب

سرية استخباراتية للمهام الخاصة، حيث أعطاه رسالة وطلب منه عدم فتحها إلا بعد مسير يومين، ثم يقرأها ولا يجبر من معه على المضي للأمر الموكل، وبالفعل بعد مسير يومين فتح الرسالة والتي تعتبر بمثابة رسالة مشفرة وهي نوع جديد لم تعهده العرب ولا غيرهم من قبل، فهم أن المهمة السرية تقتضي النزول بمكان اسمه نخلة ومراقبة قوافل قريش ثم الإغارة عليها، بالفعل تم تنفيذ المهمة التي أفضت لقتل قائد القافلة عمرو بن الحضرمي واغتنام ما في القافلة بالإضافة لجلب أسيرين، ومن السرايا للمهام الخاصة كانت توجيه سرية بقيادة الحمزة عم النبي ﷺ، لاعتراض قافلة أخرى لقريش، وبدأ العمل في الحصار على مكة حيث كانت في موقع يسمى سيف البحر وكان مترأسًا القافلة أبو جهل .

كما وجه في نفس العام سرية عسكرية لاعتراض قافلة أخرى يترأسها أبو سفيان في منطقة بطن رابغ.

إن دقة المعلومات أفضت لتحديد موقع القوافل بدقة عالية، فتوجيه النبي ﷺ للسرايا لم يكن إلا بناءً على معلومات دقيقة حللها النبي ﷺ واستنتج منها ما يمكن تأكيده، وبالفعل كانت السرايا تصل للمواقع التي يوجهها النبي ﷺ وتجد الهدف.

أبو سفيان لم يكن سهلًا، بل كان حاذقًا أمنيًا يتمتع بنفس استخباراتي جيد، حيث كان في طريقه مع قافلته يسأل من معه إن كانوا رأوا غرباء، وذات مرة أخبروه برجلين مرا بهم، فأمر من أخبره بأن يأخذه للمكان الذي رأوا فيه الغريبين، ولما وصلوا بحث عن مكان قد ربط فيه الغريبين فرسهما أو جملهما، بالفعل وجد شجرة قد كان مربوطًا فيها جملين، فأمر بجمع روث الجملين، تفحص الروث فوجد فيه نوى (عجو) تمر معروف أنه ينبت في المدينة، وما إن عرفه حتى صرخ : إن هذا النوى لتمر يثرب ولا بد أن الرجلين من جواسيس محمد، ثم أمر قافلته بتغيير مسارها والجد في السير للتملص من أي كمين محتمل على القافلة .

◈ معركة بدر

كان النبي صلى الله عليه وسلم، ذو حس أمني لا مثيل له، ومن أمنه العالي، كان سريع البداهة والنباهة بأبي هو وأمي، يوم ذهب ومعه الصديق أبو بكر يتقصيا أخبار قريش قبل معركة بدر، لقيا رجلًا في الطريق فسألاه عن أخبار قريش وأين وصلت، إلا أن الرجل سألهم عن

أنفسهم ليتعرف بهم وكانت العادة أن لا يجيب المسؤول قبل معرفة السائل، فوافق النبي ﷺ لكنه اشترط أن يجيب الرجل بالبداية، فأخبرهم الرجل بما يعلم ويعتقد وأين من الممكن أن تكون وصلت فرسان قريش ولما انتهى طلب معرفته بالسائلين، فأجابه النبي ﷺ: نحن من ماء. سبحان الله ما أعظم النبي بأبي هو وأمي، أخبر الرجل بالحقيقة وفي نفس الوقت دون أن يعرف الرجل من هما، عقلية فذة وبداهة نادرة، بالفعل كلنا من ماء، حتى تركا الرجل مستغربًا يقول: ما ماء. أماء العراق؟

ومن هنا نستدل على فعل التورية عند الحاجة، وهي قول ما يحتمل تأويله على وجهين ولا يقع صاحبها بالكذب.

كما أنه قُبيل معركة بدر، أرسل النبي ﷺ سرية استطلاع استخباراتي تستكشف الموقع عند آبار الماء التي تطلبها القوافل في الصحراء، كانت السرية مؤلفة من علي بن أبي طالب وسعد بن أبي الوقاص والزبير بن العوام، وصلوا أحد الآبار فوجدا غلامين يستسقيان، فاعتقلوهما واقتادوهما لمقر النبي ﷺ، كان النبي ﷺ في مصلاه فراح الصحابة يحققون مع الغلامين، لكن شعروا أن الغلامين يمتنعون الكلام فأبرحوهما ضربًا حتى قالا أنهما مع قافلة أبو سفيان. (القافلة التي أفلتت من المسلمين بعد أن استطاع أبو سفيان اكتشاف أمر عيون النبي ﷺ وغير وجهة القافلة). تركوا الصحابة الغلامين بعد هذا الاعتراف، فيما يبدو أنهم حصلوا على المعلومات التي يريدونها!، لكن في الحقيقة غاب عنهم الكثير، فبعد أن انتهى النبي ﷺ من صلاته وسمع لأصحابه التفاصيل بتأني، أنب فعل الصحابة من تعنيف الغلامين وقال: إن صدقوكم ضربتوهم وإن كذبوكم تركتوهم!. وهذه لفتة غاية في الأهمية تشير إلى العنف بالاستجواب يأتي بنتائج سلبية مغلوطة قد تتسبب ببناء خطة على أساسٍ خاطئ، فقرر النبي ﷺ أن يسمع من الغلامين بنفسه وبطريقته العالية في الإبداع، فلم يكن سؤاله عن قافلة أبو سفيان وأي طريق سلكت، بل سأل عن معسكر قريش، فأجاباه الغلامين أنه بعد الكثبان في العدوة القصوى، ثم سألهما عن عدد المقاتلين، فقالا لا نعرف، فسألهما عن عدد الذبائح التي يذبحها المعسكر لإطعام الجيش، فأخبراه بين التسعة جمال إلى العشرة، فعلم النبي ﷺ عدد مقاتلي العدو بشكل تقريبي وذلك أن العرب في الرحلات أو السفر للمجاميع تذبح جمل لكل

نفر ما بين تسعين للمئة، ثم سأل عن من يقود الجموع، فأجاباه بأن القيادة تحت عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وأمية بن خلف والعباس بن عبد المطلب وسهيل بن عمرو، ومن خلال هذه المعلومات يكون النبي ﷺ قد استطاع معرفة أو تصور المعركة بشكل تقريبي ويعطيه فرصة كبيرة في وضع خطة محكمة، فالتفت لأصحابه وقال : هذه مكة ألقت إليكم أفلاذ أكبادها .

نلاحظ كيف حرص النبي ﷺ على إرسال سرايا الاستطلاع الاستخباراتية وكيف حلل المعلومات حينما شعر بعجز الغلامين معرفة عدد رجال قريش برغم أنهم معهم! ، فعلم النبي ﷺ البعيد عن معسكر قريش ما لم يعلمه الغلامين وذلك بذكائه وتحليله للمعلومات وهي أمر رئيسي في علم الاستخبار .

لقد صنع النبي ﷺ جهاز مخابرات متين ولم يقتصر عمله على المعارك القائمة، بل كان له عيون ورجال استخبارات في كثير من المواطن والمواضع، ففي مكة كان له عمه العباس الذي أسلم فطلب منه النبي ﷺ أن يكتم إسلامه ويكون العين له، وفي قبيلة هوزان كان له عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي، وحسيل بن نويرة كان جوالًا بين القبائل، وهكذا حرص النبي ﷺ على زرع النواميس والعيون في كل مكان قدر عليه حتى في بلاد فارس والروم لم تغب استخباراته عنهم.

◇ معركة أحد

كانت قريش متعطشة للثأر بعد بدر، وكانت قد أخذت درسًا قاسيًا أرادت بعده رد الاعتبار لنفسها ولهيبتها أمام العرب، لم تكن استعداداتهم هذه المرة مقتصرة على العسكرة وحدها بل فهمت قريش بشكل أعمق الدور الاستخباراتي، فلم يوفر رؤوس قريش وعلى رأسهم أبو سفيان إرسال العيون والجواسيس تتقصى الأخبار عن جيش المسلمين، لكن كانت استخبارات النبي ﷺ أقوى بكثير بل تطورت بشكل مبهر، وصلت رسالة سرية مستعجلة إلى النبي ﷺ فحواها ما تمكر قريش وما تنوي وماذا أعددت من قوام لمعركتها القادمة، كانت الرسالة من العباس بن عبد المطلب عم الرسول الكريم .

لمن يكن العباس العمدة الوحيدة في جهاز النبي ﷺ، بل أرسل أنس ومؤنس ابنا فضالة في مهمة استخباراتية تتلخص في اختراق معسكر قريش وجمع المعلومات وقد نجحا دون لفت أي

انتباه، كما كان للنبي ﷺ عنصر استخباراتي هام في المنطقة كذلك وهو عمرو بن سالم الخزاعي الذي نقل تقريبًا نفس المعلومات، بالمحصلة صار عند النبي ﷺ معلومات وفيرة حللها واستنتج منها ما يمكنه من وضع الخطة المناسبة، لكن احتاج مزيدًا من المعلومات المؤكدة التي تمكنه من تقاطعها مع ما توفر لديه، فأرسل الحباب بن المنذر بن الجموح وأمره أن يتأكد من المعلومات التي توفرت ثم يعود بالخبر اليقين لكن أن لا يتكلم إلا عند النبي ﷺ وحده أو من معه من القادة في الدائرة الضيقة، فكان النبي ﷺ أشد الحرص على الحالة النفسية ويبدو بحنكته فهم أن قريش تريد أن تلعب على هذا الوتر من الحرب النفسية، عاد الحباب بن منذر مؤكدًا المعلومات لكن حرص أن لا يخبر أحد غير النبي ﷺ الذي أخذ حسبه الله ثم عمل على خطة جيدة آخذًا بالأسباب الكونية، وبالفعل كانت خطة دقيقة ومحكمة لكن تخلف الرماة عن تنفيذ الأمر وتركهم للجبل قلب الموازين.

حمراء الأسد

بعد معركة أحد، جلس رؤوس قريش يقيّمون المعركة ويقررون الخطوة التالية وذلك في معسكرهم الذي مازال قريبًا من المدينة، وكانت التقديرات عندهم تشير إلى اغتنام الفرصة والهجوم على المدينة قبل أن يجمع النبي ﷺ من جديد أصحابه ويعد العدة، لكن خالفهم بعض الرؤوس وفي ظل التدارس لاستخلاص القرار، بلغ النبي ﷺ ما يدور في معسكر قريش من خلال عيونه الاستخباراتية، فأراد أن يثنيهم عن ذلك من خلال الحرب النفسية، فانطلق على رأس جيشه إلى منطقة يقال لها حمراء الأسد، وأوكل مهمة استخباراتية لمعبد الخزاعي والذي كان عنصر استخبارات عند النبي ﷺ رغم أنه يومها لم يكن قد أسلم بعد، معبد من قبيلة كبيرة تحكم معظم الأراضي الواقعة بين مكة والمدينة وتواجده قرب معسكر قريش لن يثير الشكوك وتحديدًا أنه لم يكن مسلمًا، كانت مهمته أن يتوجه ويدخل معسكر قريش ويبث فيهم الإرجاف من خلال الحرب النفسية، وبالفعل وصل إلى معسكر قريش والتقى أبو سفيان فأبلغه أن محمدًا قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم يرى مثله قط، وأنه رأى خروج من تخلف في السابقة، والقوم في حنق شديد عليكم، فرد أبو سفيان بنبرة المنتصر في الأولى وتوعد بالقضاء على من تبقى، فعاود معبد التحذير مركزًا على أنه في أي لحظة يصلكم جيش

المسلمين ولن يكون لديكم الوقت الكافي لنشر القوات أو إعداد خطة مناسبة، ومازال كذلك حتى صار واضحًا في عيون جيش قريش التردد حتى اختاروا الرجوع لمكة بعد أن نجحت الحرب النفسية وتمكنت منهم .

قد طبق النبي ﷺ خطة: خير وسيلة للدفاع الهجوم، لكن بشكل نفسي، قد نجحت خطته عليه الصلاة والسلام.

◈ معركة الخندق

ومن قوة المخابرات الإسلامية التي أسسها خير البشر، أنه حينما اجتمعت الأحزاب وقررت غزو المدينة، استطاعت العيون ورجال الاستخبارات الإسلامية معرفة عدد القوات وموعد خروجهم واستطاعت العيون إيصال الخبر للنبي ﷺ بأسرع وقت مما منح النبي ﷺ ومعه المسلمين الوقت المناسب لبناء خطة دفاعية تجلت بحفر الخندق، بل حتى الجهاز الاستخباراتي لم يقتصر دوره على تقصي وكشف ومعرفة نوايا العدو، بل عمل بشكل متناغم مع الجهاز الأمني الإسلامي ليمنع جواسيس العدو من معرفة الخطة الدفاعية وكشفها قبل تمامها، رغم أن حفر الخندق استغرق أقل من شهر وبشكل شبه محدد عشرين يومًا، وهو وقت كافي من المفترض لعيون وجواسيس العدو أن يرصدوا مثل هذا الأمر، لكن واضح بلا أي لحظة تفكير أن النبي ﷺ حينها كان جهازه الاستخباراتي والأمني الأقوى على الإطلاق والمتطور بشكل مبهر، ذلك جعل الأحزاب حينما تصل المدينة وترى الخندق المحفور حولها، قالوا بدهشة : "والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها" . أي خطة لم تعرفها العرب من قبل، وهي بالفعل كذلك فقد كانت مقترح الصحابي سلمان الفارسي الذي كان قومه قبل إسلامهم يستخدمونها.

ولم تكن تقتصر مهمة رجال الاستخبارات الإسلامية فقط على معرفة نوايا وأسرار العدو، بل حتى حرص النبي ﷺ على معرفة أسرار المنافقين في المدينة، فكلف حذيفة بن اليمان بمراقبة تحركاتهم وأقوالهم وأفعالهم بعدما أخبره وحده عن أسماء المنافقين ولم يخبر سواه، وحذيفة نفسه الذي كان رجل الاستخبارات الذي استطاع أن يتسلل بعد خطة نعيم بن مسعود، إلى جيش الأحزاب ونقل للنبي ﷺ أخبار ضعضعتهم وحالتهم النفسية المنهزمة.

نعيم بن مسعود، وقصته من أجمل القصص في مهام رجل المخابرات، فلقد جاء للنبي ﷺ من غطفان وقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وقومي لا يعلمون أمري، فمرني بما تشاء. تنبيه لموضوع عدم معرفة قومه بإسلامه ثم طلب من النبي ﷺ الأمر بما يفعل، ليس مجرد سرد طبيعي بل ينم عن عقلية استخباراتية واعية وسيتضح ذلك من خلال تنفيذه لِمَّ أمره به النبي ﷺ، وكان الأمر أن يعود لقومه والأحزاب المجتمعة حول المدينة المحاصرة للمسلمين، ثم يُخذل عنهم.

ذهب نعيم بن مسعود إلى بني قريظة (كانت قد نكثت العهد والاتفاق مع المسلمين) فلما رأوه أكرموه وهم يعرفونه من قبل، فقال لهم: تعرفون ودي لكم وإني محدثكم حديثًا فاكتموه، قد رأيتم ما وقع لبني قينقاع والنضير وقد ظاهرتهم قريش وغطفان وهم ليسوا مثلكم، فالبلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون أن تتحولوا منه لغيره، وأما بلادهم وأموالهم ونساؤهم فبعيدة، فإن أصابوا فرصة انتهزوها وإلا لحقوا ببلادهم وتركوكم لمحمد ينتقم منكم.

ومعنى الكلام أنه أراد زرع الشك بين تحالف الأحزاب، ونلاحظ أنه قال (محمد) ولم يقل نبي الله ولا رسول الله رغم أن الصحابة لا ينادون النبي ﷺ باسمه، لكن كان نعيم متنبهًا لهذه الجزئية وقال محمد حتى لا يثير الشكوك حوله وأنه قد أسلم.

بعدما قال ما قاله لهم، صعقوا وقالوا: فما العمل؟ يسألون نعيمًا نفسه! وهذا دليل أنه لم يستطع فقط إقناعهم بل استطاع كسب ثقتهم.

فقال لهم: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن.

ويقصد أي شيء يلزمهم بالبقاء معكم وتحمل نفس المصير لو انتصر المسلمين.

ثم ذهب نعيم إلى معسكر قريش واجتمع برؤسائها وقال لهم: تعلمون ودي لكم ونصحي إليكم، فإني محدثكم حديثًا فاكتموه عني، إن اليهود (بني قريظة) قد ندموا على نقضهم عهد محمد وخافوا أن ترجعوا وتتركوهم له، فلقد راسلوه وتعهدوا أن يأخذوا منكم رهائن، فانظروا ماذا تفعلون.

ثم ذهب نعيم إلى معسكر غطفان وقال ما قاله لقريش، فثار القوم بينهم وغضبوا وتخبطوا، وأدرك نعيم أن خطته تسير بالشكل المطلوب وكما رسمها بناءً على معرفته السابقة بكل عشيرة وحزب.

فسألوا نعيم عن ما ينصحهم به، فقال أرسلوا لهم أن المعركة غدًا دون تأخير وبذلك تقطعوا عليهم الطريق.

كبر الشك بين حلف العدو واستخلصوا الحل، فأرسل أبو سفيان وفدًا إلى يهود بني قريظة يخبرهم أن المعركة ضد المسلمين ستكون غدًا، فليتجهزوا لها. فأرسلت قريظة الرد: غدًا هو السبت، ولم يصبنا ما أصابنا إلا من التعدي في مثل هذا اليوم، ثم إنا لا نقاتل معكم حتى تعطونا رهائن منكم كي لا تتركونا وتذهبوا. يقصدون تعديهم في يوم السبت ما جاء من ذكر ذلك في التوراة القديمة وقد جاء القرآن يخبرنا عنها وعن خبث اليهود، وطلبهم للرهائن كما أشار عليهم نعيم.

ولما وصل جوابهم لقريش وغطفان، قالوا لقد صدقكم نعيم بما نقله يا قوم عن نية قريظة بالغدر، ثم أرسلوا لقريظة: لن نعطيكم رهائن وستخرجون غدًا للقتال معنا.

وصل رد قريش وغطفان لبني قريظة برفض إعطاء الرهائن، فقالوا: لقد صدقكم نعيم يا قوم، فقريش وغطفان تفكر بتركنا لمصيرنا مع انتقام محمد.

فعل نعيم بن مسعود كان أحد أهم الأسباب بهزيمة الأحزاب بتوفيق من الله قبل أن يرسل الجبار الريح تؤرقهم وتعصف تارة بهم.

حرص النبي ﷺ على إرسال العيون في كل موضع حتى لا يؤخَذ على حين غفلة، وليضع الخطط الدفاعية أو الهجومية المناسبة، بل كان أشد الحرص على الاعتناء بالاستخبارات ورجالها واختيار الرجال المناسبين لكل مهمة، فقد تنوعت الأعمال وتنوع معها إرسال الرجال فتارة يستخدم للمهمة علي بن أبي طالب وتارة الحذيفة بن اليمان وتارة عبد الله بن أنيس وتارة عمه العباس وتارة عبد الله بن أبي حدرد وتارة جبيلة بن عامر البلوي وهكذا.

يقول الصحابي غالب الكناني الليثي: "بعثني النبي ﷺ عام الفتح بين يديه لأُسهل له الطريق ولأكون له عينًا".

وكان النبي ﷺ من حرصه يدعو فيقول: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها.

وكان شديد الحرص بتذكير قادة السرايا والكتائب بأمور الاستخبارات، ذكر ابن سعد في الطبقات الكبرى أن النبي ﷺ أوصى أسامة بن زيد حينما أرسله لغزو الروم وقال له: وأسرع السير تسبق الأخبار، فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم، وخذ معك الأدلاء وقدم العيون والطلائع أمامك.

أما بما يخص اليهود الذين كان من المفترض أن بينهم وبين النبي ﷺ عهد وميثاق بالحياد الإيجابي من جانب المدينة وأحد مداخلها، فكانوا كعادتهم ناكثي عهد غادرين، لكن كان للنبي ﷺ داخل يهود بني قريظة عيون نقلت وسربت له ما يحيكه اليهود من خيانة وغدر مع اشتداد معركة الخندق، كما أوصلوا له التحذير من خطة يحيكها حي بن أخطب تتلخص بمهاجمة قلب المدينة على حين غفلة من المسلمين، كما سربت الاستخبارات للنبي ﷺ حقيقة دعوة اليهود من بني النضير للنبي من أجل زيارتهم وكيف أنهم يكيدون لقتله من خلال الزيارة، لقد كان من الملاحظ أن النشاط الاستخباراتي متضاعف في معركة الخندق وقبيلها، أما بعدها فلقد صار واضحًا الاهتمام الكبير بجهاز المخابرات وتوسعته وتطويره.

◇ معركة خيبر

قُبيل هجوم جيش المسلمين على يهود خيبر، أرسل النبي ﷺ أحد رجال جهازه الاستخباراتي ليخترق مدينة خيبر سرًا ثم ينظر ويجمع البيانات وحال العدو ومدى استعداداتهم وتحصيناتهم، كان للمهمة الصاحبي عباد بن بشر الأشهلي على رأس سرية استطلاع استخباراتية.

أثناء المهمة للسرية، صادف عباد أعرابيًا خارج حصون خيبر ادعى أنه راعي إبل يبحث عن بعض الجمال التي تاهت منه!، فسألوه عن أخبار وأحوال أهل خيبر، فأجابهم أن معلوماته قليلة شحيحة لكنه سمع أن قائدان من اليهود سافرا بعيدًا يجمعان الرجال من القبائل لقتال المسلمين، وأنهم قبلها اتفقوا مع حلفائهم في غطفان على أن تمدهم الأخيرة بالرجال مقابل مؤنة سنة من تمر خيبر، وقد فعلت غطفان فأرسلت عشرة آلاف مقاتل مع سلاحهم

وطعامهم، وأنهم جاهزون -أي مقاتلي غطفان وخيبر- على صد هجوم المسلمين أو عدم التضرر من أي حصار يقع لوفرة المؤنة .

أدرك عباد بن بشر أن هذا الأعرابي مخادع وكأنه يريد أن يمرر معلومات مضللة أو يكتم معلومات مهمة، ومباشرة رفع عباد السوط وضربه أكثر من مرة ضربًا غير مبرح، ثم قال له بعين الحاذق الفطن: ما أنت إلا عين لهم، فاصدقني وإلا ضربت عنقك الآن.

شعر الرجل بأن خدعته لم تنطلي على عباد وأنها مكشوفة له، فطلب الأمان على أن يخبره بالصدق والحقيقة، ولما أخذ الأمان قال: القوم -أي خيبر-مرعوبون منكم خائفون وجلون لم قد صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود، ولقد أرسلني فلان لأعترض الطريق وأنظر الأخبار، فإن وجدت أحد من المسلمين دنوت منه كالسائل، ثم أخبرهم عن قوة العدد والعدة عند خيبر حتى يثنيهم الأمر عن الهجوم.

لقد خلط الرجل بين معلومات صحيحة وهي المعاهدة بين غطفان وخيبر، بكلام مبالغ فيه، ربما لأنه أراد كسب المصداقية حينما يذكر الاتفاق الذي من الطبيعي أن يصل المسلمين لمعرفته، ثم يدس الرسائل المضللة والتي تهدف لبث العجز النفسي أو إحجام المسلمين عن المعركة، لكن ذكاء الصحابي عباد ويبدو خبرته مكنته من كشف الخدعة، وبذلك جنب المسلمين شرًا عظيمًا كان من الممكن أن يقع بناءً على معلومات مضللة.

◈ معركة حنين

كانت من أهم وأعظم المعارك بل كانت مفصلية في كثير من الجوانب، وأهمها ما كان يهدد خطر وجود المسلمين والدين كدعوة، فلقد عمد مالك بن عوف زعيم هوازن لإعداد العدة لاستئصال المسلمين وذلك قبل أن يسلم، فجمع نحو عشرين ألف وناصرته ثقيف والتحقت به مجاميع من قبائل العرب، كان مالك بن عوف فيما يبدو قائدًا فذًا، فلقد رافق جمعه للجيش وتجهيزه أن أرسل جواسيسه تتقصى أدق التفاصيل عن أخبار جيش المسلمين، ولما وصلته المعلومات عن قوتهم لم يثق بتلك المعلومات وأرسل عينًا أخرى، لكنها جاءته بما بلغه في الأولى، ومع ذلك أصر السير للمعركة معتمدًا حنكته العسكرية في التمويه والخداع وإعداد الكمائن، فوصل قبل جيش المسلمين بوقت مناسب مكنه من السيطرة على المواقع

الاستراتيجية التي جعل فيها التمويه وزرع الكمائن في مقدمة وادي حنين، يبدو أن جيش المسلمين قصر في نقل الأخبار الاستطلاعية للنبي ﷺ وكان ذلك واضحًا من خلال وقوع مقدمة جيش المسلمين من الفرسان تحت ضربات الكمائن، فر مقدمة الجيش لكنهم اصطدموا بمؤخرة الجيش المتدفقة للوادي وهكذا حصل اضطرابٌ شديد قبل أن يتدخل القائد العظيم محمد ﷺ وينحاز إلى ثغرة عند تلة في الوادي ويجمع الجيش حوله مجددًا، ويبدو أن مالكًا فاتته الثغرة وإلا لكان أعد لها كمينًا، انتصر المسلمين مع درس في أهمية تدفق المعلومات الاستطلاعية وعدم إهمالها حتى اللحظات الأخيرة من العمل، وإلى الجانب الأول والأهم وهو الذي ذكره تبارك وتعالى عن الإعجاب بالنفس وكثرة العدد .

◈ مسجد الضرار

لم تكن مهام الدولة الإسلامية مقتصرة فقط على تطوير رجال الاستخبارات وطرق جمع المعلومات في أرض العدو أو عبر سرايا الاستطلاع الاستخباراتي في المواقع الهامة، بل شملت وجود ما يعرف اليوم بمصطلح "مكافحة التجسس"، فلم يقتصر الأمر عند قريش وأحلافها وكم أحبط المسلمين من خططهم التجسسية، بل طالت مكافحتهم لأذرع طويلة تقف خلفها إمبراطوريات كحال الإمبراطورية البيزنطية والتي أرادت أن يكون لها جواسيس داخل المدينة النبوية، أوكلوا المهمة للقسيس أبو عامر الخزرجي وتم وضع خطة لبناء مسجد قريب من مسجد قباء، حتى يكون المسجد محطة مراقبة لأصحاب النبي ﷺ ومركز للجواسيس، ثم طلب أبو عامر الخزرجي من أتباعه المنافقين أن يطلبوا من النبي ﷺ أن يفتتح المسجد حتى يأخذوا منه المصداقية والتزكية للمسجد، لكن النبي ﷺ كان أعظم من أن يخدعه هؤلاء فطلب التريث لوقت آخر، سرعان ما كشف مخططهم وأمر بهدم المسجد الذي بني لغاية خطيرة وفي ذلك قال تعالى : وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .|التوبة|.

إذًا، كان مخطط بيزنطة التفريق بين المسلمين كهدف اجتماعي، ثم يكون الموقع وكر رصد وتجسس على كبار الصحابة ومن خلال ذلك يستطيع العدو وضع خطط لهدم البيت الداخلي

للمســلمين، لكن مخططهم فشــل في مهده بعناية من الله تعالى، حيث أظهر للناس مخطط هؤلاء وفضح نواياهم.

◈ الحرب النفسية

لقد اعتنى النبي ﷺ ضـمن خططه الاســتخباراتية على الحرب النفسـية، فعن البراء بن عازب قال: سمعت رسول الله يقول لحسان بن ثابت: اهجهم، أو هاجهم وجبريلٌ معك. كما ورد أيضًا في صحيح مسلم، عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله قال: اهجو قريشًا فإنه أشد عليها من رشق النَّبل.

وهذا ما يجعلنا نقف مطولًا عند حقيقة الحرب النفســية ومدى تأثيرها على النفس البشــرية بشكل عام، بل ما فعله نعيم بن مسـعود يوم الخندق كان ضـمن الخطط في الحرب النفسـية ويندرج تحتها بالمقام الأول وكان لها تأثيرًا عظيمًا، كذلك ما كان يفعله النبي ﷺ من بث الأخبار المضللة للعدو عسكريًا حتى يباغتهم ويحقق نجاح الحرب النفسية عليهم وعند أحلافهم ممن ينتظر نتائج المعركة، كما نلاحظ أن الأمر أخذ عناية كبيرة في عصـرنا الحالي من طرف الأعداء، فسخروا للحرب النفسـية كل السـبل والأسـباب التي تفضـي لتدمير الروح الداخلية لدى أبناء الأمة وللأســف نجحوا لحد بعيد في تحقيق أهدافهم لكن الله ســخر لهذه الأمة رجالها الذين تصـدروا كطليعة فدائية تحفظ الأمة ليس في المواجهات العسـكرية فقط، بل حتى في الحروب الفكرية وكل ما يتعلق بمكر الأعداء وكيدهم وبفضــل الله تعالى حتى اليوم وبرغم ضــعف كل الإمكانيات وفقدان السيطرة على أدوات الحرب النفسية وعلى رأسها مواقع التواصل، إلا أننا ما زلنا نحبط كثيرًا من خبث العدو ونحطم مشاريعه التدميرية النفسية .

◈ يعقوب عليه السلام

كذلك في هذه القصة التي يرويها لنا ربنا تبارك وتعالى في سورة يوسف عليه السلام، كان هناك معاني تدل على العمل الاستخباراتي وفيما يبدو صفة النبي يعقوب عليه السلام تحليه بالحس الاستخباراتي والأمني.

فبعد أن رجع إليه أولاده من مصــر وقد ردت إليهم بضــاعتهم وأُخذ منهم أخوهم بنيامين (علمًا أن اسـم بنيامين لم يرد في مصـادر المسـلمين) دون أن يتعرفوا ليوسـف، أمرهم أبوهم يعقوب

بالعودة لمصـر والتحسـس من أخوهم ناصـحًا لهم بأن يدخلوا الأبواب متفرقين، وقد جاءت بعض التفاسير حول سبب ذلك هو خشيته من حسد الناس لأولاده الكثر، لكن قد يكون الأمر له أبعادًا أخرى لو نظرنا للأمر من الناحية الاستخباراتية في تقصي المعلومات، فدخولهم من أبواب متعددة يعطيهم ميزة الانتشار الأوسع لرقعة الأرض مما يجعل فرصة جمع المعلومات أكبر وأوفر، كما أن هذا الفعل قد يمنع عنهم الشبهات ولفت الأنظار على أنهم وفد تجسسي جاء ليقيم فترة قصيرة يستقي المعلومات والأخبار والله أعلم .

قال تعالى في كتابه العزيز:﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾. |يوسف|.

كما نلاحظ وصيته الهامة حول عدم اليأس في إتمام المهمة مقرنًا اليأس من الله أنه عمل الكافرين، وفيها إشارة واضحة فيما يعرف اليوم بالمثابرة في العمل الاستخباراتي وعدم اليأس من امتناع الوصول للمعلومات التي يطلبها الباحث، وأن المثابرة عمل أساسي وهذا ما ذكرناه وأكدنا عليه.

إخوة يوسف عليه السلام فيما يبدو أنهم شعروا بعزيز مصر قد يكون أخوهم الذي بعثهم أبوهم للتحسس منه والله أعلم، لكن يظهر أنهم كتموا شكوكهم لعدم استكمال المعلومات المؤكدة وهنا لفتة هامة إلى أن يوسف عليه السلام كان لديه من الحس الأمني ما يؤهله لإرباك إخوته، فالقصة ليست مضي زمن تغيرت فيه شيء من الملامح، فلو كان ذلك وحده لسهل على الإخوة معرفته بعلامات مميزة بين الإخوة أو حتى بملامح لا تغيب، شكوكهم تحولت لتأكيد جعلتهم يفصحون عن ما وصلوا له من معلومات حينما ذكر عزيز مصر ما فعلوه بأخوهم يوسف، فقالوا أنت يوسف إذًا .

قال تعالى في كتابه:﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ، قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَٰذَا أَخِي ۖ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا ۖ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾.|يوسف|.

وقد يكون تلك الشــكوك بدأت عندهم أو عند أباهم حينما أخبروه بالحوار الذي دار مع الملك والذي رواه لنا ربنا:﴿ قَالُوا إِن يَسْـرِقْ فَقَدْ سَـرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَـرَّهَا يُوسُـفُ فِي نَفْسِـهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾. |يوسف|.

(أنتم شـرٌ مكانًا والله أعلم بما تصـفون) قالها لهم رغم أن الصـاع اسـتخرجه من وعاء أخوهم الأصـغر! ولم يوجه لهم تهمة السـرقة، قد يكون الأمر بدا لهم مبهمًا وثمة لغز خلفه لم يفهموه، فهمه يعقوب عليه السـلام لكن أراد التأكد، ولذا أرسـل أولاده مجددًا لكن هذه المرة ليس لأجل البضاعة ونحوها، بل ليتحسسوا يوسف وأخوه والله أعلم.

سليمان عليه السلام

لا أريد الاسـتفاضة بهذه القصـة العظيمة التي وردت في سـورة النمل، فكل خطوة فيها تدل على حس أمني ومهارة اسـتخباراتية عالية، وعدم الاسـتفاضة أنه تكاد لا تجد كتابًا في هذا المجال إلا وذكرها بشـكل رائع والحمد لله صارت من القصـص الاسـتخباراتية التي تروى حتى في المجالس، لكن لا يمكننا المرور دون تسـليط الضـوء بشـكل مختصـر على جوانبها والحديث عن بعض الجوانب الصغيرة التي لا أعتقد سبق وانتبه لها أحد والله أعلم.

تغيب الهدهد عن الاجتماع عند الملك سـليمان عليه السـلام، فلاحظ الملك تغيبه، قال تعالى:﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾.

وهذا بحد ذاته أمر ينم عن عقلية فريدة فذة أن يلاحظ القائد تغيب جندي أو فرد عنه برغم العدد الكبير الموجود، لكن هذا ما تكلمنا عنه وركزنا عليه في باب الاستخبارات (قوة الملاحظة).

توعد الملك ذاك المتغيب بالعقوبة، إلا أن يكون تغيبه لخبر مهم، فقال تعالى يخبرنا عن قول سليمان:﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾

وهذا يدل أن الملك أصلًا كان يعتبر الهدهد جندي استخبار مهمته الرصد والمراقبة وهذه لفتة هامة لا أذكر أن أحد تبناها.

عاد الهدهد بعد وقت قصـير فرجل الاسـتخبارات يجب أن يميز متى يجب أن يكون بطيئًا ومتى عليه السـرعة في مهامه، قال تعالى يخبرنا عن كلام الهدهد:﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾.

مما يؤكد أن الهدهد كانت وظيفته استخباراتية في مملكة سليمان، قوله (بنبأ يقين) أي جاء بالخبر الذي لا يقبل الشك ولا الخطأ، وهذا يدل على أن الهدهد مدركٌ تمامًا لعمله ووظيفته ويفرق بين الأخبار ويعرف كيف يمكنه التأكد منها، ولذلك هو دقيق بإخبار سيده بالمعلومة الصحيحة والدقيقة دون الاضطرار لتبرير غيابه بمزيد من الكلام الذي يضمن من خلاله عدم العقوبة أو التوبيخ، وهذا أمر مهم يجب أن لا يقع به رجل الاستخبار مهما كان تقصيره، كما نلاحظ اللغة المنتقاة حيث قال له "نبأ" أي هو خبر ساري وليس خبرًا ماضيًا.

يخبرنا تعالى عن الهدهد: إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ. إذًا بدأ الهدهد بالمعلومة العامة، وليثبت أنه دقيق أكد على العرش العظيم، الآن هذا لا يهم الملك بشيء لكنه كافٍ لجذب انتباهه، وكأنها مقدمة من الهدهد تطلب من الملك الاستعداد للخبر الذي يهمه بعد أن أكد له أنه بالفعل جاء بخبر دقيق وبعد رصد ومراقبة، فقال :﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ، أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ، اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

إذًا؛ الخبر أن هناك من لا يؤمن بالله تعالى وهذا الخبر المهم للملك سليمان عليه السلام، لكن أضحك خشوعًا من كلام الهدهد كيف استطرد قوله في إظهار غيرته على دين الله محاولًا تأكيد إيمانه بالله وتجديده، وربما أراد مع ذلك أن يمتص غضب الملك بسبب تغيبه، وربما أراد بهذه الطريقة الاعتذار للملك عن سبب اجتهاده في العمل، فواضح أن الهدهد اجتهد من نفسه ولم تكن مهمة تكلف بها من الملك وإلا لما غضب الملك مستفسرًا عن تغيب الهدهد.

برغم كل التأكيدات والتفاصيل التي قدمها الهدهد حول مملكة سبأ في شبه الجزيرة العربية من نظام الحكم والحالة الاجتماعية، إلا أن قائد الجهاز كان جوابه:﴿ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾.

فالقضية تحتاج مزيدًا من الدقة والمعلومات والدراسة وهذا وحده نراه في العمل الاستخباراتي دون سواه، أي يكون بشكل مضاعف حيث لا مجال للخطأ فالخطأ قد يتسبب بكارثة لا يمكن إصلاحها، ولكن هذا لم نلاحظه في قصة موسى عليه السلام!، فالأم لم تطلب من الأخت

التأكيدات والسبب قد بيناه حول دور المستخبر وصلته بالمهمة، وكذلك تأتي المهام الاستخباراتية ومدى تصديقها بحسب الرابط بين المكلف وبين القضية نفسها.

تم وضع الخطة من قِبل الملك وتوزعت المهام.﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾.

مهمة إلقاء الرسالة ليست بالأمر السهل، هي تحتاج معرفة من الهدهد بالوقت المناسب ومعرفة بأروقة قصر الملكة والقاعات واختيار أنسب مكان يلقي فيه الرسالة ويستطيع المراقبة الواضحة لمعرفة ردة الفعل وما الذي سيحصل حين تقرأ الكتاب على الملأ عندها، وبالفعل نفذ المهمة بكل دقة وحرفية.

◇ أصحاب الكهف

لو راجعنا قصة أصحاب الكهف التي نقرأها بكثرة ونمر عليها بدون النظر فيها كعمل أمني استخباراتي، لو راجعناها سنجد من الإتقان ما لا يمكن إنكاره، يقول تعالى مخبرنا عن قصتهم:﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾. [الكهف].

نلاحظ أنهم وبرغم عدم معرفتهم للمدة التي قضوها في الكهف نيام، إلا أنهم كانوا حذرين جدًا من اكتشاف مكانهم، فاختاروا رجلًا واحدًا من بينهم هو وحده المعني بالخروج والمخاطرة ليكون كرجل الإمداد يأتي بالطعام والماء ويتقصى الأخبار، وكانت النصيحة له أن يتلطف في المعاملة حتى لا يلفت الانتباه، وكان يكفيهم لولا الحس الأمني أن يبعثوه دون توجيه مثل هذه النصيحة دون غيرها لعلمهم بأهل مدينتهم وطبائعها وكيف تثار شكوكها وهذا ما ركزنا عليه في حديثنا عن المجتمع والاستخبارات، أما عن قولهم (ورقكم هذه) فأعتقد أن أهل مدينتهم كانت تتعامل بأكثر من طريقة في عمليات البيع والشراء، ولكن هذا الورق خاص بأهل المدينة وغير تلك الطريقة يكون مشهورًا عن الغرباء، فأرادوا للمرسل أن لا يلفت أي انتباهٍ مهما كان صغيرًا، ويظهر وكأنه طبيعي جدًا والله أعلم .

أم موسى عليهما السلام

وكذلك في قصـة موسـى عليه السـلام وكيف ألقته أمه في اليم، كانت القصـة مثالًا في العمل الاستخباراتي، ولم تكن مجرد قصة وردت دون معنىً ودلالة معاذ الله، يخبرنا الله تعالى عن تلك الليلة:﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِۖفَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾. |القصص|.

جاءها الوحي بأن تلقيه في البحر، هذا الفعل الثقيل على قلب الأم لم يجعلها تغفل عن إحكام الصندوق وأن تحرص كل الحرص أن لا يتسرب له الماء فلم تصنعه بشكل غير مدروس وتسلم أمرها بدون الأخذ بالأسباب، ومع ذلك هذا الأمر يسبب صدمة عنيفة للأم ويجعل قلبها غاية في الاحتراق، لكن الله صبرها وهدأ من روعها فقال:﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًاۖإِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

بعد أن ربط الله على قلبها وتوازنت من أثر انفطار القلب على ولدها، جاء الدور الأبرز لها ليس كأم فقط، بل كإنسـانة تريد معرفة مصـير ذلك الطفل، فكانت غاية في الدقة أن لا تدفعها العاطفة للمخاطرة أو العمل بدون دراسـة اسـتخباراتية عميقة، فقررت تقصـي ذاك الطفل أين حل، يخبرنا الله تعالى عن أول إجراء لها بعد أن رمت الصـندوق في البحر فقال:﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِۖفَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

أرسـلت ابنتها التي هي أخت موسـى لتقصـي خبره، أي لتأتي بالخبر اليقين عنه وعن مكانه والوضع العام، لكن قبل أن نتكلم عن الأخت المتقنة كذلك للعمل الاستخباراتي يلفت انتباهي أمر، لماذا أرسلت أخته ولم ترسل أي شخص آخر!، لماذا لم تذهب الأم نفسها لتتبع الصندوق؟ أعتقد والله أعلم الأمر كان محسـوبًا بدقة عالية، ويعود السـبب والله أعلم إلى عدة أسـباب أهمها أن الأخت لديها العاطفة الكافية لتتقصى الأخبار بشـكل دقيق وسـريع وفي نفس الوقت عاطفتها أقل من عاطفة والدتها وأكبر من أي عاطفة من غيرها تجاه أخوها، فربما لو تقصـت الأم الأخبار فقد تسـبق عاطفتها عقلها فتقع في تهلكة لنفسـها وولدها ويفتضـح الأمر، ولو أرسلت أي شخص آخر غير صلة الدم (الأخت) لربما لم يكن ليهتم بالتفاصيل الدقيقة ويمتلك من اللهفة الشـيء المناسـب تجاه قضـية إعادة الطفل، أو ربما الخوف قد يمنع اسـتكمال

المراقبة، لكن الأخت فيها من الصفات المناسبة الكاملة لتلك العملية علاوة على ذلك أن الطفل أينما كان فإنه سيكون بأيدي النساء لا الرجال، فالأنثى يمكنها الوصول لمكان النساء والاطلاع على مجالس الرجال دون أي مشكلة، أما الرجال فصعب عليهم مراقبة مخادع النساء أو المراقبة وهذا الأمر كان في حسبان أم موسى، ولذلك نرى قوله تعالى : فبصرت به عن جنبٍ وهم لا يشعرون . وورد في تفسير جنبٍ أي أنها جعلت تتبع الصندوق بعين وبعينها الأخرى تراقب الناس حتى لا يشعروا بها وبأنها تراقب الصندوق، كذلك أن الأخت هي أقرب الناس للأم والأخ ومن المناسب أن تكون بيت السر.

الآن وقد رأت الأخت أين استقر الطفل، تابعت المراقبة بحذر وهي تحاول إيجاد أي طريقة واقعية منطقية للتدخل وضمان معرفة أين الطفل سيستقر، ولم تكن تعلم لا هي ولا أمها أن الله سيمنع عنه المراضع، فقد كانت الأم مؤمنة بوعد الله لكن لا تعرف كيف سيحصل الأمر، هذا الأمر دعا الأخت للترقب والتربص لأي معلومة وأي فرصة يمكنها التدخل، وبعد أن حاول القوم إرضاع الطفل وامتنع، وجدت الأخت اللحظة المناسبة فقالت كما أخبرنا تعالى :﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾.

قالت الأمر في سياق النأي بالنفس وتقديم النصح الغير ملح وهذا جيد حتى لا تثير الشكوك، فكان السياق أنها فقط وسيط يريد تقديم الخدمة لهم وهم متلهفون حائرون بأمرهم، وبالفعل على فورهم ظهر أنهم استجابوا لها واهتموا بكلامها بعد يأسهم من الحلول المتوفرة بين أيديهم، وحتى لما جاؤوا بأم موسى لترضعه ولك أن تتخيل لقاء الأم بابنها بعد انفطار قلبها، لكن حرصت كل الحرص أن تضبط نفسها أمام أعدائها وأعداء ولدها، وضبط النفس ليس مجرد كلمة، لكنها استطاعت ذلك حين أدركت ودرست بعقلها مآل أي خطأ تقترفه فكانت واعية لكل خطوة وقد نجحت بتوفيق الله .

◈ موسى عليه السلام

حتى لما كبر موسى عليه السلام وجرت معه كثير من الأحداث، أتقن العمل الاستخباراتي كسبيل للحماية من فرعون وجنوده ومناصريه، فيخبرنا الله تعالى:﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾. وذلك بعد أن جرت المفاصلة بينه وبين فرعون واضطر للهرب من بطشهم،

عاد للمدينة لكن اختار دخولها وقتًا يكون الناس فيه مشغولين أو غائبين، وقيل أنه دخلها وقت الظهيرة والناس في بيوتها والأسواق فارغة في توقيت حر الشمس، ولم يكن دخوله بشكل غير مدروس، بل جعل استخباراته تتقصى له الأخبار من داخل قصر فرعون، وبالفعل جاءه الخبر من أحد المتعاونين فيقول تعالى عن ذلك اليوم: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾.

وفي سورة القصص نفسها ذكر الله تعالى لنا قصة مؤمن يكتم إيمانه فقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾.

نلاحظ أمرًا مهمًا في فن العمل الاستخباراتي، ليس الكتمان وحده والقدرة عليه إنما أمرٌ أخطر وأعظم، ألا وهو بث الشك في نفوس العدو بدون إظهار التحيز، فلقد خلق عندهم حالة من الشك والتردد وزعزع حالة التآمر التي يتفق القوم عليها تحت إمرة فرعون، ولما شعر أن بعضهم دخل في حالة التردد أتبع كلامه مباشرة مذكرًا إياهم بما حل بالأقوام من قبلهم حين عصوا الله وحاربوا أنبياءه، نجح بعمله حتى نال من فرعون نفسه الذي بدأ يتخبط وبدا عاجزًا عن الرد، ولقد تجلت صورة الأمر كما أخبرنا الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾.

شعر العبد المؤمن بأن كلماته أصابت في قلوب القوم حتى نالت من فرعون نفسه الذي بدأ يشعر أن الأمور تتفلت زمامها منه بعد أن كان يسيطر بشكل كامل، أراد العبد المؤمن أن يستكمل عمله بطريقة لم تعد ممكنة فيها الكتمان الكامل، فالكتمان له مراحل وأشكال ولقد جاءت فرصة قد لا تتكرر، فأتبع قوله كما أخبرنا الله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ، يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾.

وهنا كان قد أنهى عملية الكتمان في توقيتها المناسب بعد القدرة على التسبب بصدمة فكرية للقوم جعلتهم يكونوا بموقف ضعيف ومتردد، وتحديدًا أن فرعون بدا متخبطًا لا يملك شيئًا

يرد به سوى الاستهزاء، إشهار المؤمن لأمره ودعوته جعل القوم يكيدوا له فيما بعد لكن الله تعالى نجاه مما حاكوا له، ومن الملاحظ أن فرعون لم يقتله أو يأمر بسجنه في نفس الجلسة تلك وهذا قد يكون لأن الرجل المؤمن خلفه عشيرة ونفوذ، والأقرب للواقعية أن فرعون شعر بأثر كلمات العبد المؤمن في نفوس الملأ فخشي قتله أو سجنه فيظهر ضعيف الحجة والناس تتناقل خبره فينتشر بصورة أكبر، وفرعون ليس بغبي إنما دلت الدلائل أنه ذكي لكن استغل ذكاءه بالكفر ولنفسه.

باب

الأمـــــــن

الأمن

◇ تعريف

الأمن عكس الخوف، هو حالة الطمأنينة والشعور بالأمان ودفع الخوف من خلال اتخاذ مجموعة تدابير وقائية أو علاجية.

◇ مفهوم الأمن

توفير الأمن على صعيد الفرد والمجتمع وبأنواعه المعروفة من الأمن الأمني والعسكري والفكري والاقتصادي ..إلخ، بتحقيق الأمن العام تكون الدولة في حالة تحصين داخلي معنوي ومادي، مما يجعل الأمر له انعكاسات إيجابية نحو البناء والتطور على مستوى الأفراد المنتجة والعاملة

.

وجاءت نصوص كثيرة في الشريعة الإسلامية حول الأمن وتحقيقه، قال تعالى:﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ﴾|الأنفال|. وقال تعالى:﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ﴾. |آل عمران|.

والأمنة قرينة الأمن لكنها تختص في حالة الخطر القائم كحالة المواجهة بين جيشين أو فئتين.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى أهمية الأمن من خلال جعل نقيضه "الخوف" بلاء، فقال تعالى:﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾. |البقرة|.

وحينما كذبت قريش النبي ﷺ، أنزَّل الله تبارك وتعالى سورة يذكر قريش بامتنانه عليهم في منحهم الأمان فيما مضى على قوافلهم وتجاراتهم حين هيء لهم وجود الميثاق الذي ضمن سير القوافل إلى الشام واليمن دون الخوف عليها فقال تعالى:﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾. |قريش|.

فكان رد قريش ردًا معكوسًــا مناورًا، فذكرهم الله تعالى مجددًا كيف حقق لهم الأمان في كثير من شــؤون حياتهم فقال تعالى:﴿ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.[القصص].

وقال النبي ﷺ: من أصبح منكم آمناً في سربه، معافىً في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بأسرها. [رواه البخاري].

فالأمن والأمان شيء أساسي في حياة البشر ومطلب يسعى الإنسان بل المخلوقات لتحقيقه لتستطيع استكمال ما قُدر لها من العيش والحياة، وتحقيق الأمن والأمان ضروري لإتمام المهام والوظائف كما يُلاحظ في قصة موسى عليه السلام مع فرعون الطاغية المتجبر الذي أجرم بالقتل وتخويف الناس، وقد بين الله تعالى لنا طلب موسى وخوفه فقال تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴾[الشعراء].

وبقدر تحقيق تدابير الأمن يتحقق الأمان، فهو حالة متطورة متقدمة كأي علم من العلوم، فكل يوم يمضي نجد أن الثغرات تكثر في ظل التطور البشري، فتأتي التدابير المتجددة لتحقق التوازن في الحياة.

◈ أهمية الأمن

في كتاب إضاءات على أمن صقور التنظيمات يقول عبد الله صقر: "إني أتبنى هذه الرسالة (يقصد كتابه المختصر) رأيي الخاص الذي لا يتبناه أي تنظيم أو جماعة بعد تجربة في خضم العمل الأمني في عدة دول كافرة لفترة تجاوزت العشرة سنوات".

كتب عبد الله ذلك في أواخر عام 2011 واليوم في عام 2019 أقول: ما زالت الكيانات تفتقر للعمل الأمني الأكاديمي ولا وجود للآن لعمل استخباراتي أو السعي له ببناء جهاز حقيقي.

لقد سردنا قبل قليل كيف أن الأمن عامل رئيسي في حياة البشر، وضرورة في الحياة على كل الأصعدة، والمخاطر الأمنية واقع لا يمكن إغفاله أو تجاهله، فالدولة والكيانات تتعرض لعمليات اختراق وتخريب وتجسس وسرقة بكل أنواعها، والأفراد يتعرضون للخطف والاغتيال والابتزاز بغية التجنيد العكسي، وكذلك المجتمع يتعرض للتحزبات والاصطفافات الداخلية

التي تجعل المجتمع هشًّا مغريًا للأعداء الذين يطلبون ثغرة يدخلون من خلالها، كذلك علينا التنبه أننا نتكلم الآن عن الأمن الاستخباراتي على وجه الخصوص وليس عن جهاز الأمن كقوة تنفيذية فقط ولو توافقت بعض الفقرات لكن يبقى فرق بينهما.

فمن الممكن تلخيص أهمية الأمن بشكل عام في البنود التالية:

1. الأمن واجب شرعي

قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا﴾.[النساء].

خذوا حذركم بشكل عام من عدوكم الذي يتربص بكم.

نلاحظ في سيرة النبي العظيم محمد صلى الله عليه وسلم، كيف كان دقيقًا في تحركاته وبناء أركان الدولة وحتى في تبليغ الدعوة وبعدها في إرسال السرايا والكتائب، اتخذ تدابير الأمن كلها وأحاط بمجامعها، مما يؤكد أن الأخذ بتدابير الأمن واجب وتركه إثم يُسأل العبد عن الإهمال والاستهتار ونتائجه وخيمة، ذاك النبي ﷺ المؤيد من الرب تبارك وتعالى يأخذ بالأسباب وأهمها الأمن، فكيف بغيره من العباد؟.

2. الأمن يحقق الأمان

نُلاحظ أن الدول التي تضع وتنفق أموال طائلة في تحقيق الأمن من خلال زراعة كاميرات المراقبة وضبط الأمور وتنظيمها، تحقق أمانًا عامًا بنسب عالية، وانخفاضٌ كبير بمستوى الجرائم برغم عدم وجود رادع شرعي لديها ولا حتى أخلاقي في معظمها.

وقبلها حققه المسلمون في ظل نهضتهم وقوتهم وتمدد نفوذهم، من عهد النبي ﷺ إلى عهد الخليفة الفاروق عمر ابن الخطاب وعهد عمر بن عبد العزيز وحتى في ظل الدولة العثمانية في أغلب حكمها الذي دام 600 عام.

3. يحافظ على البنية وتماسكها

وجود الأمن والعمل به على المستوى الفردي، بالنتيجة يحقق التماسك في البنية الخاصة بالدولة أو الجماعة ويجعلها حصينة ضد المخاطر.

4. يبطل عمليات الاختراق

نشر الوعي الأمني والأخذ به، يقطع الطريق أمام الأعداء ويسد الثغرات التي من الممكن للعدو الدخول والتوغل من خلالها.

5. يقلل الخسائر

الحس الأمني وتطبيقه، يجعل الخسائر أقل بكثير، ويمنع حدوث كثير من المصائب والمشاكل، فإن لم يمنع حدوثها يستطيع تحجيمها واحتواءها.

6. يمنح الشعور بالثقة

تحقيق وتنفيذ تدابير الأمن وتنمية الحس الأمني، يولد الشعور بالأمان الذي يمنح الفرد الثقة بالنفس ويولد شعور الطمأنينة، مما يجعله قادرًا على تقديم عمل أفضل وتطوير انتاجيته بشكل أسرع وأفضل.

ولتحقيق الأمن بشكله المطلوب، لدينا مبادئ عامة ولدينا مبادئ خاصة على المستوى الفردي، وهذا ما يلي ذكره.

◈ المبادئ العامة للأمن

1. اليقظة والنباهة

كن دائمًا متأهبًا ذهنيًا، متنبهًا لما حولك ومستحضرًا الفطنة والحذر والتعامل السريع مع الطوارئ.

2. توقع الأسوء

وضع الاحتمالات الأسوء يخفف الأضرار في حال حصل شيء من التوقعات التي حاولت إيجاد حلول لها.

3. الروتين عدو

اتباع الروتين في العمل أو طرق الذهاب والإياب والأوقات المحددة وغير ذلك، يجعلك عرضة للمخاطر وهدفًا سهلًا.

4. السرية والكتمان

السرية في العمل تبعدك عن دائرة الاستهداف وإثارة الشكوك أو الفضول، والكتمان يجعلك في مأمن إلى حد كبير ويمنحك سهولة في التحرك، فالمعلومة فقط للمعني بها وعلى قدر الحاجة لها.

5. الخداع

استخدام التنكر على سبيل المثال وقت الحاجة، أو تغيير طريق المسير فجأة، أو فعل أمر عكس قوله ضمن شروط التورية الشرعية، لكن لا تبالغ في ذلك كله، فالإفراط قد يلفت النظر.

6. الصمت

وهو مداد لما سبق من الكتمان والسرية لكن يختلف من حيث الواجب الشرعي ولشدة ما جاء من تأكيد عليه مقرونًا بالنجاة والوقاية، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من صمت نجا». [رواه الترمذي] وجاء في صحيح مسلم أن النبي قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت».

وذكر علاء الدين الهندي في كتابه كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، أنه ورد عن النبي ﷺ قوله: «من سره أن يَسلَمَ فليلزم الصمت».

والأحاديث كثيرة في تحذير المسلمين من إطلاق لسانهم بشكل عام، وبما يضر أمن المسلمين ودولتهم بشكل خاص بل اعتبر الشرع من يطلق لسانه في هذا، أنها خيانة، قال تعالى:﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله ورسوله وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾. [الأنفال]. فكثرة الكلام تفتح مجال أمام العدو لإيجاد ثغرات وتجعل كثير الكلام عرضة للاختراق ثم التجنيد ثم الوقوع بالمحظور.

7. الأخذ بالأسباب

الأسباب الكونية كبعض التي ذكرناها، والشرعية مثل الأذكار الخاصة بالحركات والسكون (دعاء الخروج من المنزل-ركوب السيارة-طريق السفر- ...إلخ).، فالأخذ بالأسباب نوع من الوقاية التي تجنبك الوقوع بالمشاكل وتغنيك عن الإرهاق في العلاج.

"حينما نتكلم عن الأمن فأول ما يخطر ببالنا هو الحماية الشخصية من الخطر الظاهر والخطر الخفي، ومن الأخطار تلك هو عدم الوقوع بفخ الاستدراج أو الرضوخ لعملية الخداع الذهني بالاستجواب"

ولنفهم معنى الاستدراج وأساليب الاستجواب لا بُد من التعمق ما أمكن فيهما.

الاستدراج

◈ تعريف

هو الخداع والحيلة في معناه السلبي للحصول على شيء لا يمكن تحصيله بشكل ظاهر مباشر.

◈ مفهوم الاستدراج

هو الخداع الذهني واستخدام المهارات العقلية لكسب المعلومات من الشخص الذي قد يكون هو الهدف أو قريبًا من الهدف، ويكون سحب المعلومات بطريقة غير ملفتة للانتباه أو تدعو للريبة من خلال تقنيات معينة تجعل الشخص غير مدرك لأهمية المعلومات التي يقولها.

أما الاستدراج بمفهومة الشرعي فيقول أهل العلم له معنيين:

-**أحدهما:** أخذ الشيء تدريجيًا، لأنّ أصل الاستدراج مشتق من (الدرجة) فكما أنّ الإنسان ينزل من أعلى العمارة إلى أسفلها بالسلالم درجةً درجة، أو يصعد من الأسفل إلى الأعلى درجةً درجة ومرحلة مرحلة، فقد سمي هذا الأمر استدراجاً.

والمعنى الثّاني للاستدراج هو: اللّف والطّي، كطي السّجل أو الطومار ولفّه (الطومار هو الكتاب أو الوثيقة الملفوفة). وهذان المعنيان أوردهما الراغب في مفرداته، إلاّ أنّ التأمل بدقّة في المعنيين يكشف أنهما يرجعان إلى مفهوم كلي جامع واحد: وهو العمل التدريجي.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى الاستدراج وحذر عباده فقال تعالى:﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. [الأعراف].وقال تعالى:﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾. [القلم].

في تفسير القرطبي "سنستدرجهم من حيث لا يعلمون" معناه سنأخذهم على غفلة وهم لا يعرفون، وقال سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر، وقال الحسن: كم مستدرج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالستر عليه، وقال ابن عباس: سنمكر بهم. وقيل: هو أن نأخذهم قليلًا ولا نباغتهم.

إذًا؛ فالاستدراج ذكر في السلب والتحذير والتخويف، مما يجعلنا ندرك خطورة الاستدراج وفي نفس الوقت ندرك أهميته كأسلوب يمكننا استخدامه ضد الأعداء.

◈ مبادئ الاستدراج

1. وضوح الهدف

يجب أن يكون المستَدرج مدركًا تمامًا لغايته من العملية، دقيق في معرفة المعلومات اللازمة، قادرًا على استخدام العصف الذهني أثناء تلقي المعلومات واستخراجها من بين القصص وضمن الحديث أو خارجه ليتمكن من فرز المعلومات وتصنيفها وترتيبها.

2. البداهة والمهارة

يجب التميز بسرعة البديهة عند أي جملة قد تفضح أمره بدون المهارة في الرد والتحكم بالحديث أمام المُستَهدَف، أو قد يكون هو نفسه هدفًا للاستدراج، كذلك استخدام سرعة البداهة في تشتيت شكوك المستهدف إن ثمة احتمالية لها من خلال سد أي ثغرة قد تنبه المُستَهدَف أنه يقدم معلومات هامة أو خطيرة.

3. الحكمة في التعامل

إعطاء الوقت الكافي للمُستَهدَف في إتمام كلامه وعدم مقاطعته ولو كان السرد غير مهم، وإن دعت الحاجة فلتكن بلباقة، ثم إعادة المستهدف للحديث المراد بطريقة حكيمة، وقد ينتهي اللقاء دون فائدة فمن الجيد ترك مجال للقاء آخر.

4. المنطقية والو اقعية

يجب أن يكون الحديث والقصص التي تتخلله منطقية وواقعية لا تدعو المُستَهدَف للمفاجأة أو دفعه للمبالغة في باقي حديثه لمجاراة الحديث.

5. الانضباط والتماسك

التحلي بضبط النفس وحركات الجسد أثناء تلقي أي معلومة صادمة أو مهمة من المُستهدَف والمتابعة بشكل طبيعي، ومن الممكن جعل الهدف يشعر أن ما يقوله هو معروف بالنسبة لك وليست معلومات جديدة، فضبط النفس وعدم الاستعجال بجمع المعلومات أمر هام للغاية.

أهداف الاستدراج

1. جمع المعلومات

جمع المعلومات حول هدف ما أو حادثة معينة بغية الاستفادة من المعلومات بطرق عديدة.

2. تقديم الأولويات

وذلك من خلال المعلومات الكافية حول الأهداف الخطيرة فيمكن تقييم أشدها خطورة وضرورة للتدخل المناسب أو العمل المناسب.

3. تحديث المعلومات

من خلال جمع المعلومات ممكن تحديثها في قاعدة البيانات المعدة مسبقًا لهدف معين.

4. دراسة عامة

بغية تحليل المعلومات واستنباط الأمور الهامة أو الخفية حول فرد أو مجموعة أفراد عليهم طابع الغموض أو شيء منه يوحي بالخطر.

5. اختراق التحصينات

التحصينات المادية أو المعنوية المتعلقة بالسرية والغموض أو تدابير الأمن الشخصي أو تدابير السلامة، ممكن إيجاد ثغرات من خلال استدراج أحد ما.

طرق الاستدراج

وتختلف الطرق بحسب قرب المُستهدَف والمعرفة به من عدمها.

أ- إذا كان يوجد معرفة مسبقة بين المستَدرِج والمُستَهدَف:

1) تجنب فتح الموضوع المراد بشكل مباشر.
2) بالاعتماد على تحليلنا لشخصية المستهدف يتم اختيار أسلوب الحديث للوصول إلى المراد.
3) إظهار اهتمامنا باهتمامات المستهدف وهواياته على فترة من الزمن.
4) التماشي مع المستهدف بحد مقبول غير مبالغ فيه، ومعارضته ببعض الأمور البسيطة التي لا تؤدي لقطيعة أو نفور.

ب- إذا لم يكن هناك معرفة سابقة إنما محاولة جمع معلومات من جيران أو رفاق أو أقارب للهدف:

1) إيجاد طريقة مثالية وبسيطة لفتح الحديث مع المستهدف وذلك بحسب مهنته أو علاقته وقربه من الهدف.
2) الأسئلة الموجهة للمستهدف تكون بطريقة ظاهرها العفوية والمنطقية غير فضولية.
3) عدم محاولة إسكات المستهدف بقطع حديثه بشكل متكرر.

4) عند الاكتفاء بمعرفة معلومة ما فيجب عدم إغلاق فقرة الحديث بشـــكل مباشـــر، بل يجب تركه يســـرد لبعض الوقت ثم التدخل بســـؤال بعيد عن الأهمية لجعل عقله غير قادر على تمييز المعلومات الهامة التي يدلي بها.

5) إن كانت عملية الاســـتدراج لأحد الجيران أو الباعة في الحي فحاول إظهار أنك لســـت غريبًا عن المنطقة أو أنك كنت تســـكنها قديمًا أو بجوارها، كذلك الأمر للرفاق القريبين من الهدف حاول إظهار أنك لســـت غريبًا عن الهدف بطريقة لا تمكنهم من كشف الأمر.

ولتحقيق تلك الطرق، يجب توفر شـــروط معينة بالمُســـتَدرج ليســـتطيع تحقيق الغاية وتطبيق الاستدراج.

◈ متطلبات الاستدراج

1. معرفة بعض المعلومات عن الهدف.
2. معرفة بعض المعلومات عن المُستَهدَف.
3. وضع توقعات حول حجم المعلومات التي يمتلكها المستهدف عن الهدف نفسه.
4. معرفة نقاط الضـعـف عند المُسـتَدرَج واسـتثمارها بالشـكل المطلوب، كحبه للثرثرة أو المديح.
5. التأكد بدايةً من مدى مصـــداقية المُســـتدرَج من خلال اختباره بســـؤال يعرف جوابه المُستدرِج ثم ينظر هل ينفيه أو يؤكده أم يعدل فيه.
6. مقاطعة حديث المســـتهدف بطريقة لبقة عند ابتعاده عن ما نريد لعدم إشـــباع رغبته بالحديث بأمور ثانوية فبعد مرور الوقت ســـيصـــبح الحديث ضـجرًا بالنســـبة له وستصبح المعلومات شبه معدومة.

7. معارضته في الرأي بالأمور التي تبدو غير مهمة وفي حقيقتها هي المعلومة المرادة، كمعلومات عامة معروفة حول الهدف، معارضة الرأي ستدفعه لمزيد من الإدلاء بالمعلومات التي يعزز فيها أن رأيه أو كلامه هو الصحيح.
8. إظهار الانبهار والإعجاب ببعض فقرات حديث المستهدف ليشعر أن لديه مكانة أو معرفة مميزة مما يشجعه على الحديث أكثر لكسب مزيد من الاعجاب.
9. منحه الشعور بالثقة ليكون مرتاحًا أثناء الحديث غير مدرك لمرور الوقت وهو يتكلم.

الاستدراج علم مستخدم وتتطور أساليبه بشكل مستمر بما يتناسب مع التقدم البشري، لكن ليس الاستدراج وحده كل شيء لجمع المعلومات، فهناك طرق كثيرة منها الاستجواب الحديث غير الذي يتبادر للأذهان حين نسمع كلمة "استجواب"، وقد ذكرنا الاستدراج لتكون على وجهين، الأول المعرفة به لعدم الوقوع به والثاني لاستثماره بما يخدم الأمة المستضعفة، أما الاستجواب فسيكون ذكره من باب تطوره وكيفية استخراج المعلومات ومعرفة طرق التملص منه أو استخدامه ضد الأعداء.

الاستجواب

◈ تعريف

بمعنى الاستنطاق، أي بمعنى استخراج الكلام والمعلومات من شخص ما.

◈ مفهوم الاستجواب

هو مواجهة المتهم أو من داخل دائرة الشك، بالأدلة أو القرائن أو الشهود، بهدف استخراج المعلومات والوصول للحقيقية إما بالتأكيد أو النفي، ويعد الاستجواب نوعًا من التحقيق.

الاستجواب هو فن مثل باقي الفنون المتعلقة بالاستخبارات والأمن، لكن مما لا شك فيه فإننا نعيش بين دول بوليسية لا تفهم سوى لغة العنف وفرض الاعترافات وانتزاعها بطرق وحشية، حتى من يتغنى بحقوق الإنسان وبناء منظمات حقوقية هم كذلك داخل دائرة الإجرام والعنف والتجاوزات بدون أي احترام حتى لقوانينهم أو معتقداتهم الدينية، رغم التغني بالمثالية ووجود حالات لا يوجد فيها عنف في الدول الغربية وهذا صحيح، لكن نجد الظلم والقهر للمعتقل والأسير بطرق خبيثة فيها تدمير وانهيار نفسي بأسلوب الابتزاز والكذب والخديعة.

لقد سؤل "درو كادم" المستجوب العسكري السابق في الاستخبارات البريطانية: كيف كنت تنفذ مهامك؟ فأجاب: "إن ذكرت الاستجواب للناس فإنهم سيظنون ويتذكرون الأغطية السوداء على الوجه وأساليب التعذيب، لكن الحقيقة هناك طرق أدق لمعرفة المعلومات، يكمن قلب الاستجواب الناجح في الخديعة حيث أقنع الشخص الآخر أنني أعرف أكثر مما أعرف في الحقيقة هذه هي الحيلة، وتبدأ بأن تقول للشخص أنك هنا فقط لتأكد لنا كل ما نعرفه".

الخديعة هي أخطر طرق الاستجواب الحديث، حيث تجعل الشخص يدخل في حالة صراع داخلي إلى أن تبدأ أعصابه بالتلف ويبدأ هو بالاستسلام، تبدأ هذه الخديعة بأن يعطيك المحقق أو المستجوب بعض المعلومات البسيطة التي حصل عليها، فتظن وتتوهم أنه يمتلك معلومات كثيرة وكبيرة حتى أدق التفاصيل، هذه تقنيات فريدة لفعل ذلك فيأخذ الكلمات من

فمك وما فيها من معلومات ثم يعيد صياغتها فقط ليوجهها لك على أنها معلومات لديه حصل عليها من مصدر ما، فتظن أنها معلومات لديه وليس أنت من أعطاه إياها، وأنه لا فائدة ولا جدوى من عدم الاعتراف للاستفادة من المزايا التي يعدك بها المحقق إن تعاونت معه، كذلك من الخدع التي يتعرض لها المُستَجوَب أثناء الاعتقال، ما يعرف بمصطلح "عصافير الزنزانة" وهي خدعة تعتمد على دس فرد داخل زنزانة تحوي مجموعة متهمين بتهم واحدة أو متفرقة، مهمة المدسوس مراقبة المتهمين ومحاولة التقرب منهم ويكون تواجده بينهم تحت غطاء مقنع أي بمعنى يحمل نفس التهم أو الجرم، في مثل تلك الظروف من الاعتقال وقد جربتها ذات يوم، يكون المتهم بحاجة للتواصل مع أي إنسان وعن أي حوار مع وجود الحذر، لكن في الغالب الحذر ليس بالنسبة الجيدة، في فرع المخابرات الجوية أدخلوني لزنزانة تحوي نحو عشرة أشخاص كلنا نحمل تهمة التمرد على الحكم، بيننا مساعد في الجيش كانت تهمته محاولة الانشقاق، وهذا كان يمثل لنا أمرًا رمزيًا كبيرًا يدفعنا للتعبير عن سعادتنا وفرحنا واستبشارنا، لكن سرعان ما نبهني معتقل يبدو عليه قديم جدًا والنور يعلو وجهه، قال :احذر من هذا الشخص . يقصد المساعد المنشق!، لم يكن لدينا فرصة للحديث أكثر عن هذا التنبيه السريع بصوت منخفض، وبالفعل بعد ساعات قليلة جدًا فتح السجان النصيري باب الزنزانة وأخذ المساعد المنشق "للتحقيق"، حاولت أن استفهم من الناصح، لكن أومأ لي نحو شخص آخر لم يكن لدي شك بعد ملاحظته أنه بالفعل مريب، أعادوا المساعد المنشق للزنزانة بعد حوالي نصف ساعة ولم يبدو عليه آثار الضرب أو العنف رغم أني لاحظت محاولته لتمثيل دور المتعرض للعنف، قارنت عودته بآخرين خضعوا للتحقيق، أولئك كانوا يرجعونهم محملين لكثرة الضرب وآخرين أصواتهم كانت تملأ المكان وبعضهم أرعبني منظر أقدامهم التي تسلخت وتشققت من الضرب .

هؤلاء العلويون النصيرية أحقر وأذل البشر فعلوا ما لم يفعله مجرم على الأرض حتى النازية!، نعم حتى النازية لم تكن أساليبها بمثل أساليب هؤلاء القذرين، بل إن النازي الألماني "هانس شارف" محقق في سلاح الجو الألماني وقد عمل على تحقيق 500 أسير أثناء الحرب العالمية الثانية، لم يتعرض المعتقلين لمثل ما تعرض له المسلمين في سجون النصيرية.

يقول "هانس شارف": "بالمعاملة الإنسانية الحسنة سعيتُ لخلق بيئة للاستجواب، ينسى فيها الأسير أنه يتم التحقيق معه، تربك توقعاته وما تمّ تدريبه عليه لمواجهة العنف والضغط الجسدي والنفسي في عملية التحقيق".

الخداع محور عمليات الاستجواب الناجحة، إيهام المعتقل بأشياء بعيدة عن احتمالاته ويريدها المحقق، نتائج مثل هذه العمليات في الاستجواب سجلت نجاحات كبيرة مقارنة مع عمليات الاستجواب البوليسي العنيف، ففي معظم الحالات يكون المعتقل متجهزًا لمثل هذا النوع من الاستجواب ومتوقعًا لفصوله ومدرك لكيفية التعاطي معه على الأقل نفسيًا، فأما يعطي معلومات صحيحة لكن مبالغ فيها بشكل كبير مما يجعل الجهة المحققة تتضرر (ذكرنا مثال في قصة ضرب الصحابة للعبدين ثم تأنيب النبي للصحابة وقيامه بالاستجواب بسلاسة)، أو هو يستعجل الحكم عليه من خلال الاعترافات بجرائم لا يعرفها فقط لينتهي التحقيق دون أن يكشف عن معلومات تضر رفاقه أو أحد آخر وبذلك يكون تم فقدان سيل من المعلومات كان من الممكن تحصيلها .

ومن أساليب الاستجواب جهاز كشف الكذب، وهو عبارة عن جهاز يقوم برسم الظواهر الفيسيولوجية بشكل خط بياني يقيس سرعة النبض والتنفس وضغط الدم ورد الفعل الناتج عند كل سؤال، استُخدم الجهاز منذ عام 1924، لكن علينا معرفة حقيقة هامة حتى الآن على الأقل، هذا الجهاز يستخدم للحيلة والضغط النفسي ولليوم هو محل خلاف عند علماء النفس وغير معترف بنتائجه من قِبل المجتمع العلمي وهو يُعتبر للآن أكاديميًا أنه مزيف.

بهذا الموجز ربما أصبحت الصورة العامة واضحة، لكن حتى نستكمل الصورة فسنذكر الاستجواب في الشرع، وهو مع أنه مشروع لكن لم أجد مبحثًا كاملًا خاصًا به، وتوصلت إلى أنه اجتهاد وباب واسع، وكون الأمر يحتاج اختصاصًا شرعيًا فاقتصرت مشاركتي حول الواضح منه وترك تفاصيله لأهل الاختصاص، فحقيقة نحن بحاجة ماسة لمبحث معتمد في هذا الباب وغيره مما يتعلق بعمليات الاعتقال والتفتيش والتحسس والتجسس وغيرها،

فقد رأيت ولمست تجاوزات كثيرة يتم محاولة إلباسها الصبغة الشرعية، ثم بعد مدة نفس من يصبغها يغير الصبغة بما تتناسب مع فعل جديد! .

ندرك أننا في تجربة جديدة، لكن مثل هذه الأمور ليست بجديدة على الشرع، إنما هي من ضمنه الذي أخبرنا عنه الله تعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أن الدين كامل متكامل لكافة جوانب الحياة ومنهج لكل ما يصادفه البشر إلى قيام الساعة وهذه معجزة القرآن وكرامة السُنَّة.

حتى لا نطيل، لقد وردت صور في الشرع عن الاستجواب وهي كثيرة جدًا، نذكر بعضها، فالأولى كانت أول صورة استجواب عرفناها عن الشريعة وهي في قصة إبراهيم عليه السلام، قال تعالى :﴿ قَالُوا مَن فَعَلَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ، قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ، قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ، قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾ .[الأنبياء].

نلاحظ أن قوم إبراهيم عليه السلام اختاروا استجوابه بدايةً ليتأكدوا مما قيل لهم، واختاروا أن يكون الأمر على شهادة من الناس، ثم وجهوا سؤالًا مختصرًا واضحًا، فكان جواب إبراهيم عليه السلام أن قال: بل فعله كبيرهم هذا. ثم أراد بعد عدم الجواب الواضح بالنفي أو التأكيد أن يخاطبهم بلغة المنطق فقال: فاسألوهم إن كانوا ينطقون. أراد إبراهيم عليه السلام أن يحرج المحققين فهو عرف مسبقًا وتحضر لمثل هذا الاستجواب فأظهر مهارة في إحراجهم.

من الصور كذلك ما ورد في قصة يوسف عليه السلام، فقال تعالى :﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ، قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ۚ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ، ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ .[يوسف].

أراد يوسف عليه السلام كشرط على الملك أن يستجوب أشخاص محددين كأن يُفتح تحقيق من جديد، ولما حصل الاستجواب من الملك للنسوة، أقررن بفعلهن وبراءة يوسف عليه السلام.

نستفيد من هذه الصورة أن الاستجواب أمر هام وضروري وله شروط وضوابط ينتج عنها فوائد أهمها إقرار الجاني على نفسه، وكشف الغموض الذي يغطي الحقائق، ولهذا الفن في الاستجواب مبادئًا وأهدافًا وطرقًا سنمر عليها بشكل مختصر.

◈ مبادئ الاستجواب

1) المعرفة الكافية عن المُستَجوَب.
2) وجود دعوى حقيقية من مدعي.
3) أن يتمتع المُستَجوَب بأهلية عقلية ونفسية.
4) قوة الشخصية والكفاءة عند المحقق.
5) عدم استخدام العنف الجسدي.
6) سكوت المُستَجوَب عند مواجهته بمعلومة أو تهمة، يُعد إنكارًا وليس إثباتًا.
7) عدم الاستعجال بسحب المعلومات أو الاعترافات إن كان المُستَجوَب صلب، ويبقى الأمر بحسب الحاجة لتلك المعلومات.
8) عيش المحقق حالة المُستَجوَب بعينه ذهنيًا ليكون قادرًا على بناء توقعات خاصة بردود الفعل والقول.

وهذه الأمور يجب أن يدركها المرء لأنها تسهل عليه كثيرًا من الأمور إن كان هو المُستَجوَب أو المُستَجوِب.

◈ أهداف الاستجواب

1) الوصول للمعرفة والحقيقة.
2) كشف الغموض وإثبات الوقائع.
3) إقامة الحجة.
4) الحكم بالعدل والحق.

◈ طرق الاستجواب

1) مواجهة المُستَجوَب بالحقائق والوقائع.
2) مواجهة المُستَجوَب بخصمه إن كانت قضية شخصية.
3) عزل المراد استجوابهم والتحقيق معهم منفردين.
4) الاستفادة من علم النفس لمحاصرة المُستَجوَب.
5) الإيحاء للمُستَجوَب أن هناك من اعترف أو أنه توفرت أدلة، والإيحاء غير الكذب.

◈ التعامل مع الاستجواب

ونقصد على وجه الخصوص طريقة التعامل مع المحققين:

1) أظهر أنك تعرف القوانين الخاصة بالمعتقلين كأحقية المطالبة بمحامي أو التواصل مع منظمات حقوقية.
2) أظهر أنك تعلم أساليب الضغط وما يُسمح للمحقق فعله وما يمنع عليه استخدامه.
3) لا تظهر الرهبة من التحقيق، وبين له أنك لا تقع في فخ الخداع والضغط النفسي.
4) استخدم أسلوب توجيه الأسئلة كالسؤال الدائم عن سبب اعتقالك.

"وبكل تأكيد هذه الأساليب لا تنفع في الدول البوليسية ودول الطواغيت، ففيها قد لا تتعرض للتحقيق إنما تنال السجن لسنوات دون حتى أن يقابلك أحد منهم أو تتعرض للقتل بأي شكل داخل معتقلاتهم القذرة، أو يتم انتزاع الاعترافات منك بطرق عنيفة".

5) لا تقع في فخ صداقة المحقق.

6) لا تقع في فخ الاستفزاز وإثارة غضبك.

7) لا تصدق كل ما يقوله المحقق.

8) انتبه من السجناء معك، قد يكون بينهم مدسوس.

9) السؤال الذي تراه مهمًا أو مريبًا ويحتاج منك تفكيرًا قبل الإجابة، حاول الهروب منه لبعض الوقت وبطريقة غير ملفتة للنظر، كطلب شيء تحتاجه لاستكمال التحقيق أو قول بأنك سبق وأجبت عن هذا السؤال، في هذه الثواني تحتاج تدوير سؤال المحقق في عقلك لكشف خلفيات الإجابة، ثم اختيار أفضل جواب.

10) لا تفكر بفوائد الاعتراف التي يعدك بها المحقق من منحك الراحة ومزايا أخرى، ركز تفكيرك في النتائج النهائية للأجوبة ومصيرك قانونيًا بعدها.

11) ضع استراتيجية كاملة حول التحقيق ومجرياته قبل الخضوع له، ثم صب كل الجهد بتوقع الاحتمالات ورد فعلك أو قولك نحوها.

12) الذكر والدعاء المخصص لحالات الضيق والكرب عامل قوي ليس فقط تجاه النجاة، بل حتى قبلها كعامل تثبيت وربط على القلوب لمن كان مؤمنًا وهو مظلوم.

مع الذكر والدعاء والتضرع، لي قصص أشبه بالخيال، ولا شك معظم المسلمين لديهم قصص مشابهة حول تدارك رحمة الله لنا، ونتائج الإجابة، من تلك القصص الخاصة بي في عام 2011 تعرضت للاعتقال كحال معظم من تبنى الجهاد والثورة، لكن كنت من القلة التي دخلت أقذر فرع عرفته الشام، فرع المخابرات الجوية، من جرب هذا المسلخ أو سمع عنه يدرك أنه من غير المجدي ممارسة كثير من تدابير الاحتياط للاستجواب، فالاستجواب أصلًا هو شيء شكلي، أما التهم فجاهزة معلبة مطلوب منك الاقرار بها، وحتى وأنت تُقر لا بُد من إخضاعك لعمليات التعذيب!، لكن بفضل الله قد نجاني الله منهم إلا قليلًا من العنف الذي لا يُذكر وذلك أني فور معرفتي بمكان اعتقالي ما تركت الذكر والدعاء والرجاء، ومما زاد تضرعي رؤيتي للمسجونين هناك وكيف حالهم مع التعذيب القذر العنيف والله المستعان.

دخلت كآخر معتقل للفرع في ذلك اليوم، وكان أكثر سؤال وجه لي وأهمهم (ما هو اسم أبو أسيد، وأين مكان سكنه)، والله كنت مذهولًا من هذا السؤال، كيف عميت أبصارهم وأقفلت عقولهم!، ها أنا هو، كيف لم يعرفوني؟ لكن أدركت أن الذكر والدعاء مع يقيني بالله جعل رحمة الله تتنزل، ليس في الأمر معجزة لكن جعل الله لها سببًا بسيطًا جدًا، هويتي الشخصية لا تؤكد هذا المطلوب "أبو أسيد" الذي اعترف عليه أشخاص آخرين لا أعرفهم ولم يواجهوني بأحدهم، كمنسق للمظاهرات وجامع لها، وهاتفي النقال لا شيء فيه يدينني سوى رقم هاتف مكتوب في تعريف اسمه "أبو أسيد"!، هو رقمي الذي لا أستطيع حفظه فدونته بهذا الاسم وليس بتعريف "رقمي"، قبل التحقيق كنت أظن أن التدوين للرقم بهذا التعريف هو من سيضرني، لكن الله أراد أمرًا آخرًا وجعل ما كنت أظنه مصيبة سببًا لإبعاد الشكوك حول أني هو الشخص المطلوب، ولو أنهم حاولوا الاتصال بهذا الرقم لطرق جرس هاتفي!، لكن الله أنجدني .

كنت أشعر بأنهم في حيرة من أمرهم واضطراب وغباء غير ما كنت أسمع عن ذكائهم وفنونهم في التحقيق، ذكرت أني في ذلك اليوم كنت مع آخر دفعة دخلت الفرع، وأكاد نفسي لا أصدق أني كنت مع دفعة أول الخارجين منه!، كيف ولماذا لا أعلم سوى أني ما توقفت عن الدعاء وعملت ببعض تدابير الأمان فجعلها الله سببًا، لكن كنت الوحيد الذي خرج من الفرع إلى الأمن الجنائي بدون بطاقة شخصية فقد احتفظوا بها بشكل استثنائي، فعلمت أنهم بعد قليل من الأيام سيكتشفون أني "المجرم" الذي يحرض وينسق ويصور المظاهرات، فدخلت في سباق مع الأيام التي سأقضيها بشكل روتيني بين الأمن الجنائي والسجن المركزي، بكل حال كانت المدة معروفة لتهمة التظاهر العامة وهي نحو 20 يومًا تقريبًا، بالفعل خرجت لأجد أن المخابرات الجوية قد اكتشفت أمري كمنسق ومصور للتظاهرات، بعد خروجي بيومين أو ثلاثة من خلال مداهمتهم لبيتي وتواجدهم مكان تواجدي المعتاد، فعلمت أنه حان الوقت للاختفاء والعمل بما يمكن عمله فالعاقبة واحدة إن استطاعوا القبض علي مجددًا

لذا فعلى المرء أن لا يقنط ولا ينخدع بالمظاهر والهالة التي تنشـــرها المخابرات عن قدراتهم في جمع المعلومات وأساليب كشف الخفايا، ويكفي اللجوء لله تعالى مع الأخذ بالأسباب من تدابير الأمن الشخصي.

تدابير الأمن الشخصي

1. الالتزام

الأذكار عامل لا يُستهان به، ومهما حاولت الحديث عنه وكيف نجاني الله من أمور كنت أظنها النهاية لن أستطيع إيصال ما بداخلي من تجربة مع الأذكار، هذا عدا ما نجاني الله منه ولا أعلمه! كذلك صدقات السر وصنائع المعروف أثرها كبير، فقد روى الطبراني عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن صدقة السر تطفئ غضب الرب، وإن صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وإن صلة الرحم تزيد في العمر وتقي الفقر، وأكثروا من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنها كنز من كنوز الجنة وإن فيها شفاء من تسعة وتسعين داءً ــ أدناها الهم». كذلك الاقلاع عن الذنوب وترك المعاصي وتجديد التوبة، كلها حرز للمسلم وجدار وقاية متين.

2. الغطاء

لضمان العمل بأريحية، يجب خلق مبرر للتصرفات أو الأعمال دون الوقوع بالكذب، أقنع من حولك بأن كل شيء طبيعي لا يدعو للريبة.

3. المعرفة

يجب أن تكون على علم كافي بما حولك وحول عدوك وخصمك كي لا تقع ضحية للجهل بتفصيل غير محسوب، ومن المعرفة متابعة تقارير العدو حول الأمور الأمنية وتطويره لطرق المراقبة والاختراق مع التذكر أنه لن يفصح عن كل شيء ولو بدا لك عكس ذلك، فلا أحد يلقي بكل أوراقه، إنما قد تكون التقارير بحد ذاتها أفخاخ يستدرجك من خلالها لإيقاعك أو إحباطك.

4. الحذروااليقظة

وهي مبدأ رئيسي في الأمن يحتاج عدم الخوض بشيء قبل التفكير بعمق فيه والإحاطة بجوانبه وتوقع النتائج وكيفية التعامل معها.

5. الروتين والتغيير

كسـر الروتين أمر مطلوب لكن بعض الروتين كسـره يحتاج تدرج فيه وذلك بحسـب الشـيء والحاجة له وبحسـب الزمان والمكان، فعلى سـبيل المثال تقصـير اللحية أحيانًا يحتاج فجائية وأحيانًا تدرج ذلك يقدره الشـخص نفسـه بحسـب ظرفه، ومثلها ما يخص المظهر الخارجي فبعضها تدريجي أو فجائي بحسب متطلبات الحالة.

6. عمل لا شعار

معظم الشـباب يعرف تدابير السـلامة وبعضـهم يبدع في التفنن بها لكن بالقول، أما في العمل والفعل فهو كسـول أو بليد، وهذا يدل على الجهل بعينه مهما ظن الأمر غير ذلك وأنه يقظ وذكي وحذر، التراخي بتدابير السلامة لا تبرير له سوى الجهل.

تدابير أمن التواصل الإلكتروني

العمل بتدابير الأمن الشخصي على الأرض لا يغني عن العمل بها في عالم الشبكة العنكبوتية "الإنترنت"، كلاهما ملازم للآخر ولكل منهما تدابير الأمن الخاص بها.

مر معنا في فقرة الاختراق قصص مبهرة عن الاختراق ومر معنا طرق المراقبة وأساليب التجسس عبر الشبكة العنكبوتية، والقصص كثيرة حول كيفية جمع المعلومات والتتبع والاختراق وسحب البيانات أو معرفة تفاصيلها كذلك قصص مؤلمة كثيرة حول اعتقال الشباب في دول عدة فقط لأنهم يؤيدون قضايا نبيلة أو يتعاطفون مع أمتهم المضطهدة.

لذلك يجب قبل الحديث عن طرق تدابير الأمن الإلكتروني، معرفة طرق التهديد وأساليبها بشكل مختصر وسريع، كوننا مررنا عليها في فقرات سابقة وكون الأمر متسارع في التطور ضمن أساليب جديدة تجعلنا نؤكد أنَّ الهاتف النقال والحاسوب الشخصي لا يوجد فيه نسبة أمان حقيقية بل نسبة الأمان متدنية إن لم تكن معدومة!، ولعلي أن الاستغناء عن الهاتف النقال أمر صعب في زماننا مع يقين الجميع أنه بمثابة جاسوس ترعاه بين يديك، فلا أقل من الأخذ بالأسباب المتوفرة للحماية وتقليل المخاطر، وربما مع ما ذكرناه في البند الأول من تدابير الأمن الشخصي تكون نسبة الأمان أفضل .

◇ أنواع التهديدات

التهديدات كثيرة ومتعددة، ومع كل يوم يمر هناك تطور في النوع والأسلوب ولعلنا نذكر أشهرها:

1. الفايروسات

وهي برمجيات حاسوبية متعددة المهام بحسب "الهاكر" المُصنع لها، تدخل الحاسوب أو الهاتف النقال من خلال زراعتها يدويًا أو من خلال الضغط على الروابط مجهولة المصدر أو روابط مُقلدة لروابط معتادة.

2. التروجان

وهي في العادة برامج معدلة من قِبل مطورين للبرامج الرسمية، كبرنامج "واتساب" و "تلجرام" و "فيس بوك" والعديد من البرامج الرسمية التي يتم "تطويرها" لتقدم ميزات إضافية مرغوبة لدى شريحة المستخدم، وفي حقيقتها ثغرات تمكن المطور نفسه من اختراق الجهاز أو تجعل الجهاز متدني التحصين أمام أي هجمات أو قرصنة أخرى.

3. القرصنة

ويقوم بها مجموعة أو فرد من "الهاكر"، مستهدفين السيرفر لإيجاد ثغرات تمكنهم من الاختراق، أو تحميل السيرفر بمواد وملفات تتسبب بشلله، أو اعتراض البيانات أثناء إرسالها من المرسل إلى المستقبل من خلال ثغرات في السيرفرات الرئيسية أو من خلال اختراق أبراج الاتصالات المحلية أو "الروتر" الخاص بالمرسل أو المستقبل ثم اللعب بخوارزميات التشفير.

التشفير الخوارزمي: هي لغة برمجية من حروف ورموز، وتعتبر كود البرنامج (كود = رمز أو رقم خاص)، من المفترض أنها تقدم السرية والخصوصية إلا لمن يعطى التصريح له بالاطلاع.

اختراق الخوارزميات: في معناها العام هي القدرة على استبدال حرف مكان حرف أو رمز مكان رمز.

4. التهديد المباشر

وهو سماح الشركة الخاصة بأحد البرامج، باطلاع جهة مخابراتية حول بيانات المستخدمين أو بحالة انتقائية للمستخدم، وهذا موجود في الشركة الأمريكية الخبيثة "فيس بوك" وكذلك في "واتساب" بعد استحواذ مؤسسي "فيس بوك" عليه وعلى غيره من البرامج الرائدة المنتشرة، ومؤخرًا "تلجرام" تعرض لضغوط من الحكومة والمخابرات الروسية فيما الأنباء متضاربة حول رضوخ الشركة لتقديم مفاتيح التشفير الخاصة بالمستخدمين بشكل انتقائي، والراجح أن المخابرات وصلت لما تريد.

5. التهديد الخفي

وهي برامج تكون بشكل أساسي في الجهاز، مثل "جوجل" والخدمات المرتبطة به وهو أحد أخبث البرامج على الإطلاق وأكثرها انتشارًا، تتيح مثل هذه البرامج التصرف بأوامر الجهاز بشكل خفي كاستخدام الكاميرا ومنفذ الصوت والموقع ولو كان الظاهر عدم عملهم أو يبدو أن المستخدم أعطى أمر تعطيل، وقد يجد المستخدم برامجًا خاصة في تعطيل مثل هذه الأوامر لكن لا يمكن الوثوق بهذه البرامج نفسها أو بقدرتها البرمجية.

◈ مبادئ أمن التواصل

1) عدم دخول المواقع المجهولة أو الضغط على روابط مشبوهة.
2) عدم الضغط على الصور مجهولة المصدر بغية تكبير حجمها أو فتحها، فقد تطورت عمليات الاختراق وأصبح ممكنًا حقن الصور والمقاطع المرئية بروابط غير مرئية، تبدأ عملها بشكل خفي بمجرد الضغط على الصورة أو الفيديو.
3) عدم قبول مراسلة الغرباء تجنبًا لأي عملية استدراج أو خداع وهمي يتم من خلاله الاضطرار للضغط على رابط أو صورة.
4) عدم تداول البيانات الهامة والمراسلات السرية.
5) عدم استخدام البرامج المعدلة تحت اسم "مطورة".

◈ أساليب الحماية

بدايةً يجب أن تترسخ لدينا فكرة عدم وجود أمان مطلق في عالم الشبكة العنكبوتية، وكما يقال: كل شيء يكون في الهواء فهو ملك للجميع. والمقصود أنَّ عملية تنقل البيانات وإرسالها واستقبالها كلها تتم من خلال ما يُسمى الفضاء الأزرق أو الشبكة العنكبوتية أو "الإنترنت"، من خلال تدخل الإشارات اللاسلكية والترددات التي تكون عبر الهواء الطلق المتاح للجميع، لكن ليس الجميع قادر على اختراق هذه الترددات إلا أنه ثمة من يفعلها.

لكن سبق وقلنا (لا يمكن الاستغناء عن الشبكة العنكبوتية عند المعظم)، ولذلك يمكننا الأخذ بالأسباب الممكنة لتقليل الضرر، وفيما يلي نذكر بديهيات الحماية المحدودة:

أ- التضليل

عدم ذكر الاسم الحقيقي أو المعلومات الصحيحة أثناء طلبها من مواقع التواصل أو برامج الهاتف النقال أو الحاسوب، واستبدال المعلومات بمعلومات عشوائية.

ب- السرية

عدم ذكر المعلومات الهامة أثناء المراسلات أو حفظها بالمذكرات على الجهاز، ويكفي عند الضرورة استخدام لغة متفق عليها وتكون معقدة مع التنبه إلى أنَّ معظم اللغة الرمزية والتشفيرية تم معرفتها لكثير من المخابرات.

حتى رفع الصور التي لا تريد لأحد رؤيتها وبالأصل مجرد وجودها في الجهاز خطأ باستثناء الصور التي لا مشكلة لديك باطلاع أحد عليها.

ت- الحذر

عدم الدخول لبرامج أو صفحات طابعها التسلية كالتي تظهر في موقع "فيس بوك" وتقدم تحليلات عن مستقبلك أو أكثر البشر تشابهًا معك أو نحوها، فهي في حقيقتها مرتبطة بعلم النفس الخاص بالاستخبارات، وسنأتي على ذكر الأمر ومدى خطورته، كما مر معنا من قبل أهمية التخريب الفكري والغزو الفكري.

ث- مكافح الفيروسات

بالرغم من عدم جدواه بوجود "هاكر" متمكن، لكن قد يجنبك المخاطر أمام الهواة والمبتدئين أو الفايروسات العشوائية، وتنبه لاستخدام برامج مكافحة معروفة المصدر أو نصح به تقنيين تثق بهم.

ج- مكافحة الاختراق

نوهنا لعدم القناعة بها، لكن لا يمنع لمن لا بُد له من استخدام الجهاز من تركيب برامج تكافح عمليات الأوامر الخفية مثل فتح الكاميرا أو منفذ الصوت "المايك" أو تحديد الموقع "GPS".

ح- تفريغ الحافظة العشوائية

يوجد برامج خاصة لحذف النصوص التي تكتبها أثناء المراسلات أو في المذكرة، والتي يتم حفظها داخليًا بالحافظة العشوائية وأكثر مكان يتم حفظها فيه من خلال لوحة المفاتيح "الكيبورد".

خ- التشفير

من خلال برامج خاصة تكون معروفة المصدر، مهمتها تعقيد البيانات والخوارزميات وإخفاء الموقع، وهنا لا نقصد "VPN" الذي يقوم بفتح المواقع المحجوبة، إنما نقصد برامج شبيهة ببرنامج "تور/أوربت" (TOR).

د- الترميز

وهي اعتماد لغة معقدة لكنها مفهومة لدى طرفي المراسلة (المرسل والمستقبل)، ويمكن وضع قاموس شخصي للغة بينهما لكن عدم حفظه ووضعه في أي جهاز وإن كان جهازًا آخرًا.

ذ- التخريب

ممكن الاستغناء عن بعض الأدوات داخل الجهاز دون أن يتأثر الجهاز، فك GPS والكاميرا ومنفذ الصوت من الجهاز أمر جيد وسهل ولا يؤثر على أداء الجهاز.

والنصيحة الخالصة في أمن التواصل ونقل المعلومات وأساليب الحماية، ممكن جعلها على شقين، الأول لمن هم لا يشغلون مراكز حساسة في أي اختصاص وهؤلاء يمكنهم اتباع ما سبق وإضافة ما يستجد من تحديث، أما من يكونوا عرضة للاختراق بنسبة مرجحة فعليهم أن يمتنعوا عن تداول أي معلومات كانت صغيرة أو كبيرة ولو عن طريق التشفير والترميز ويمكنهم تداول المعلومات أو توجيه الأوامر بطرق أضمن كالشفهية أو الخطية أو ابتكار طرق اتصال آمنة فالقضية أمانة لا يمكن التهاون بها.

تكلمنا في فقرة أفرع المخابرات وذكرنا أنها داخلية وخارجية ومدنية وعسـكرية، وذكرنا ضـمن الداخلية والخارجية ما يخص الأمن والسـياسـة والاقتصـاد والاجتماع، ثم نوهنا أن مهام المخابرات فيها تكون في معظمها عمل معلوماتي توجه المعلومات الحساسة بعد تحليلها والتأكد منها، للجهة المختصـة وأهم الجهات التنفيذية أجهزة الأمن المدربة على تنفيذ المهام العملية، فيما يلي أهداف الأمن العام، والأمن التنفيذي العملي.

أنواع الأمن

1. أمن الفرد

هو اتخاذ خطوات وقائية يتدرب عليها الفرد وينميها حتى يكون ضمن دائرة الأمان الشخصي.

2. أمن الجماعة

هو التعاون بين أفراد الجماعة أو المجموعة للحفاظ على المعلومات الحساسة والوثائق الهامة بهدف صيانتها من أي خطر أو تهديد خارج المنظومة أو داخلها.

وتصنف هذه المعلومات بحسب حساسيتها وخطورتها، وتقسم هذه التصنيفات بحيث يعرف الأفراد درجة خطورة الوثائق والرسائل والمعلومات، والمخول بوضع درجة التصنيف فقط المسؤول عن المعلومات أو الوثائق نفسها، فيقوم بكتابة درجة التصنيف على الغلاف، والتصنيفات الدارجة تنقسم إلى:

أ- **معلومات عامة:** وهي تكون متداولة لا مشكلة في كتمها على المستوى الداخلي أو الخارجي.

ب- **معلومات خاصة:** وهي مخصصة للتداول الداخلي على مستوى العاملين وغير مصرح إخراجها للعامة.

ج- **معلومات محظورة:** وهي مخصصة للتداول بين القادة ويمنع اطلاع أحد غيرهم عليها.

د- **معلومات سرية:** وهي للتداول بين أصحاب العمل الخاص بالمعلومات نفسها دون غيرهم.

هـ- **معلومات سرية للغاية:** وهي المعلومات والوثائق التي تكون حساسة جدًا وتسربها يسبب كارثة لا يمكن إصلاحها، ويتعامل معها فقط المسؤولين عنها وعلى مستوى عالي جدًا.

3. الأمن الداخلي

هو شعور الافراد بالأمان والطمأنينة ضمن مجال عملهم ومن خلال بناء الثقة فيما بينهم على أساس المعرفة بما يلزم معرفته بقدر محدود معلوم، وباقي الثقة فيما بينهم تتولد من خلال الثقة بالقائد.

4. الأمن الخارجي

هو حفاظ القيادة والمكتب المختص على الأفراد والمعلومات من أي مخاطر أو تهديدات أو اختراقات خارجية معادية أو محايدة أو متحالفة.

5. الأمن العسكري

هو تأمين الحماية اللازمة للتشكيلات العسكرية في ثباتها ضمن المعسكرات، أو أثناء تحركها نحو المهام العسكرية.

6. الأمن الاستخباراتي

وهو تقديم الحماية عند اللزوم لأفراد جهاز المخابرات أو العملاء السريين الهامين أو أفراد خلف الخطوط كقوة مؤازرة أو مشاغلة.

7. أمن الدولة

وهو الحفاظ على الدولة من أي مخاطر مهددة، كمتابعة المعارضة السياسية أو العصابات الإجرامية المسلحة والكبيرة، وكذلك متابعة الخلايا والعملاء، وحفظ الاستقرار والأمان في الدولة والعمل على مكافحة الفساد العام والخاص أو ظواهر الشغب والتخريب.

8. الأمن السياسي

وهو تقديم الحراسة الشخصية للشخصيات الدبلوماسية أو الشخصيات السياسية التابعة لحكومة الدولة أو خارج منظومتها داخل البلد، كذلك من مهام الأمن السياسي تقديم الحماية لحرية الرأي المنضبط، فالأمن السياسي مرتبط بمفهوم حقوق الإنسان.

9. الأمن القومي

وهو توجيه الحماية للحكومة وأهل القرار في الدولة، وضمان الاستقرار فيها بشكل عام بما يكون خارج سلطة الأمن العسكري والأمن السياسي، ويُعنى الأمن القومي بالحفاظ على الشعب من أي مخاطر فكرية أو تخريبية.

ويتبع للأفرع الأمنية قوات الطوارئ والتدخل السريع وقوات الردع ومكافحة الشغب وأمن المنشآت وغيرها، وذلك بحسب ما تختاره كل دولة بما يناسب توزيع المهام لديها، كما أن من

أهداف الأمن، الأمن الغذائي والاقتصـادي والطاقة وكلها معنية بوضـع خطط مسـتقبلية للضمان وتجنب المخاطر.

أشكال الأمن

1. الأمن الدفاعي

الأمن الدفاعي هو الخطط والعمليات الخاصة بإحباط الهجمات المعادية بأقل الخسائر وذلك بعد وقوع الهجوم.

2. الأمن الهجومي

وهو العمليات الهجومية الاسـتباقية ضـد الهجمات المعادية المحتملة بغية إحباطها قبل انطلاقتها. ولتحقيق الأمن فثمة واجبات خاصـة متبادلة بين الفرد والجماعة يجب أن لا يكون فيها خلل، فهي بمثابة حماية متبادلة وهذا ما سنسلط الضوء عليه بشكل مختصر.

واجب الفرد تجاه أمن جماعته

واجب على كل فرد داخل جماعته أو مجموعته أو الكيان المنخرط فيه، الحفاظ والمحافظة على المشروع والعمل وإخوانه، وهذا واجبه الشرعي والأخلاقي والمنطقي لاستمرار النجاح والتطوير وديمومة العمل وتماسك الرفاق وذلك يتحقق من خلال:

1. ترك الفرد ما لا يعنيه

ليس من واجب الفرد التدخل بكل الشؤون والانشغال بها، قال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». [رواه الترمذي].

ولا نقصد أن يكون الفرد إمعة لا ينشغل بغير نفسه وواجبه، بل واجبه التفكر والتدبر والتدخل وتقديم الرأي والمقترحات، لكن ضمن اختصاصه ومجال عمله وعدم القفز فوق الاختصاص أو التعدي على الغير بدون إلمام علمي.

2. ترك الفضول

عن عقبة بن عامر قال: قلت يا رسول الله ما النجاة؟ فقال النبي ﷺ: أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتُك، وابكِ على خطيئتك. [صحيح الترمذي].

الفضول يقتل صاحبه، ومن ابتلي به فعليه تدريب نفسه لتركه والتوقف عنه من خلال الانشغال بما هو أنفع ومخاطبة النفس باللامبالاة التي تدفعه للفضول.

3. صيانة المعلومات

قال عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه: لا تعرضنَّ فيما لا يعنيك، واعتزل عدوَّك، واحتفظ مِن خليلك إلَّا الأمين، فإنَّ الأمين مِن القوم لا يعدله شيء، ولا تصحب الفاجر يعلِّمك مِن فجوره، ولا تفش إليه سرَّك، واستشر في دينك الذين يخشون الله عزَّ وجلَّ. [رواه البيهقي].

وقال الإمام النّووي: اعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام، الا كلامٌ تظهر المصلحة فيه، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة، فالسنة الامساكُ عنه لأنه قد ينجرُ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه، بل هذا كثيرٌ أو غالبٌ في العادة، والسلامة لا يعدلُها شيء. [كتاب آفات اللسان].

إذًا فصيانة وحفظ المعلومات الخاصة بعمله وحول قيادته وإخوانه في العمل الاختصاصي أو غيره، فهي تعتبر أمانة شرعية في العمل الاستخباراتي والأمني وواجب أخلاقي، وعدم حفظ هذه الأمانة تعتبر خيانة عظمى، وقد ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له». [رواه أحمد].

4. تجاهل المعلومات

بعض المعلومات التي لا يحتاجها الفرد وغير معني بها، فلا حاجة أصلًا لمعرفتها أو الاحتفاظ بها أو حملها.

5. الحفاظ على النفس

عدم الاستهتار بالحماية الشخصية واعتماد أساليب الأمن الفردي، حتى لا يؤتى إخوانك من قِبَلك فالقضية ليست شخصية وخاصة بك، إنما هي أمان لباقي الأفراد ومن أتمنك منهم، وقد وصف النبي ﷺ المنافق في أربع علامات منها خيانة الأمانة، فقال ﷺ: «آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان». [رواه البخاري].

واجب الجهاز تجاه أمن أفرده

يقع على عاتق قيادة الجماعة أو المجموعة، تأمين سبل الحماية والكفاية لأفرادها للحيلولة دون تعرضهم للمخاطر أو وقوعهم ضحايا تجنيد عكسي ويتحقق ذلك من خلال:

1. وضوح الهدف

يجعل الفكر نقيًا ونفوس العاملين في راحة وطمأنينة مما يدفعهم نحو إنتاجية أفضل.

2. الحماية الكافية

من خلال التحصين النفسي والمادي والمعنوي، فتخصيص فريق للأمر يمنح باقي العاملين عدم الانشغال بعامل الخوف النفسي من عمليات اختطاف أو اغتيال أو اختراق.

3. منح الطمأنينة

ويتحقق من خلال أسلوب وكيفية التعامل بين الرئيس والمرؤوس وجعل الأمر على مبدأ الندية في العمل والتكاملية وترك أسلوب الفوقية والأوامر الجافة، فيمكن إعطاء الأوامر بطرق كثيرة تمنح المتلقي الشعور بالرضى والراحة.

4. تعزيز الثقة

الثقة هي العامل الرئيسي في استمرار ونجاح العمل ويتحقق من خلال التقارب ورفع كثير من الحواجز وتفنيد الشبهات من خلال الشفافية والصدق مما يجعل الأفراد أكثر ثقة بقيادتهم وتمسكًا بهم.

5. منح الفرص

إعطاء الأفراد الفرص لتقديم وتقييم إمكانياتهم من خلال مساحة من حرية العمل بدون المخاطرة، مما يجعل الأفراد في منافسة فيما بينهم لتقديم الإبداع وطاقة كاملة في التطوير.

إن الإسلام اعتنى بالأمن وتحقيقه واقعًا، وقد كان النبي ﷺ، أشد الحرص في العمل الأمني، بل علم أصحابه رضوان الله عليهم الأمن، ونمّا عندهم الحس العالي الذي يمكنهم من الحفاظ على النفس والجماعة، وفي السيرة النبوية أجمل الصور التي تعبر عن حقيقة الأمن وتطبيقه، لذا لا بُد من المرور ثم التدبر فيها.

صور من الأمن الإسلامي

إن القارئ لجوانب السيرة النبوية والمطلع لتفاسير الآيات، سيجد أن الأمن كان له جانب كبير في العمل والتنبيه له إبان تأسيس أركان الدولة الأولى أو فيما يخص دعوة الأنبياء وهذا ما تعلمه من بعدهم أصحابهم سلام الله عليهم.

◈ الدعوة السرية

بعدما بدأ النبي ﷺ الدعوة سرًا والتحق به بعض من حوله، كان أشد الحرص في تدابير الأمان من بطش قريش، فكانت الصلاة سرًا ومن خلال مجموعات صغيرة، يقول ابن اسحاق في السيرة النبوية لابن هشام: وكان أصحاب رسول الله إذا صلوا ذهبوا إلى الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم. (والشعاب جمع شعب، وهو الأرض التي تقع بين جبلين)، نلاحظ الدقة الأمنية حتى في اختيار الموقع مما يعطينا انطباع في العلم الطبوغرافي عند النبي ﷺ، فلم يقتصر الأمر أن تكون فقط مجموعات صغيرة تتناوب الصلاة، بل في مكان آمن مستتر يمنع رؤيتهم من المارة.

حتى الدعوة بحد ذاتها كانت في أعلى درجات الحس الأمني لدى خير البشر عليه الصلاة والسلام، فكانت خططه محكمة بشكل دقيق مدركًا أن أي خطأ في العمل أو من أصحابه سيؤدي لصعوبات بالغة في استكمال مسير الدعوة، فكان حريصًا ليس فقط على نفسه بل حتى كان يربي وينمي الحس الأمني فيمن معه رضوان الله عليهم، فمثلًا لما أراد التوجه للطائف لدعوة أشخاص أعد أسماءهم مسبقًا، خرج من مكة ماشيًا ولم يكن راكبًا لخيل أو بعير فاختياره المشي يبعد الشكوك حول نيته قصد السفر وتوسع الدعوة، وأخذه لمولاه زيد وهو طفل صغير أسلم مع النبي ﷺ، كان يجعل من يرى النبي صلى الله عليه، يستبعد الشكوك فيه بطلبه سفرًا خارج مكة ومعه طفل، فاختياره لزيد دون غيره ممن أسلم كان عملًا تضليليًا للكائدين والمراقبين للنبي ﷺ.

عمل النبي ﷺ على تذكير المسلمين الجدد أن يحفظوا سر إسلامهم حتى عن أقرب الناس بهم، وما كان ذلك إلا لضمان بناء قاعدة متينة للدين الحنيف تحول ضد أي حرب شرسة تفضي بالفتك بالأتباع القلائل للنبي ﷺ، والتزم المسلمين بأوامر النبي ﷺ أشد التزام في الفترة الأولى قبل أن ينتقل النبي ﷺ للمرحلة الثانية.

فكانت اللقاءات سرية جدًا ومن خلال مجموعات صغيرة أو من الممكن أن نسميها خلايا، كانت تأتي لتستمد من النبي ﷺ تعاليم الدين ثم تأتي غيرها بالتناوب، فقد عمد النبي ﷺ على منع التجمعات الكبيرة أو الملفتة للنظر، وبالنظر للسيرة النبوية نجد أن كثيرًا ممن أسلم بقي يزاول أعماله ونشاطه دون أي شكوك حوله تجعل قريش تبطش به، وما كان ذلك إلا بحرص النبي ﷺ وتوجيهاته أولًا ثم بأوامره التعليمية للأفراد الجدد ورفع حسهم الأمني.

◇ دار الأرقم

لما صار عدد المسلمين في الدعوة السرية نحو ثلاثين، كان لا بُد للنبي ﷺ أن يجتمع بهم ليعلمهم أمور دينهم ويتحدثوا عن المرحلة الحالية ثم الخطط المستقبلية، فكان يحتاج النبي ﷺ مقرًا آمنًا يتم الاجتماع فيه بشكل دوري ويكون سريًا للغاية وبعيدًا كل البعد عن شكوك قريش، أو حتى أن يمر في خاطرهم أن يكون النبي ﷺ في هذا المكان، فاختار دار الأرقم بن أبي الأرقم لمزايا كثيرة، أهمها أن الدار بمعزل عن قريش وفي نفس الوقت سهلٌ الوصول إليها من قبل المسلمين الجدد، فهي أسفل جبل الصفا وتمر بطريق كل من يطلب الدخول لمكة أو الخروج منها، كما أن الأرقم بن أبي الأرقم من بني مخزوم التي حملت لواء الحرب ضد بني هاشم لسنوات مديدة بغية فرض السيطرة على إدارة قريش، فالأرقم بعيد عن الشكوك تمامًا وبالأخص أن قريش لم تكن تعرف بإسلام الأرقم الذي كان يخفي إسلامه، كذلك لم تكن قريش لتشك باجتماع النبي ﷺ عند داره وهو في السادسة عشرة من عمره، فكانت تبحث في بيوت كبار السن عن تلك الاجتماعات السرية التي تجري، ولم تستطع قريش أبدًا كشف المقر السري، فكان اختيار النبي ﷺ غاية في الدقة بل علم أصحابه من اليوم الأول التحلي بالحس الأمني والتنمية العقلية ضد الاستخبارات المعادية وفنون خداعها، فيوم أشبعت قريش أبو بكر الصديق ضربًا حتى أغمي عليه، ذهبت أمه أم الخير إلى أم جميل بنت الخطاب (فاطمة

أخت عمر الفاروق) رضي الله عنهم جميعًا، تسألها عن مكان النبي ﷺ، فسألتها أم جميل عن السبب، فأخبرتها بما جرى لأبي بكر الصديق، فطلبت منها أن ترى أبي بكر بعينها، نلاحظ الحس الأمني العالي وكيف أن النبي ﷺ ربا المسلمين على الدقة والحذر، فأخذتها لمكان أبي بكر فرأته كما أخبرتها عن حاله، فطمأنها الصديق من ناحية أمه، فاطمأنت أم جميل وانتظرت حتى هدأ المكان وغاب الناس ثم حملت الصديق مع أمه يجرانه متكئًا عليهما من شدة ما لاقى من ضرب قريش .

حتى علي رضي الله عنه كان قد برع في فنون التملص من المراقبة والحس الأمني، فعندما أراد أن يأخذ أبي ذر لملاقاة النبي ﷺ في دار الأرقم، وضع خطة يمشي عليها مع أبي ذر، فقال له: إن رأيتُ أحدًا أخافه عليك، قمت إلى الحائط كأني أصلح نعلي .

ويقصد علي أنه إن رأى أحد يراقب أبي ذر ويتتبعه، فستكون إشارة قيام علي للحائط وإصلاح النعل إنذار خطر لأبي ذر أنك مراقب، رضوان الله عليهم كم حرصوا على قائدهم ومقرهم وأنفسهم، وهذا لم يكن لولا دور القائد العظيم في تربية وتنمية الأمن في نفوسهم.

الهجرة للمدينة

كانت قريشٌ قد فرضت على النبي ﷺ حصارًا نفسيًا واجتماعيًا وأمنيًا، لكن النبي استطاع قهرهم وإفشال كل حصارهم حينما قرر الهجرة للمدينة لتنتقل دعوته للمرحلة العلنية العامة، فوضع خطة هي من أنجح الخطط على الإطلاق، بل كانت لبنة في تأسيس الدولة الإسلامية، فاختار من يصحبه وكان أبو بكر الصديق فأبلغه وقت الظهيرة والناس في بيوتها فترة الراحة، فتسلل إليه ملثمًا، ثم اختار علي ابن عمه لينام مكانه كي لا تفقده قريش بوقت مبكر، فقد احتاج النبي ﷺ وقتًا كافيًا ليبتعد عنهم قبل أن يكتشفوا الأمر، ثم اختار الدليل الثقة الذي سيأخذه للمدينة عبر طريق مهجور وملتف حتى إذا عرفت قريش بعلي وأرادت اللحاق بالنبي ﷺ، سيختارون الطريق المعتاد والأقصر بظنهم أن النبي ﷺ سيطلبه للسرعة، ثم اختار النبي ﷺ من يمده بالمؤنة لأن السفر سيكون أطول من المعتاد، فكانت أسرة أبي بكر مسؤولة عن الإمداد بالمؤنة، واختار من يجلب له الأخبار وينقلها عنده وهو في طريق سفره حتى يعرف حركات قريش باستمرار، ولم يغب عنه ﷺ أن يخفي أثر سيره بأن يجعل الأغنام

تمشـي فوق خطواته، فكان بأبي هو وأمي عقلية فذة قهرت كل مخططات قريش واجتماعهم عليه برغم وجود الدهاة بينهم .

لقد كلف أبو بكر الصـديق ابنه عبد الله بأن يكون عينًا له وللنبي ﷺ في مكة، ففي الصباح يخالط الناس في مكة ويجمع الأخبار ويصغي لكل كبيرة وصغيرة، وفي المساء يتوجه خفية إلى المكان السري للنبي ﷺ والصديق في غار ثور، فينقل لهم الأخبار وما تحيك قريش لهما وحينما يريد العودة يمشي خلفه عامر بن فهيرة بالأغنام ليمحي أثر خطواته.

◈ الجهر بالدعوة

بعدما تحولت دعوة النبي ﷺ من السـر للجهر بها في مكة بعد السـنة الثالثة من بعثته، بقي حريصًا كل الحرص على أن يكون المنتسبين للإسلام سريين غير معلنين حرصًا عليهم ولضمان العمل لهم براحة أكبر دون التعرض لبطش قريش، فكانت تجري الاجتماعات بشكل سري وحتى الصلوات كانت سرية كما مر معنا أنهم كانوا يصلون من خلال مجموعات وفي شِّعب الجبال يستخفون من عيون قريش، إلا بعض الشخصيات التي كان إشهار إسلامهم ضرورة كإعلان عمر الفاروق إسلامه وحمزة بن عبد المطلب.

◈ يوم الأحزاب

لقد كان حذيفة بن اليمان من أمهر رجال الاستخبارات وأكثرهم نباهة وبديهة، فلما أرسله النبي ﷺ لينظر خبر المشركين حول المدينة، دخل بينهم يلاحظ كل كبيرة وصغيرة وفي تلك الأثناء صرخ أبو سفيان: يا معشر قريش لينظر كل امرئٍ من يليه، وذلك لأنهم حسوا بوجود عيون للنبي ﷺ بينهم فأرادوا كشفه بأسرع طريقة وهي أن يتعرف الناس على بعضهم ويبقى الدخيل فردًا أو ينكره أحد القوم فيتعرفون عليه، لكن حذيفة كان أسرع بديهة منهم جميعًا، فما أن انتهى أبو سفيان من كلامه حتى أخذ حذيفة بيد من بجانبه يسأله من أنت؟ بنبرة الواثق من نفسه الشاك بالآخر، فقال له فلان بن فلان. فأظهر حذيفة وكأنه واحدٌ منهم حريصًا عليهم وعلى كشف الدخيل وجنب نفسه المساءلة حيث بادرهم.

هذه النباهة مقرونة بالشجاعة، وهذه الشجاعة استمدها الرجال من قائدهم محمد رسول الله ﷺ، حيث كان النبي ﷺ يختار الرجال المناسبين لكل مهمة بعد أن زرع فيهم روح الفداء والإقدام والشجاعة المضاعفة، وكان هو أشجع الخلق وأكثرهم حرصًا وإقدامًا، يقول ابن عمر رضي الله عنهما واصفًا شجاعة النبي ﷺ وحرصه على المسلمين : ما رأيت أشجع ولا أنجد ولا أجود ولا أرضى من رسول الله ﷺ ، لقد فزع أهل المدينة ذات ليلة إذ سمعوا صوتًا قويًا غير عادي، فانطلق الناس نحو الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا وقد سبقهم إلى الصوت وعرف الخبر، وكان راكبًا فرسًا عاريًا والسيف في عنقه وهو ينادي أصحابه بأن لا يخافوا ولا يرتاعوا .

ويقول علي ابن أبي طالب: كنا إذا احمرَّ البأس ولقي القوم القوم، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم، فما يكون منا أحد أدنى إلى القوم منه. [رواه أحمد].

ومن هذه الشجاعة استمد أصحابه الشجاعة في كل أعمالهم مع الحذر والنباهة، فهاهما أنس ومؤنس ابنا فضالة بن عدي يدخلان معسكرات قريش ويصيران معهم فيجمعان أدق المعلومات والتفاصيل وفي اللحظة المناسبة يعودا للنبي ﷺ يخبراه بما جمعا من معلومات استخبارية ما كان يمكن الوصول لها بدون تلك الشجاعة في العمل والحس الأمني العالي الذي حال دون كشفها، ومثلهم كان عبد الله بن حدرد لما دخل معسكر هوزان، ومثله نعيم بن مسعود الذي حرش بين الأحزاب، وغيرهم الكثير من الصحابة الكرام الذين اختارهم النبي ﷺ لمثل المهام الاستخباراتية والأمنية .

◇ الرسائل السرية

كان النبي ﷺ حريصًا جدًا أن تتسرب المعلومات التي لا ينبغي لها أن تخرج للعامة، إن كان عامة المسلمين خوفًا على معنوياتهم، أو خشية جواسيس العدو، فكان النبي ﷺ يستعمل أبي بن كعب لقراءة الرسائل والمكاتبة، وبعد أُبي استعمل النبي ﷺ زيد بن ثابت لهذه المهمة الحساسة والتي عرف النبي ﷺ أهميتها الكبيرة، روى ابن عساكر أن النبي ﷺ قال لزيد بن ثابت: إنها تأتيني كُتبٌ لا أحب أن يقرأها كل أحدٍ، فهل تستطيع أن تتعلم العبرانية أو قال السريانية؟، فقلت نعم.

وبالفعل تعلمها زيد رضي الله عنه بخمسة عشر يوم.

كذلك وفي سياق الرسائل السرية والتي تُعبر عن الحالة الأمنية، تلك الرسالة التي أعطاها النبي ﷺ لعبد الله بن جحش، يقول عبد الله: دعاني رسول الله ﷺ حيث صلى العشاء فقال: وافِ مع الصبح معك سلاحك أبعثك وجهًا. أي أرسلك لمهمة، قال: فوافيت الصبح وعليَّ سيفي وقوسي وجعبتي ومعي ورقتي، فصلى النبي ﷺ بالناس الصبح ثم انصرف، فوجدني قد سبقته واقفًا عند بابه، وأجد نفرًا معي من قريش، فدعا رسول الله أُبي بن كعب فدخل عليه، فأمره رسول الله وكتب كتابًا، ثم دعاني فأعطاني صحيفة من أديمٍ خولاني، وقال: قد استعملتك على هؤلاء النفر، فامضِ حتى إذا سرت ليلتين فانشر كتابي، ثم امضِ لما فيه.

أي بعد مسيرك ليلتين أخرج الرسالة واقرأ ما فيها وليسمع ما فيها من معك، وبالفعل نفذ الجندي الأمر بحذافيره وبعد ليلتين نظر عبد الله في الرسالة فإذا فيها (إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل – نخلة – بين الطائف ومكة فترصد بها قريشا وقف لنا على أخبارهم) وما إن أتم عبد الله الكتاب حتى قال: سمعًا وطاعة لنبي الله.

ثم قال لأصحابه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرني أن أمضي إلى نخلة لأرصد قريشا حتى آتيه بأخبارهم وقد نهاني أن أستكره أحدًا منكم على المضي معي، فمن يريد الشهادة ويرغب فيها فليصحبني ومن كره ذلك فليرجع غير مذموم، فقال القوم : سمعًا وطاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، إنما نمضي معك حيث أمرك نبي الله .

الأمثلة على الحرص النبوي للأمن والسرية في أمن المعلومات هي أكثر من أن تُعد وتحصى، فالنبي ﷺ لم يكن فقط نبيًا من الله مؤيدًا بالوحي، بل كان رجل دولة حقيقي فعلي، علم أصحابه ورعيته كيف تقوم الدولة وتبنى ركائزها وكيف يتم الحفاظ عليها وعلى أمنها.

◇ بيعة العقبة

ثم في بيعة العقبة تلك الخطة الأمنية في اللقاء، غاية في الدعوة للتأمل والتفكر، يقول كعب بن مالك رضي الله عنه وهو ممن حضر البيعة، يقول: "ثم خرجنا للحج وواعدنا رسول الله بالعقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله،

وكنا نكتم ومن معنا من قومنا المشـــركين أمرنا، فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضـى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسـول الله نتسـلل تسـلل القطا مسـتخفين، حتى اجتمعنا في الشَّعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلًا".

وما فعله المجتمعون للبيعة كانت توصيات النبي صلى الله عليه وسلم لهم، فاختيار أوسط أيام التشـريق كان بسـبب قلة تحرك الناس وسـكونهم، وكان النبي ﷺ حريصًـا على تنبيه القادمين للبيعة أن يكتموا أمرهم مع من جاء معهم للحج، والحج هنا للكعبة ما قبل الإسـلام أي الحج الذي كان في عهد الشـرك والأصـنام حول الكعبة، وكان النبي ﷺ أمرهم التسـلل بعد انقضـاء الثلث الأول من الليل لأن الناس تكون دخلت في النوم العميق، فقبله قد يكون هناك بعض السـاهرين ممن أثقل عليهم النوم وبعد ذلك الوقت يكون اقترب الصـباح وموعد اسـتيقاظ الناس، مما يهدد في كشـف الاجتماع أو يضـطرون لأنهاء الاجتماع قبل إتمام ما جاؤوا لأجله، وأمره لهم بالتسـلل من رحالهم وبين قومهم حتى لا يتنبه أحد لكثرة الخارجين من رحالهم، ثم اختار النبي ﷺ الشِّعب مكانًا للتجمع حتى يكونوا مستترين بين الجبلين احتياطًا أن يراهم أحد المارة بشـكل مفاجئ، وكذلك منعًا لتسـلل أصـواتهم في الفلاء عبر نسـائم الليل، فكما نقول في العامية (الليل يودي) أي يحمل الهمسات لمسافات لا تصل في النهار، وقد ذكرت بعض المصادر أن النبي ﷺ أمرهم أن يأتوا أفرادًا ولا يتأخروا عن الموعد أبدًا لأي سـبب، ومن فاته الوقت وأخذه النوم فلا يوقظه أحد، لأن انتظار من شـغله شـيء أو إيقاظ النائم قد ينبه من حولهم ويثير الشـكوك حولهم وسـبب اسـتيقاظهم في مثل هذا الوقت وذلك قد يمنع خروجهم، هذه التوصيات من النبي ﷺ جعلت الكل متنبهًا قبل الموعد وبالفعل لم يتخلف أحد أبدًا.

لقد تم الاجتماع وعقدت البيعة وكانت خطة غاية في الدقة من اختيار التوقيت والمكان ثم الطريقة.

◈ بعد النبي ﷺ

لو أردنا الحديث كاملًا عن تدابير النبي ﷺ الأمنية وحسه العالي، فلن يسعني الوقت ولا الحبر، حيث يكاد لا يخلو تصـرف عنده بأبي وأمي هو إلا وفيه النباهة والبداهة والبلاغة والدهاء، ولقد اسـتفاضـت كثير من الكتب في هذا الجانب، حتى بعد وفاة سـيد الخلق كان الخلفاء من

بعده أحرص ما يكونون على إكمال النهج ومنها الجهاز الأمني وما يتطلب، فأبو بكر الصديق كان أشد الحرص بتذكير القادة بضرورة الاعتناء بالعيون للاحتياط الأمني العام والخاص، ومن بعده الفاروق عمر ابن الخطاب الرجل الذي يبدو اختص في مكافحة التجسس وتجفيف منابع عيون العدو، فها هو أمر بترحيل مدينة كاملة كانت تشكل خطرًا على ثغور المسلمين، مدينة "عربسوس" وذلك بعد أن بدأ الخطر يكبر أمر بإعطاء أهلها ضعف ملكهم وما عندهم مقابل الرحيل عن المدينة والمدة تكون سنة، وبالفعل حصل ذلك ثم خرب المدينة وأنهى خطرًا عظيمًا، كما كان رضي الله عنه صاحب حس عالي في الأمن فكتب لقادته : لا تجلبوا علينا من العلوج أحدًا جرت عليه المواسى . أي لا تدخلوا للعاصمة التي تضم أبرز شخصيات الدولة، أحدًا من ذكور السبي ممن بلغ الحلم، لقد كان يشعر بخطر تجنيدهم، كما كان قد منع زواج القادة عنده من الكتابيات خوفًا على عمليات الاغتيال أو تسرب الأخبار من خلال تعاطفهن مع بني جنسهم، وكان عمر الفاروق قد طور الجهاز الأمني والاستخباراتي ككل حتى قيل أن للخليفة عمر عيون في كل جيش كما جاء في تاريخ الطبري.

وكذا من بعده حرص القادة والخلفاء إلى وقت بعيد مستفيدين من التجارب السابقة والخبرات المتاحة.

باب

التجنيد

التجنيد الاستخباراتي

◈ تعريف

هو من فعل جَنَّدَ أي جعله جنديًا وهيأه لذلك، ويأتي الجندي بمعنى أنه صار من الأنصار والأعوان.

فمن الممكن قول إنه عملية ضم وإتبَاع العنصر البشري بعمل ما، وقد يكون من خلال عملية طلب الشخص أو من خلال اكتشافه أو الحاجة له، ويكون قرار تجنيده بحسب الحاجة والسبب.

◈ مفهوم التجنيد

عملية البحث عن الأشخاص للتجنيد هي عملية غير محدودة بوقت أو ظرف وغير مضبوطة بأسلوب محدد مؤطر، إنما مفتوحة المصدر.

الرئيس الأسبق للشاباك "يعكوف بيري" في كتابه (الآتي لقتلك) وهو أهم الضباط الذين نجحوا بتجنيد كثير من العملاء تحديدًا العرب منهم، يقول: " عملية تجنيد العملاء تعتمد بشكل أساسي على القدرات الإبداعية التي يتمتع بها القائمون على هذه المهمة وقدرتهم على تطوير أدائهم بما يتناسب مع حجم المسؤولية الملقاة على عاتقهم ".

وتنشط عمليات التجنيد في مناطق وبؤر النزاعات والحروب، ودائمًا يكون المنتصر ولو نصرًا جزئيًا، هو المؤهل بالقدرة الأكبر على عمليات التجنيد الأوسع والأسهل، وذلك أن معظم الناس تنبهر بالمنتصر وبعضهم يسعى لكسب موقع في الحالة الجديدة أو كسب مصالح شخصية أو تحصيل مزايا معينة.

كذلك من الأمور التي تُسهل عمليات التجنيد، ضعف الشعور بالانتماء العقدي أو الوطني أو العرقي، هؤلاء تحويلهم لعملاء ومجندين يكون بشكل سهل، أما اللاهثون وراء المال فهي آخر الأسباب التي يجب أن يفكر فيها القائمون على العمل فهي لا شك لا بُد منها، لكن تخلق حالة عدم ارتياح من التعامل معهم بسبب الافتقار لأدنى ثقة مطلوبة، ويبقى الأمر لا بُد منه.

إن عمليات التجنيد ليست مقتصرة على التجنيد الاستخباراتي كعملاء سريين وجواسيس أو مجندين خلف الخطوط كمقاتلين أو حتى التجنيد العسكري، إنما هي أوسع من حصرها في أفق ضيق ومحدد، فقد يكون هناك أهداف أخرى كخلق حالة معينة في المجتمع كالفوضى الخلاقة مثلًا، وهي إحداث فوضى مجتمعية أو في البنية الحكومية بهدف تعديلات نظام الحكم ثم استقرار نظام موجه بعده، أو قد تكون فوضى منظمة طابعها العشوائية لكن في حقيقتها الدقة في التخطيط والعمل والممارسات، وهذا كله يتم من خلال تجنيد أكبر قدر ممكن من النخب والكوادر في المجتمع أو بنية الكيانات، وقد يكون التجنيد بغية التخريب الممنهج الذي يستهدف تغيير الثقافات أو المعتقدات عبر الإعلام بأدواته المسرحية والإخبارية والفنونية، أو تزوير المناهج والكراسات الدراسية ضمن خطة طويلة الأجل تعتمد على مرور ثلاثة أجيال بأقل تقدير، أو تحويل المجتمعات المحافظة إلى مجتمعات ذكورية أنثوية يطغى فيها إثارة الغرائز وطلب الشهوات وهذا كله يتم من خلال التجنيد الفكري لشخصيات محددة من المجتمع أو زراعة مجندين ثم تصديرهم كنخب مجتمعية، ولعلنا لو نظرنا لبعض الدول العربية التي بقيت محافظة على تقاليدها وثقافتها وأعرافها لوقت متأخر، ثم كيف بدأت تنحل وتتحلل سنلاحظ أن الامر لم يكن محض حدث عابر وتطورًا جاء بشكل تلقائي!، ثم لوجدنا أن أهم الأسباب تصدر المجتمع شرذمة من منحطي الأخلاق، سفهاء القوم لم يكن لهم صدى من قبل .

ومن أهم أدوات المجندين ضمن الحرب النفسية الفكرية، إثارة الشبهات ثم تضخيمها وجعلها المحور المفصلي لتسهل بعدها عملية بث الشائعات ثم ترويج الدعاية المطلوبة لتتحقق حالة التسمم الفكري التي تأتي بعده عملية غسل الأدمغة ثم حشوها بالمراد.

التضليل والتشويش من الأدوات اللازمة كذلك لافتعال الأزمات وتسييرها بطريقة تصب في صالح الجهة التي تقف خلف مثل هذا النوع من الغزو.

لقد قلنا أن التجنيد فن عظيم غير مؤطر ببنود محددة، بل هو فن متجدد يكاد يكون مُحَدَّث كل يوم وذلك مع تطور الوعي، لكن عملت جهدي وضعه ضمن بنود محددة بأكبر قدر ممكن

من الوسع الذي يشمل هذه الحرفة، حتى ندرك طريقة التجنيد إما لاحترافها، أو لبناء مناعة منها بعد معرفة أهدافها وأساليبها وأدواتها.

أهداف التجنيد الاستخباراتي

1. الاختراق

أي الاختراق للجهة المطلوبة إما من خلال تجنيد أحد أعضائها أو زراعة عضو جديد فيها.

2. مكافحة الجواسيس

وذلك يتحقق من خلال تجنيد جواسيس وعيون داخل المنظومة أو الجهاز المعادي لمعرفة العملاء التابعين له العاملين في الجهاز الصديق، أو يتحقق من خلال زراعة فرد ضمن شبكة تجسس معادية.

3. كسب معلومات

وتكون أي معلومات صغيرة أو كبيرة ممكن جمعها عن العدو أو هدف محدد من خلال القدرة على تجنيد فرد معادي بعملية عكسية، أو من خلال زراعة فرد في مكان مطلوب يحقق الغاية.

4. زراعة الخلايا

وهي من أهم الأمور التي يطمح لها مكتب التجنيد، زراعة خلايا على كافة المستويات من خلايا شغب أو خلايا مراقبة ورصد أو خلايا إمداد لوجستي لرجال خلف الخطوط، والهدف الرئيسي من التجنيد يكون بغية زراعة أفراد خلف الخطوط إما عن طريق التجنيد ثم إرسالهم، أو من خلال تجنيدهم في مواقعهم داخل مناطق أو بنية تنظيم العدو.

5. الغزو الفكري

ويتحقق هذا النوع من أهداف التجنيد من خلال تجنيد الكوادر والنخب المفكرة على المستوى الثقافي والاجتماعي ويكون لها أثر في المجتمع، أو من خلال تجنيد السفهاء ثم تصديرهم في أوساطهم المجتمعية.

وللتجنيد خطوات تسبقه يحتاج مكتب التجنيد المرور بها فهي بمثابة مبادئ لا يمكن القفز عنها للحيلولة دون الوقوع بالأخطاء ما أمكن.

مبادئ التجنيد الاستخباراتي

1. التحري

جمع المعلومات الممكنة عن الشخص المراد تجنيده بشكل طوعي أو عن طريق الاكتشاف أو الاصطياد.

2. التقييم

تحليل المعلومات التي تم جمعها لتقييم مؤهلاته وقدراته بغية اختيار المهمة التي تتناسب معه.

3. الاختبار

إخضاعه لاختبار نفسي وعقلي للتأكد من قدرته على تقديم فائدة مجدية ضمن العمل الذي تم اختياره له.

4. المراقبة

وضعه تحت المراقبة العملية وتُحدد بحسب الحاجة لتلك المراقبة وهي تعتمد على نوعية عمله ضمن جهاز المخابرات أو المهمة المكلف بها

5. الوضوح

توضيح المهمة المطلوبة منه وتحديدها بشكل دقيق وعدم تشعيبها إن كان لعملية تجنيد الهدف أو المطلوب من المُجَنَد.

6. الثقة

يتم تقييم الثقة بالاعتماد على نوعية التجنيد الحاصلة ثم بحسب الحاجة لتلك الثقة وارتباطها بالعملية والمجند، فمن الضروري عدم إغفال ربط الثقة بالمجند وطريقة تجنيده التي كانت.

الأشكال العامة للتجنيد الاستخباراتي

1. الاكتشاف

يختلف من شخص لآخر وذلك بعد دراسة المراد تجنيده ومعرفة أدق التفاصيل عنه، ثم يتم اختيار الزمان والمكان المناسبين والطريقة الأنسب لطرح الموضوع، وقد تحصل عملية تجنيده دون إخطاره أنه أصبح مجندًا استخباراتيًا، هذا كله تحدده الظروف.

2. التطوع

وهي أن يتقدم الشخص من تلقاء نفسه بطلب الانضمام للعمل بالعموم أو بتحديده المجال الذي يريد، بما معناه عرض الخدمات.

هذا النوع يعتبر خطير وحساس حيث معظم الأجهزة المعادية وبعد تدريب جواسيسها، تجعلهم يدخلون مواقعهم بطريقة رسمية روتينية حيث أن التطوع لا يمكن الاستغناء عنه، وبالقدر الذي يحقق نجاح في تطوع كوادر ونخب بالقدر الذي تكمن في خطورة الاختراق.

3. الإجبار

وهو التجنيد عن طريق الضغط بالابتزاز والتهديد، في الغالب تنجح عملية التجنيد الإجباري وتحقق نجاحات ثمينة، لكن تحتاج خططًا عميقة لتدارك الخداع الذي قد يحصل من المجند المجبر وهو أول شيء سيفكر بفعله.

4. التسول

ذلك أن بعض البشر لديهم دناءة نفس وحب للمال، فلا شيء يضبطه إن كان معتقدًا دينيًا أو انتماءً وطنيًا، إنما مبدأه جمع المال لكن بدون إظهار ذلك بشكل علني ومباشر أو قد يكون الظاهر نقيض حقيقته.

5. الحيلة

وهي جعل الهدف يقدم الخدمات أو المعلومات بدون معرفته الجهة الحقيقية المستفيدة منها، كما من الممكن أن توكل له مهامًا ظاهرها شيء وباطنها شيء، ومعظم عمليات التجنيد المتحايل تستهدف الأشخاص الذين لديهم حب الأنا، أو عندهم العجب بالنفس، وأول تلك الاستهدافات تضرب النخب أو الكوادر الصغيرة الصاعدة أو الجهال الموهومون بأنفسهم.

◈ تدابير مهمة

بعض عمليات التجنيد تفشل إما بعد التكليف بالعمل أو أثناء الإفصاح والتلويح بعملية التجنيد، وهنا يجب اتباع خطوات مهمة وليس الأمر يكون بشكل عبثي اعتباطي (اعتباطي أي لا مبرر له).

فإن كان ضمن عمله وتم صدور قرار سري بتسريحه والاستغناء عن مهامه لسوء عمله، فيتم أمر التسريح بشكل متدرج من خلال تكليفه بأعمال أقل أهمية وبسيطة حتى يكون مستعدًا نفسيًا لفهم عدم جدوى بقائه في العمل، وإن كان قد قدم خدمات جيدة لكن ثمة مخاوف من بقائه في العمل لأي سبب، فيتم مصارحته من قِبَل الضابط أو الشخص الأقرب له وبأسلوب تكريم لعمله وخدماته.

أما التصادم مع الفشل أثناء عملية تجنيد الشخص، فيكون الانسحاب بطريقة مقنعة معدة مسبقًا كخطة احتياطية، تقنع الهدف أنه فهم الأمر خطأً أو حمله على غير محمله.

وبشكل عام فإن عمليات التجنيد لا تكون عشوائية، بل ثمة قواعد لها وصفات خاصة يجب أن تتوفر بالمجند، كذلك لا يمكن لأي شخص العمل على تجنيد الأفراد بل يتطلب الأمر صفات معينة وقدرات محددة.

صفات مطلوبة في المُجَنِد

رجل أو ضابط الاستخبارات الذي يكون مسؤولًا عن عمليات تجنيد العملاء أو اكتشاف الأشخاص المناسبين لعمل استخباراتي يجب أن تتوفر لديه شروط، ومن أهم تلك الشروط:

1) يجب أن يتمتع بمعرفة جيدة بعلم النفس والاجتماع.
2) يمتلك خبرة واسعة بفن الأمن الشخصي والأمن العام.
3) لديه خبرة واسعة وثقافة جيدة في علم الاستخبارات وحرفتها.
4) لديه صفة "الكاريزما" فهي تلعب دورًا نفسيًا مهمًا.
5) موهوب بالفراسة بغض النظر عن درجتها.
6) لديه حواس مميزة أو ما يُقال بالحاسة السادسة.

صفات مطلوبة في المُجَنّد

1) معرفة جدوى تجنيده وأي مهمة مطلوبة منه مسبقًا.
2) منضبط ومنتظم غير متقلب.
3) غير ثرثار أي ليس لديه شراهة في الكلام الغير مفيد.
4) مؤهل عقليًا ونفسيًا.
5) لديه القدرة على الاستيعاب السريع.
6) سيرته الذاتية تحدد مكانته وأهميته.
7) معرفة مدى الحاجة له دون غيره.
8) لديه القدرة على التكيف المطلوب منه ضمن عمله المحدد مسبقًا.
9) غير مثير للشكوك والريبة.

بعد توفر تلك المتطلبات في خطة الاستهداف، تكون المرحلة الثانية هي تحقيق متطلبات بالمجند نفسه، مع مراعاة مجال عمله وموقعه والمهمة المطلوبة منه، لكن سنذكر معظم المتطلبات هنا من ناحية نظرية شاملة كما لو أننا نتكلم عن مجندي خلف الخطوط، ويبقى المطلوب من المجند ضمنها بالاعتماد على موقعه ونوع تجنيده كما نوهنا.

متطلبات في المُجَنّد

1) التدريب على تدابير الأمن الشخصي (الواقعي والعالم الافتراضي/وسائل التواصل).
2) التدريب على طرق التواصل الاستخباراتي.
3) التدريب على طرق التملص من المراقبة والرصد.
4) التدريب على أساليب الاستدراج وطرق الوقاية منها.
5) التدريب على مقاومة الاستجواب ومعرفة أساليب التحقيق.
6) التدريب على المهمة المحددة وعدم الانشغال بمهام غيرها.
7) امتلاك الطمأنينة من خلال إيمانه بأنه يقدم عمل عظيم.
8) إشعاره بأهمية عمله وأنه ضمن أولويات الحماية من قيادته.
9) تقديم العون المادي له وجعله في كفاية حتى يتفرغ لعمله أو لا يكون هدفًا سهلًا للتجنيد العكسي بسبب الظروف المادية.

طرق التجنيد الاستخباراتي

1. التجنيد المباشر

واضح من خلال العنوان أن عملية التجنيد تتم بشكل أسهل وبطريقة مباشرة، لكن لا يعني ذلك بشكل فوضوي أو اختيار عبثي، إنما يخضع الأمر لقواعد وأساليب خاصة سنذكر أهمها:

أ- الاكتشاف

تكلمنا عنها في أنواع التجنيد.

ب- التربية

وهي تعتمد بشكل أكبر على الأطفال في دور الأيتام، حيث يتم أخذهم والعناية بهم بفترة مبكرة، ويتم ذلك من خلال دراسة لسلوك الطفل أو المراهق ومدى قدراته العقلية المتميزة عن أقرانه ثم توقع نسبة تجاوبه في المستقبل وإمكانية نجاحه، وهذا الأمر يحتاج تفرس وهي الصفة المطلوبة في ضابط الاستخبارات.

ج- التزكية

وهي ترشيح شخص ما للعمل ضمن الاستخبارات من قِبل شخص يعمل ضمن الجهاز وله محل ثقة لدى رؤساء الجهاز.

د- العشوائية

وهي أسلوب جديد يعتبر يتم استخدامه من قِبل أجهزة ووكالات عالمية، يعتمد على النشر عبر مواقع التواصل الحاجة لعملاء ومجندين من خلال موقع يتبع بشكل رسمي علني لوكالة استخبارات أو جهاز مخابرات.

هذه الطريقة تنجح بتجنيد مئات العملاء ولا شك بينهم عملاء لصالح أجهزة أخرى، لكن عملية التجنيد هذه تكون محدودة الهدف والغاية منها نفسية أكثر من أي أمر آخر، وفي حالات ضيقة جدًا من الممكن انتقاء أشخاص جيدين أو يكون شخص ما مفيد جدًا وجد فرصة للتواصل وعرض خدماته السرية، لكن بكل الأحوال مثل هذه النماذج تحتاج جهدًا كبيرًا في التأكد من حقيقة الأشخاص وصدق المعلومات مع إخضاعهم لاختبارات قد تكون طويلة الأمد.

2. التجنيد الغير مباشر

وهي استخدام أشخاص محددين بدون علمهم بتبعيتهم أو حجم الفائدة من وراء استخدامهم كما ذكرنا ذلك في شكل التجنيد بالحيلة، فإما يكون مقابل المال أو مقابل مزايا أخرى محددة، بغض النظر عن معرفة الشخص للجهة المستفيدة، هذا الأسلوب في العادة يستخدم مع:

أ- المرتشي

تكون من خلال منح المال أو الهدايا لموظف أو عامل، مقابل الحصول على أوراق رسمية أو تسهيل مرور أوراق مزورة، وقد يتم الاعتماد على الشخص بشكل دائم حتى يصبح في الملف السري متعاون وبدون علمه.

ب- المهرب

هذا النوع من الأشخاص يبحث عن الفائدة الشخصية فوق أي اعتبار، في العمل الاستخباراتي يحتاج الجهاز لتهريب أسلحة أو مواد أو حتى أشخاص عبر حدود دولة أو الحصول على مواد محظورة، فيمكن الاعتماد على مهرب محدد دون الحاجة للتخوف الزائد من اكتشافه للعمل لكن مراعاة الأمن أمر ضروري فقد تدفع له جهة أخرى مبلغًا أكبر، مع وضع الحسبان أن نسبة كبيرة من المهربين يكونون بالأصل أعوانًا للبلد نفسها.

ج- الموظفون

وهو الاعتماد على أشخاصٍ محددين ضمن عمل محدد بطابع التوظيف الرسمي أو الاعتيادي لمهنة الموظف، كالاعتماد على سائق سيارة "تاكسي" نحصل على ثقته ونعطيه شيئًا منها ليبقى حريصًا على استمرار عمله بدون الإكثار من الأسئلة او التدخل في الطلبات، ومثل ذلك ممكن الاعتماد على صاحب مهنة أخرى نحتاجها ضمن العمل.

3. التجنيد الإيحائي

ويُقصد به أن يكون عرض العمل الاستخباراتي بطريقة غير مباشرة لمراقبة ردود الفعل ومدى التقبل للأمر وحتى تكون فرصة التراجع متاحة والانسحاب سهل، هذا العمل قد يكون ضمن المناطق الصديقة وقد يكون له حاجة ضمن مناطق العدو، وفي الحالتين يكون الأمر بحسب الحاجة للشخص ومدى أهميته بالنسبة للجهاز الاستخباراتي الصديق أو مدى فائدته وجدواه من العمل، ويتم اختيار هذا الأسلوب للأشخاص من خلال:

أ- الانتقاء

وهو اختيار الشخص الذين يغلب الظن بشكل أكبر وبعد الدراسة أنه من الممكن أن يكون موظفًا أو مجندًا ضمن العمل الاستخباراتي.

ب- الأنا

بعض الأشخاص عنده ثقة بقدراته مبالغ فيها ويعيش هاجس أنه شخص مميز مسلوب القيمة من الجهة التي يعمل فيها أو بدون عمل ضمن المحيط الذي يعيش فيه، من الممكن منحة الإحساس الذي يرضيه وإشعاره أنه ذو قيمة كبيرة قادر أن يحقق الكثير وأن اكتشافه وضمه للعمل أمر غاية في الضرورة لقيمته العالية اجتماعيًا أو علميًا، منحه هذا الشعور الذي يفتقده سيجعله جاهزًا للعمل لصالح من يغذي ذاته بما تحب.

ج- الطموح

بعض الأشخاص لديهم أحلامًا كبيرة قد تصل حد البعد عن الواقع، لكن ذلك في ظل مؤهلات الشخص وغياب الفرص التي يحتاجها، من الممكن تقديم الوعود له بتحقيق هذه الأحلام أو جزء منها وإقناعه أن السبيل هو الطريق الذي تم اختياره له.

4. التجنيد العكسي

هذا النوع يخص تجنيد العملاء أو الموظفين عند العدو داخل جهاز المخابرات أو ضمن كيان الحكومة أو الجيش، وهو عمل صعب وخطر لكن لا بُد منه بل يُعتبر هدفًا لدى الاستخبارات بشكل رئيسي، وبقدر خطورته والإحباط فيه بقدر نجاعته وتأثيره إن تمت العملية بنجاح، ولهذه الطريقة في التجنيد أساليب منها:

أ- الاستغلال

وهو استغلال الأزمات الحاصلة داخل كيان العدو لاصطياد من يعتقد أنه وقع الظلم عليه بطريقة لا يمكن التسامح فيها مع ظالميه، ولربما يفكر بالثأر من أشخاص معينين بأي طريقة.

ب- الابتزاز

وذلك من خلال التهديد، فمن الممكن ابتزاز شخص داخل منظومة العدو من خلال الحصول على معلومات حوله لا يرغب بإظهارها للعام فيتم ابتزازه مقابل معلومات بسيطة يراها ليست ذات قيمة مقابل الحفاظ على تلك المعلومات حوله وضمان سرية الخصوصية، هذا يورطه أكثر بجرم يصل حد الخيانة عند الجهة التي يعمل فيها مما يجبره على التحول لعميل مرغمًا على ذلك، وقد يكون الابتزاز من خلال الضغط عليه والتهديد بالإضرار بمصالح معينة عنده وذات قيمة لا يمكنه تجاهلها.

ج- الدناءة

وهي اكتشاف اللاهثين خلف المال والتأكد أن المال عندهم هو الغاية المغطاة بأقنعة مختلفة، يحتاج الأمر مهارة في البحث خلفها فبعض الأشخاص لا يظهر عليهم ذلك، ولكن بعد اكتشاف الحقيقة نجدهم أكثر الناس دناءة وسعيًا للمال لكن بطرق ذكية وغير ملفتة للنظر خشية إثارة الشكوك حولهم أو استبعادهم من مناصبهم إن كانوا ذوي رتب أو مكانة.

د- التهديد والترغيب

تهديد الشخص بحياته قد لا ينفع مع الجميع لكن يوجد جبناء من الممكن استغلال جبنهم، مرافقًا مع التهديد؛ الترغيب، بالكف عنه ومنحه شيء من ملذات الحياة مقابل خدمة تبدأ "صغيرة"، الأمر يعتمد على الخداع النفسي والتأطير العقلي وقد يرافقها منح أمور إضافية

ترغيبيه في حقيقتها هي مجرد عدم حصـــر المســـتهدف ضـــمن خيار واحد يجبره على الرفض، معظم الجبناء يقومون عند التهديدات بعملية حســـابية عقلية لاختيار أفضـــل ما يمكن لهم وتكون النتيجة في الغالب البحث عن النأي بالنفس لضـــمان الأمان، وهذا بحد ذاته يعتبر أمرًا إيجابيًا للمخابرات التي تقف خلف عملية التجنيد .

5. التجنيد الإلكتروني

وهو التجنيد من خلال وسائل التواصل الاجتماعي، ولها أشكال منها معلنة ومنها سرية.

أ- علني

وهو الإعلان عن الحاجة لمجندين وعملاء يقدمون بياناتهم على اســتمارة إلكترونية ســرية لدى الجهاز المُعلِن، وبدوره الجهاز يقوم بعمليات الفرز والتدقيق والتحليل ثم اختيار الأشـــخاص المناسبين لتكليفهم بعمل اختباري.

ب- سري

وهو اســـتهداف أشـــخاص خضـــعوا لمراقبة إلكترونية، ثم يتم التواصـــل معهم لتقديم عرض العمل بطريقة مباشرة أو تدريجية أو استدراجهم للإيقاع بهم ضمن الابتزاز، وفي الغالب يتعلق الأمر بالجنس وهو أشهر أساليب الاستخبارات الغربية واليهودية.

حول التجنيد الاستخباراتي

قد يقع الفرد تحت عملية الابتزاز حول نشر معلومات عنه وتفاصيل، كنشر صورة له أو اسمه الحقيقي ونحو ذلك، أو أنه يدلي بمعلومة "بسيطة" سرعان ما يتورط لينتهي به المطاف مرغمًا بإيصال معلومات هامة وحساسة.

والغريب أنه بالأصل يستطيع التحصن من هذا النوع من الابتزاز من خلال عدم خوفه من انتشار صورته بل ينشرها هو وينشر ما يمكنه عن نفسه إن كان في مكان آمن عن القبضة الأمنية ومعظم من يتخفى هم كذلك فلا حاجة له بالقلق الزائد تحت تبريرات ضارة في نتيجتها غير نافعة ويعتقد أنه يعمل "أمنيات"، ولا شك هناك من هو بحاجة للتخفي ويكون الأمر ضرورة لا فكاك عنها، وفي هذه الحالة من الممكن المناورة من خلال قيامه بين الحين والآخر بنشر صورة غير معروفة لشخص غير معروف على أنها هو، فبعد مدة وبعد كثير من الصور لن يعود أمر التهديد إن حصل ذا قيمة يجدر التخوف منه، ومثلها الاسم وبعض المعلومات .

وكذلك يقع بعض الأشخاص ضحية الابتزاز، وفي الغالب ابتزاز جنسي حيث يتم تصويرهم في حالة غير ملائمة ثم يبدأ التهديد بنشر المحتوى أو العمل لصالح الجهة، مثل هذه الطريقة الأكثر شيوعًا وأقذرها، من الممكن لو فكر الشخص قليلًا حول التهديد ومدى الوقت الذي سيسبب له المشاكل وتأثيره على حياته في حال انتشر، وبين رضوخه للتجنيد والعمل كعميل وما نتيجة ذلك على أمته ونفسه وما حكمه، سيستخلص أنه لا شك الرفض للعمل هو أهون الأضرار وأقصرها تأثيرًا على نفسه ومحيطه، وتحديدًا في ظل الأحداث العظام التي تحصل في كل مكان فما عاد أحد يستطيع استحضار الذاكرة للحديث عنها أمام الأحداث المتتالية المتعاقبة بحجمها المتزايد .

إن عمليات التجنيد الاستخباراتي فن وحرفة لا يتقنها إلا الماهرين ببعض الأمور التي تعتبر ركائزًا أساسية في العمل الاستخباراتي، وتختلف عمليات التجنيد وآلية العمل بين جهاز يتبع لدولة قوية في نظر الناس وبين جهاز ناشئ أو يتبع لجهة ضعيفة في نظر الناس، كذلك الاختلاف كبير بين جهاز قائم بدولة وجيش واقتصاد وتطور تكنولوجي، وجهاز لديه ضعف في

كل الموارد، لكن هذا لا يعني العجز فبالأصــل كانت معظم أقوى الأجهزة القوية ضــعيفة وغير موجودة قبل قرن من الزمان، بالإصــرار واســتثمار الظروف واســتراتيجية العمل تم الوصــول لكثير من الأحلام بل وزاد عليها الطمع بتحقيق ما هو مســتحيل، فـالأمر يعتمـد على الإيمان بالشـيء والقدرة على التضـحية لأجله، ولقد مر معنا كيف أن حماس نجحت بشـكل جيد وما زالت تتطور بشــكل رائع مقارنة مع وضــعها أمام عدو يعتبر الأخطر عالميًا وخلفه قوى عظمى، إذًا الأمل كبير والفرص كثيرة .

بقدر رؤيتي لســهولة العمل والقيام به على أفضــل وجه، لكن علينا أن نعي وندرك أن الأمر ليس كغيره من الممكن خوض التجارب فيه بشــكل عشــوائي أو دخول تجربة من الممكن إن فشـلت أن لا نخسـر شـيئًا!، بل هذا أمر مختلف عن كل التجارب التي من الممكن تجربتها مع ترجيح الفشل فيها، فليست محاولة لعمل عسكري إن فشل عدنا لنقاط الرباط لنفكر بتجربة جديدة، وليســت قرار ســياســي من الممكن التملص منه عند الحاجة، وليســت مشــروعًا من الممكن خسـارة الربح فيه مع ضـمان بقاء الرأس مال!، هو مشـروع يعتبر أشـبه بعملية جراحية للأعصــاب فالخطأ فيه كارثة حقيقية قد يؤدي للشــلل العام، لذلك نجد أنه حتى عمليات التجنيد لا تكون إلا من خلال دراسة ومتابعة ومراقبة بغض النظر عن أهمية عمل المجند، بل حتى خضـوع المنتسـبين للعمل الاسـتخباراتي على أطباء علم النفس الخاص بالجهاز لتقييمهم، والحرص على أبسـط الأمور المتعلقة بهم كالتأكيد على ضمان وصول مستحقاتهم بشكل دوري حتى بعد وفاتهم أو اسـتقالتهم، والحرص على إفهامهم أن علاقتهم مع الجهاز وعملهم لصـالحه رغم أنهم لا يعرفون سـوى الضـابط المسؤول عنهم كمجندين وعملاء أو معرفتهم بزملاء المكتب إن كانوا موظفين رسميين، فنجد أن الضـابط المسـؤول عن خلية أو موظفين أو عملاء حريصًا جدًا على تقديم من يخلفه بأفضــل صــورة منعًا لحصــول أي نفرة نفســية أو خلل في عمل المرؤوســين ولو كان الخلف أقل جدارة لكن التشــبع بالمســؤولية والحرص العام يكون متملكًا ضابط المخابرات المتمرس .

كثير من عمليات التجنيد تشـبه شـكل الصـياد والفريسـة، أي يتطلب الأمر من ضـابط الاســتخبارات التربص في المقاهي أو الأماكن العامة التي يرتادها شــريحة معينة أو الترصــد عبر

مواقع التواصـل، يجلس لأوقات طويلة وأيام كثيرة بحسـب الوقت المتاح له وحتى في الوقت المخصـص له كراحة أو إجازة عمل، بالرغم أن العمل الاسـتخباراتي لا يعترف بشـيء اسـمه "خارج أوقات الدوام" فهذا العمل يعتبر كامل الوقت ضمن العمل ويكون فيه الشخص تحت الطلب وبأي وقت، حالة التربص لاصطياد الأشخاص تعتبر أمرًا سهلًا والصعوبة تكمن فيما بعد إيجاد الشـخص، من فرزه لأي نوع ينتمي من الطبائع إلى الوقوف حول حقيقته وقدراته، فبعضهم نصاب يبحث عن المال ولا يمتلك سوى الكلام المبهرج الذي يخيل للسامع أن المتكلم صـاحب قدرات مميزة يجدر الطمع بكسـبه، وبعضـهم يعرب عن جاهزيته بسـبب السخط المؤقت كردة فعل سـتزول مع مرور بعض الوقت، وبعضـهم يكون بحاجة لمسـاعدة مالية أو غيرها ومع تحقق مراده وخروجه من أزمته قد ينقلب أو يختفي، وهكذا ..

الأمر ينطبق على حالة الترصـد في مواقع الشـبكة العنكبوتية لكن بشـكل معقد أكثر وذلك لغياب الصـورة المباشـرة أو حتى معرفة حقيقة من خلف الحسـاب وأسـلوبه الواقعي، فبعضهم بارع في الكتابة والسرد لكن في الواقع وبعيدًا عن العالم الافتراضي قد يكون شخصًا مرتبكًا غير متقن لفن الحديث والحوار أو انطوائي مريب دون سـبب، ولذلك كان العمل الاستخباراتي في التجنيد على وجه الخصوص يتطلب مهارة نادرة وبراعة في التعامل والأسلوب وضـبط في ردات الفعل وإتقان لكثير من العلوم والفنون وخوض غمار التجربة لوقت كافٍ للشخص بحسب قدرته على تطوير نفسه.

لقد ذكرنا كلمة عميل ومجند وجاسـوس وناموس، وحتى لا يشـتبه الأمر على القارئ يجب أن نتذكر أن الوصـف يختلف بين عمل شـخص وآخر، ففي الغالب العميل هو الذي يعرف طبيعة عمله السـري لصـالح جهة معادية لبلده مقابل شـيء مادي أو معنوي، أما الجاسوس والناموس فهو الشخص الذي لديه انتماء معين و يتلقى التدريب ثم تتم زراعته في المكان المطلوب، أما المجند فهو الشـخص الذي يعمل لأجل قضـية ليسـت شـرطًا أن تكون متوافقة مع الجهاز الذي جنده، فتم تجنيده بإحدى طرق التجنيد ليكون عميلًا أو جاسـوسًا أو قد يكون متطوعًا من تلقاء نفسه فيتصف بالمجند المتطوع، فواضح أن كلمة مجند واسعة المعنى وقد مر معنا في تعريفها أن المجند هو المناصر أو من الأعوان .

وكما أسلفنا حول كيفية ومتطلبات التجنيد وكم تحتاج من مهارة ودراسة مسبقة، فإن الأمر ممكن وسهل فهو ليس بالمستحيل ولا الخيال، ولعله في السيرة النبوية نجد معظم صور أساليب التجنيد للأفراد، فمنهم من آمن وكان له دور عظيم في الرسالة السماوية ومنهم من عمل بما يخدم هذه الرسالة ولم يؤمن وقتها، وذلك تحقق من خلال العقلية الفذة عند النبي ﷺ كما مر معنا في بعض الصور السابقة في باب الاستخبارات وباب الأمن، والآن نذكر بعض الصور التي تخص التجنيد الذي عمل به النبي ﷺ.

صور من التجنيد الإسلامي

جاءت الرسالة للنبي محمد صلى الله عليه وسلم وبدأ العمل بها، فوضع خطة محكمة تدل على عقليته الفذة النادرة بأبي هو وأمي، لضمان استمرار دعوته ثم النهوض بها وتشريف الخلق إلا من أبا هذا الشرف وهذه الرفعة والفوز العظيم.

◈ رؤوس ونخب القوم

حينما قرر النبي ﷺ البدء بالدعوة وتجنيد الناس لها، كانت خطته تعتمد على استقطاب رؤوس القوم وكبارهم ومن له مركز فيهم، وقد شرحنا الأسباب كاملة في الكتاب السابق "حرب الأشباح - الذئاب" وكيف أن الأمر أصل في التجنيد، ليس لمجرد كسب شخصيات لها وزنها بل الأمر أوسع فممكن الاستفادة من الأعراف والتقاليد حتى وإن فشلت محاولة تجنيد شخصية لها وزنها، وبالفعل نلاحظ أن النبي ﷺ حينما افتضح أمر دعوته في الطائف يوم خرج لدعوة رؤوس القوم خشي العودة لمكة فأرسل يطلب الأمن في الجوار من بعض رؤوس مكة، رفض بعضهم في حين وافق المطعم بن عدي مما جعل النبي ﷺ يعود مطمئنًا لمكة، بل مكنه ذلك من الاستمرار بدعوته وهذه قمة العبقرية في التخطيط الاستراتيجي لتحقيق مكاسب كبيرة من خلال استغلال السياسات المعادية المتناحرة .

كما أنه حينما بدأ النبي ﷺ أولى خطوات الدعوة اختار القريبين منه بدايةً، ومن يثق أنهم حتى إذا لم يلتحقوا به فلن يفشوا سره، لذلك نلاحظ أن أول من أسلموا كانوا المحيط الأقرب للنبي ﷺ، زوجته خديجة وابن عمه علي ومولاه زيد بن حارثة وحاضنته أم أيمن رضوان الله عليهم جميعًا، ثم بدأ يوسع الدائرة شيئًا فشيئا، أما الرجال فكان اختيار النبي ﷺ لصاحبه الحبيب والقريب عبد الله بن قحافة أبو بكر الصديق، فكان أول الرجال الذين صدقوا الرسول دون تردد ولا تلكؤ، وبعد أن حمل أبو بكر هم الدعوة كان حريصًا على تجنيد الناس للإسلام ونجح بذلك فكان من ثمار عمله إسلام عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهم جميعا، وكان للنبي ﷺ قولًا مؤثرًا جدًا بخصوص الصديق أبو بكر، فقد روى ابن ماجة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : ما نفعني مال قط؛ ما نفعني مال أبي بكر، فبكى أبو بكر وقال : وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله .

أي لم ينفع النبي صلى الله عليه وسلم أحد كما نفعه أبو بكر الصديق في الدعوة، فإسلامه كان له أثر كبير فهو من علية القوم وذو مكانة وأول من أسلم وصدق وذلك جعل العوام يتأثرون بشكل كبير بشكل إيجابي، ثم بعد أن أسلم حمل هم الدعوة بقوة وفرغ كل وقته وجهده في سبيل الله.

إذًا؛ فالنبي ﷺ كان حريصًا جدًا في اختيار الأشخاص ولم يكن الأمر مجرد عمل ارتجالي!، بل ينم عن بصيرة ودراية ناجعة، قاد المستضعفين إلى العلياء وأقام دولة العدل والعز، فبات المسلمين في خير عظيم ما كان يحلم به بشر، حقق لهم الكرامة والفخر وعلمهم كيف تقوم الدولة.

◇ في الغزوات والحروب

لقد مر معنا كيف أن النبي ﷺ جند العيون لتنفيذ مهام استخباراتية فكان يختار الأشخاص بعينهم، مر معنا كيف أنه اختار أبي بن كعب ليكون الكاتب عنده وكيف قال له (تأتيني كتب ولا أحب أحدًا يطلع عليها)، وكيف اختار حذيفة ليكون مجندًا في مهام استخباراتية داخل صفوف العدو، وكيف كان اختياره ﷺ لعبد الله بن أنيس ليكون في مهمة خلف الخطوط، وحتى أنه ﷺ كان يجند غير المسلمين بما يخدم الدين الحنيف وأهله، فلقد استفاد من عامر بن فهيرة في عملية محو أثر عبد الله بن أبي بكر، وجند معبد الخزاعي ليكون بدور التضليل والحرب النفسية، وغيرهم الكثير .

إذًا، فإن معظم عمليات التجنيد، يكون الهدف إعداد المجندين لتنفيذ مهام استخباراتية أو قتالية أو الاعتماد عليهم في أمور الإمداد اللوجستي، وهؤلاء ينقسم عملهم ما بين السحب لمناطق آمنة وتوكيلهم بأعمال ومهام، وما بين رجال خلف الخطوط وما بعد الحدود.

ويعتبر خلف الخطوط من الأسلحة الخطيرة والتي تقدم أعمالًا يكون لها أثرًا أكبر من المعارك العسكرية باهظة التكاليف، كما أن لوجود مثل هذا السلاح أثرًا سلبيًا عند نفوس وحاضنة العدو، إيجابي عند المقاتلين والحاضنة الصديقة، وللوقوف على فنون خلف الخطوط وطرقه وأساليبهم نبدأ الشرح المبسط سائلين المولى السداد والنفع.

خلف الخطوط

◇ تعريف ومفهوم

ويُقصد بخلف الخطوط، أي ما وراء خطوط الجبهة القتالية العسكرية ساخنة كانت أو باردة، تستخدم عمليات خلف الخطوط في عمق العدو أو في أماكن من الممكن اختراقها قد تصل لخطوط الجبهة العسكرية من الخاصرة أو الخلف، لكن بشكل مركز تعتمد على العمق لاستهداف المواقع الاستراتيجية من خلال مجموعات التخريب المنظم أو استهداف شخصيات بارزة عند العدو من خلال مجموعات قتالية أو استهداف أي هدف ممكن من خلال مجموعات منظمة مدربة.

مجموعات وأفراد خلف الخطوط تكون إما من خلال عملية تصدير من المناطق الصديقة للمناطق المعادية بعد إتمام مهامهم التدريبية، أو تكون على شكل تجنيد خلايا ضمن المناطق المعادية، بشكل عام يعتمد الأمر على نوعية العمل المخصص للمجموعة وطبيعة الفرد، فقد تتم عملية التجنيد داخل أرض العدو ثم إرسال الأفراد للتدريب في أرض صديقة.

العمل خلف الخطوط ليس مجرد عمل ارتجالي عاطفي، وفيما سيأتي معنا سنلاحظ أن العمل خلف الخطوط له مفهوم أوسع مما يعتقد معظمنا، فهو ليس مجرد عمليات اغتيال أو اختراق أو زراعة النواميس/العيون وشراء الجواسيس، إنما بقدر حساسيته بقدر إمكانية استثمار جميع الجهود والطاقات الموجودة في الأمة الواحدة، وبقدر المتطلبات الكثيرة والهامة بقدر سهولة العمل لمن يتقن المبادئ الخاصة بالأمن بشكل عام ثم يطور الموهبة الخاصة به، ليصبح الفرد الواحد بمثابة كتيبة أو ربما يكون لعمله أثرًا يوازي فعل جيش!، كلما أتقن المهارات الخاصة بالاستخبارات والأمن كلما امتلك أسلحة هجومية ودفاعية متطورة، سيتحول لذئب منفرد وحده أو ضمن مجموعات الذئاب الفتاكة التي تستطيع بسرعة التعايش مع الظروف لتنافح وتكافح من أجل السيطرة والفوز بالطرائد، بالمناسبة فالتسمية -الذئب المنفرد- لم تكن تسمية لمجرد الإعجاب بالذئب، إنما تقمص لدور الذئب العامل ضمن المجموعة -مجموعة الذئاب في البراري- فحياتها تجسد أقوى معاني التماسك والتناغم العالي

في عمليات الصيد وحتى على الصعيد العاطفي فهي سامية في الوفاء لبعضها مستعد أفرادها للتضحية في سبيل بقاء القطيع، فتاكة في تكتيكات الهجوم والانسحاب والمناورة متميزة بأسلوب التواصل فيما بينها، كل ذلك جعلها رمزًا للعمل الأمني خلف الخطوط .

◈ مبادئ خلف الخطوط

1. الكفاءة

وهي الحذاقة والمعرفة والمهارة في العمل، وتشمل الجانب:

أ- **العلمي:** وهو علمه الكامل ضمن مجال عمله، من الأمن الفردي إلى أمن الجماعة أو المجموعة، إلى طرق الاختراق والاختراق المضاد، إلى الاستدراج والوقاية منه، إلى الاستجواب ومكافحة الاستجواب.

ب- **العملي:** وهو الخبرة الكافية حول المتطلبات للعمل وإتقانها من خلال التدريب الجيد لتطوير المهارات الخاصة.

2. الإيمان

وهو الإيمان بالله ثم الإيمان بالقضية وأهمية العمل الموكل على أنه عمل عظيم، لتحقيق القدرة على التضحية والفداء بدون تردد وبذل الجهد بدون تراخي.

3. التوكل/الواقعية

وهي الواقعية والابتعاد عن الارتجال العاطفي وذلك من خلال الأخذ بالأسباب كاملة لتحقيق حقيقة التوكل وتجنب الوقوع في فخ التواكل الذي يأتي بنتائج سلبية، كأن تدفعه الحمية بدون الاجراءات اللازمة.

4. الالتزام

وهي الانضباط بالتعليمات المحددة لكل فرد ومجموعة وعدم تجاوزها باجتهاد فردي قد يودي بحياته ويهدد أمن رفاقه، لكن لا يعني ذلك أن يكون إمعة لا يعمل على أن يكون عنصرًا مميزًا، إنما يلزمه وضع المسؤول عنه في الصورة قبل أي اجتهاد.

5. التخفي

المهارة في التملص عند الخطر أو الشعور بالتتبع والمراقبة، كما أنه على الفرد أن يكون بارعًا في إيجاد الغطاء المناسب المقنع للناس حتى يعمل تحته بسهولة وسلاسة ويمكنه التحرك ضمن أرض العدو دون إثارة الريبة والشكوك، فالغطاء يجب أن يكون مناسبًا لمهمته ومتطلبات تحركه أو وجوده ضمن المكان المراد.

6. الملاحظة

يجب أن يتمتع الفرد بالملاحظة الجيدة إلى الممتازة، يستطيع من خلال قوة الملاحظة معرفة ما يحصل حوله من متغيرات ويربطها بملاحظات سابقة مخزنة في ذهنه، ثم يقوم بمقارنة ذهنية ليستطيع معرفة المتغيرات.

7. المصارحة

أن يكون الفرد صادقًا مع رئيسه أو المسؤول عنه حول قدراته وجدارته بالمهمة الموكلة له، كذلك المصارحة بتخوفاته والبوح بتردده إن كان يشعر بذلك دون الخجل من الأمر.

8. التوازن

على الفرد أن يكون قادرًا على التفريق بين الشعور بالخوف الطبيعي أو رهبة العمل التي لا تؤثر على الانضباط الجسدي، وبين التردد الذي قد يؤدي لفشله في العملية أو المهمة ويعرض نفسه ورفاقه للخطر، كما أن عليه أن يكون متوازنًا بأحاسيسه ومشاعره حتى لا يقع ضحية الاندفاع الغير مدروس والغير مطلوب في هذا الموضع، فعليه تحقيق التوازن بين إدراك خطورة العمل وسهولة التنفيذ إن وضعت الخطة السليمة المدروسة بشكل جيد.

9. التدريب

مواصلة التدرب العقلي والجسدي وعدم الانقطاع عن ذلك تحت أي ظرف وبقدر الإمكان، ويدخل ضمن التدريب العقلي متابعة كل المستجدات والتطورات عند العدو، وتحديدًا تلك التقارير الخاصة بتطوره الأمني والاستخباراتي مع التنبه إلى أن التطور الفعلي يكون مازال طي الكتمان، لكن تلك المعلنة تنمي العقل وتجعله يعمل كآلة تحليل وتوقع، أما التدريب الجسدي فمن الممكن الالتحاق بنادي رياضي خاص باللياقة البدنية أو ممارستها بشكل فردي في المنزل أو أي مكان، كذلك التمرن إن أمكن على استخدام السلاح الأبيض و السلاح الناري الفردي بشكل مستمر .

10. النو افل

قيام الليل بخشوع وتذلل وقراءة القرآن بتدبر والالتزام بالأذكار وتحقيق الإثار والعفة وجمع ما يمكن من شمائل النوافل يُعتبر بمثابة درع حصين وحرز متين، تسد الثغرات التي تخطئ أنت بسدها ناسيًا أو بالخطأ، فهي بمثابة رد المكاره والحماية من المصارع، وفي نفس الوقت تغذية روحية وقلبية وتعطي نشاطًا للجوارح.

هذه المتطلبات ضرورية بل هي شروط صارمة، لأن العمل لا يقبل الخطأ ولأن المهام تستحق كل هذا الجهد وأكثر، فأهداف ومهام رجال خلف الخطوط حساسة أضعاف عن غيرها ولذلك تكون نتائجها موجعة للعدو مفرحة بشكل كبير للصديق.

◈ أهداف خلف الخطوط

وتنقسم الأهداف إلى أقسام وذلك بحسب مهمة المجموعة وقدراتها وتدريباتها، فمن الممكن تلخيصها بأنها تكون أهدافًا قتالية، وأهدافًا تخريبية، بالإضافة لأهداف الرصد والمتابعة من الدرجة الثانية.

1. أهداف قتالية

أ- الاغتيالات

هي عملية قتل الهدف إما بعمل فدائي أو من خلال عبوة متفجرة أو دس السُم أو أي طريقة تفضي لقتله.

ب- التدمير

وهو تدمير الهدف من خلال عملية اقتحامية فدائية أو ضربه من مسافة تحقق الغاية بالأسلحة المتوفرة.

ج- الاستحواذ

وهو الحصول على وثائق هامة للغاية أو ما يشبه ذلك، أو قد تكون عملية إتلاف من خلال عمل انغماسي بأسلوب التسلل أو الاقتحام.

د- الأسرى

وهي تحرير أسرى أو أسر أفراد من العدو، وعادة يستخدم مثل هذا الأمر في مهاجمة أقسام الشرطة بعمل فدائي أو أثناء نقل الأسرى من مكان لآخر.

هـ- الإشغال

وهو مهاجمة العدو بمكان يُعتبر حساسًا وهامًا لإشغاله أو لقطع الطريق عليه ومنعه من التحرك وإجباره على التمركز، ويكون الأمر مرتبطًا بحسب الحاجة لذلك، وعلى طلب وتنسيق القيادة العسكرية للجبهة الساخنة، فيتم تحريك مجموعة أو مجموعات من خلف الخطوط لتنفيذ عمل فدائي، فالإشغال في هذه الصورة غالبًا لا يكون مجرد اشتباك غير مؤثر، بل يكون مربكًا للعدو بشكل فعال وحقيقي.

ملاحظة: إنما القصد بعبارة عمل فدائي ليس محصورًا بالموت أو الاستشهاد، إنما بحسب الخطة الموضوعة والتي يكون أساسها الحفاظ على النفس، لكن طابع العمل بشكل عام خلف الخطوط يعتبر فداءً، لترجيح بذل الروح مقدمًا على السلامة.

2. أهداف تخريبية

أ- منشآت

هي ممارسة أعمال تخريبية تضر بمنشآت العدو الحكومية والعسكرية والاقتصادية بدون التسبب بالضرر المباشر لأفراد الشعب أو مع وقوع الأمر بشكل محدود، فمثلًا تخريب خطوط الكهرباء والماء وقطعها عن المنشأة أو الثكنات أو المباني، أو تخريب الآليات الخاصة بالنقل الحكومي أو العسكري أو ممارسة التهديد النفسي للموظفين والعمال.

ب- الطرقات

ويكون فيها الاستهداف للطرق والجسور بغية تخريبها من خلال التفجير أو طرق أخرى تؤدي لغرض التخريب.

ج- الشائعات

وهي بث الشائعات ضمن مناطق العدو بطرق مدروسة ومحددة بحيث تكون أقرب للتصديق والمنطقية، والعمل على نشر دعاية الصديق بطرق غير مباشرة.

ملاحظة: مجموعات وأفراد التخريب المنظم يلزمهم إتقان بعض فنون ومهارات مجموعات وأفراد خلف الخطوط الفدائيين، أما عملية اختيارهم للعمل التخريبي وليس القتالي فيتم بالاعتماد على تقييم قدراتهم الجسدية والنفسية ومدى شجاعتهم، فليس جميع المناصرين والأعوان بدرجة شجاعة واحدة وكذلك لا يمكن ترك أي جهد دون اختيار عمل له يستطيع من خلاله تقديم الفائدة مهما كان العمل بسيطًا والجهد متواضعًا.

3. الرصد والمراقبة

وهي تشمل رصد ومراقبة أفراد العدو والمنشآت والأهداف الأخرى المحتملة، لكن تُعتبر هذه المجموعات أو هؤلاء الأفراد من الدرجة الثانية، إذ في المجموعات الفدائية والتخريبية رصاد خاصين بمجموعاتهم يتبعون لإمرة مسؤول المجموعة مهمتهم خاصة بالأهداف المنتقاة والمحددة لكل مجموعة بغية رصد الهدف بشكل دقيق، أما مجموعات الرصد والمراقبة من الدرجة الثانية فيُستفاد منهم بدراسة الأهداف المحتملة وأخذ المعلومات الأولية لتحويلها إلى المجموعة الخاصة التي بدورها توكل مهمة التتبع والرصد والتدقيق إلى رصادها، إذ أن معلومات الرصاد درجة ثانية ترفع لمسؤول المجموعات بشكل مباشر وهو بدوره يختار المجموعة الأنسب ثم يستلم تقارير الرصاد من تلك المجموعة ليقاطع المعلومات ويتم القرار إن كان من الممكن تنفيذ عمل مجدي أو اختيار ما يلزم .

4. أهداف وهمية

هي من أكثر الأعمال المعقدة والتي تتطلب سرية مطلقة بالإضافة لإتقان ومهارة عالية.

الأعمال الوهمية وهي التي تهدف لكثير من الأمور التي يحتاج لها جهاز الاستخبارات ككل، فقد تكون باب لاختراق العدو وقد تكون محاولة لإبعاد الشبهات عن عميل سري وقد تكون ذات طابع عسكري أو سياسي، بالمحصلة هي عملية فعلية في تنفيذ المهام لكن وهمية في حقيقة مطلبها أو تنفيذها، وقد استخدمت كثيرًا من أجهزة المخابرات مثل هذا النوع من الأعمال، ففي العادة لا تثق المخابرات بالمجندين الجدد قبل أن يثبتوا ولاءهم أو صدقهم في العمل فتُكل لهم مهام حساسة بغض النظر إن كانت سهلة التنفيذ أم تحمل صعوبة لكنها حساسة من حيث المبدأ وفيها توريط للمجند حتى يدخلوه في حالة الحصار ويضمنوا تنفيذ أوامرهم التالية، مثلًا تطلب من العميل قتل شخص يتبع للجهاز المعادي، أو جمع معلومات عن موقع ما، أو استهداف شخصية عسكرية أو سياسية أو جمع معلومات حساسة عنه، فعليًا المجند يجب أن يثبت جدارته لينال الثقة، لكن ما العمل إن كان بالأصل مجندًا يتبع للجهة المراد تنفيذ الأعمال ضدها؟، هنا يأتي دور جهاز المخابرات الصديق لتوجيه الأفراد المعنيين بالأعمال

الوهمية ليرتبوا السيناريو المحكم ويقدروا الموقف وإمكانية العمل ويعدوا مسرح العملية لتكون مقنعة بالفعل وبدون إلحاق الضرر بأصل العملية التي طلبتها الجهة المعادية، وفي حال حبك العملية وقرار المضي بتنفيذها يتم العمل لكن بإخفاء المستهدف الحقيقي واستبداله بشخص آخر قد يكون جثة أو يكون محكومًا بالإعدام، وإن كانت العملية فقط تتطلب من المجند جمع معلومات حساسة فيتم فعل ذلك ونقل المعلومات الحقيقية لكن مع إخطار المستهدف بما يلزم إخطاره لأخذ الاحتياطات بشكل غير ملفت للانتباه وفي الغالب تتولى المجموعات الأمنية حمايته بشكل سري وخفي كما ذكرنا ذلك في أهداف الأمن، ولكن هذا لا يعني تطبيق الأعمال الوهمية لكل مهمة ولكل محاولة!، بل يقتصر الأمر عند الضرورة ومدى الفائدة المرجوة من خداع العدو في تنفيذ الأعمال الوهمية .

◈ مواصفات أفراد خلف الخطوط

1. ضبط النفس

أن يكون قادرًا على ضبط نفسه أمام الأمور التي قد يصدر عنه فيها ردات فعل كوجود محرمات ومنكرات أمامه أو سماعه لما لا يرضاه أو نحو ذلك.

2. المعرفة الشرعية

وهي ما يجوز فعله وقوله وما هو المباح وما هو المكروه وما هو المحظور ومتى يكون الاضطرار، وفي هذا الباب أجد كتاب حرب العقول كتابًا قيمًا يفي بالغرض.

3. معرفة المتفجرات

أي كيفية صناعتها وطريقة تركيبها وطرق إبطالها ونحوه، لكن قبلها معرفة محظورات استخدامها حتى لا يذهب ضحيتها أبرياء، فمثل هذه العبوات لا يجب أن تكون إلا للمجرمين القتلة دون غيرهم.

4. اللياقة

وهي التدريب المتواصل لجعل الجسم مرنًا وذو لياقة جيدة مضافًا لها مهارات القتال القريب.

5. طرق التواصل

وهي معرفة أساليب المراسلة الخاصة بالعمل، كتعلم طرق البريد الميت أو أساليب الرموز وفكها وكيفية تمرير المعلومات.

6. المعرفة التقنية

وهي الاطلاع بشكل دائم مستمر على تقنيات العدو وإلى أي حال وصل من طرق الاختراق والتجسس وما هي الثغرات التي عجز عنها، لكن يجب مراعاة عدم تصديق كل تلك التقارير فقد يكون العدو من خلال المقالات تقصد تمرير أمور مضللة والحقيقة أنه قادر على الاختراق مما يظنه الشخص نقطة أمان.

7. المهارات

وهي مهارات الإفلات من المراقبة وإتقان أساليب التضليل والخداع والمناورة.

8. تعلم حرفة

أي مهنة تساعد في أن تكون غطاءً مناسبًا للفرد من حيث عمله الحقيقي ومكانه، والأفضل لو تعلم الفرد أكثر من مهنة، كذلك الحال مع اللغة فالأفضل لو يتعلم أكثر من لغة وحتى عليه التمرن على إتقان اللهجات المتعددة.

بُنية مفصل خلف الخطوط

1. المسؤول العام

ويقع على عاتقه قيادة الجهاز بالكامل ومسؤولية المكاتب الداخلة ضمنه.

2. اللجنة الشرعية

وهي مسؤولة عن المناهج التربوية والفتاوي الداخلية والخاصة بالأعمال ضد الأهداف المعادية.

3. لجنة المتابعة والتطوير

وهي معنية بمتابعة القدرات وتطويرها، ويتبع لها:

أ-مكتب الأبحاث والدراسات

ب-ورشات التصنيع

ج-مكتب الأعداد البشري

4. مسؤولي المجموعات

وهم أمراء المجموعات في أرض العدو وفي المناطق الصديقة، تقع على مسؤوليتهم قيادة المجموعات كاملة وتعويض النقص عند المجموعات العاملة وتوجهها بالخطوط العريضة.

5. مكتب الأمن التقني

مهمته تأمين الاتصالات الآمنة بين الأفراد والمجموعات وتوفير البرامج اللازمة للتحصين الشخصي حول أمن المعلومات، كذلك من مهامه العمل على اختراق الأجهزة أو الحسابات المعادية المطلوبة.

6. مكتب الأمن الخاص

هي القوة التنفيذية المسؤولة عن توفير الأمن للمعسكرات والاجتماعات والجلسات، وتقديم الحماية الشخصية لمن يلزمه، وذلك بشكل سري أو علني بحسب ما تطلبه الحاجة.

7. مكتب التجنيد

ويكون فيه الأشـخاص المتمكنين من التجنيد بكافة أشـكاله وأنواعه، وهو مرتبط بالمكتب التقني ومكتب الرصد والمعلومات.

8. مكتب الرصد والمعلومات

مهامه اسـتخباراتية مصـغرة على حجم مفصـل العمل، ويرتبط به الرصـاد في المجموعات والرصاد المنفصلين.

9. اللجنة الإدارية

ويتبع لها:

أ- مكتب الذاتية.

ب- مكتب الإمداد اللوجستي.

10. مكتب الأرشيف

مهمته الاحتفاظ بالمعلومات وتخزينها بشكل آمن وسري، كل المعلومات المتعلقة بأعمال وأفراد خلف الخطوط.

11. لجنة المعسكرات

وتتكون من مسـؤول عنها وأعضـاء معاونين والمدربين، مهامهم وضـع المناهج اللازمة وتدريب المجموعات وإعدادها بالشكل المناسب للعمليات المطلوبة.

بُنية مجموعات خلف الخطوط في أرض العدو

تتألف كل مجموعة من مجموعات خلف الخطوط الفدائية أو التخريبية من أفراد ضمن مهام واختصاصات معينة تتلخص:

1. القيادة

وتتألف من قائد المجموعة ونائبه والمدرب الخاص بالمجموعة (قد يكون القائد أو نائبه هم بدور المدرب وهو أفضل).

2. أفراد الرصد

وهم المسؤولون عن جمع المعلومات الدقيقة أو تأكيد أو نفي المعلومات التي وصلت للمجموعة عن طريق القيادة العامة للمفصل، أو من خلال جهة أخرى.

3. أفراد التنفيذ

هم الأفراد الذين يقومون بتنفيذ العمل الفدائي أو التخريبي.

4. أفراد التغطية

هؤلاء مهمتهم التغطية النارية إن دعت الحاجة لهم كقوة مؤازرة.

5. أفراد التوثيق

لا بُد للعمليات من توثيق مرئي أو صوتي ولو لم يتم بثها عبر الإعلام، فهؤلاء الأفراد يأخذون زاوية آمنة للتوثيق كدور إعلامي.

6. أفراد التأمين

بعض العمليات لا يمكن لأفراد التنفيذ أو الرصد أو التوثيق البقاء في مأمن بسبب انكشاف أمرهم، وقد ينكشف أمرهم بسبب خطأ دون وجود عملية، يلجؤون لأفراد التأمين بغية تهريبهم لمكان آمن، أفراد التأمين لا يكون لديهم مهمة سوى هذا العمل وهم أبعد الناس عن

شكوك العدو وليس لديهم أي تواصل أو معرفة مع المجموعات أو الأفراد خلف الخطوط ويقتصر التواصل مع قائد المجموعة ونائبه عند الضرورة.

7. أفراد الإمداد

هم من يقومون بتأمين احتياجات المجموعة من مواد متفجرة أو ذخائر أو أسلحة فردية.

8. أفراد الشأن الشرعي

وهم معنيين بالتربية الشرعية للأفراد بشكل مستمر ومتواصل للتحصين من الفتن المنتشرة في ارض العدو والتحصين النفسي من الشبهات التي يتعرض لها أفراد خلف الخطوط بشكل كبير، كما دورهم يكون في توضيح ضوابط كل عملية وتثقيف الأفراد فيما هو مباح وما هو مكروه وتبيين الحلال والحرام، أفراد خلف الخطوط مهامهم متنوعة ومتفرقة وتتعرض لعوامل لا يتعرض لها غيرهم سوى عناصر المخابرات في باقي المجالات الأخرى الغير متعلقة بأعمال خلف الخطوط.

◈ الشكل التنظيمي لمفصل خلف الخطوط

وهو شكل التواصل والربط بين القيادة العامة وقادة المجموعات، وبين المجموعات مع بعضها، وللشكل التنظيمي عدة أشكال سنسلط الضوء على أشهرها ونجتهد بواحدة قد ذكرناها في الكتاب السابق (حرب الأشباح "الذئاب").

1. التنظيم الهرمي

وهو يشبه شكل الهرم المعروف، وتكون فيه القيادة العامة متصلة بمن دونها فقط بشكل مباشر أي بمسؤولي المكاتب، ومن دونها من مسؤولين بمن دونهم فقط دون القفز لمن بعدهم وهكذا إلى قادة المجموعات الصغيرة ثم أفراد التنفيذ.

2. التنظيم الرأسي

هو شبيه بالشكل الهرمي إلا أن التواصل بين رأس الهرم ومن دونهم يكون عن طريق شخص واحد ممكن تسميته بعنصر الارتباط، ومن دونهم بمن دونهم أيضًا عن طريق شخص واحد وهكذا، فيكون نقطة الوصل بين طبقات القيادة والمسؤولين شخص واحد وهذا الشكل يُعتبر أكثر أمنًا من سابقه لكن إن حصل طارئ لعنصر الارتباط فسيتسبب الأمر بارتباك كبير.

3. التنظيم العنقودي

في هذا الشكل يكون جميع مسؤولي المكاتب وقادات المجموعات متصلين بشكل مباشر بالقيادة الأم، لكن دون أن تُعَرِّف القيادة الأم قادة المجموعات أو حتى مسؤولي المكاتب على بعضهم البعض، وهذا الشكل أمنيًا يُستخدم بكثرة لكن أجد فيه مساوئ منها سهولة الوصول للقيادة واختراقها ومنها الخطر الكبير على الجهاز وتشتته في حال كان هناك عمل محكم يستهدف القيادة الأم بشكل كامل ومباشر.

4. التنظيم العشوائي

وهو معروف باسم العمل الارتجالي أي أن يكون هناك فرد مقتنع بالقضية ولا يوجد تواصل بينه وبين القيادة التي يُدين لها بالولاء أو المناصرة، فيعمل على تشكيل خليه من أقرانه المؤمنين بنفس القضية ويباشروا التسلح والتخطيط إلى أن يجدوا طريقة اتصال بتلك القيادة أو بأحد أجنحتها، أو يقومون بأعمال فردية دون الاضطرار لقناة تواصل مع القيادة أو أفرادها وينسبون عملهم لصالح من يناصروه عبر رسائل خطية معلنة أو مرئيات مصورة، وقد رأينا مثل هذا الشكل بكثرة في الأعوام الأخيرة إن كان بما يخص كتائب عز الدين القسام أو تنظيم داعش أو بعض فصائل الثورة السورية .

هذه الأشكال المشاعة وقد ذكرها أهل خبرة وممارسة ومنها استنتجت شكل تنظيم قد يتناسب مع طبيعة الساحة السورية أو ما يشبهها، وأعتقد هو الأنسب من حيث التلاؤم مع طبيعة المعركة ومع البنية السيكولوجية للمجتمع السوري، وقد أسميته:

5. التنظيم المنقطع

وهو أن تكون القيادة الأم معروفة بشكل علني إلا من يلزم تخفيه، ويكون التواصل بين القيادة الأم ومن هم دونها من القادة والمسؤولين، والقادة والمسؤولين يكون التواصل بمن دونهم أيضًا وهكذا إلى أصغر مجموعة على أن يكون مثلًا النسق الخامس يجهل شخصية القادة في النسق الثالث والنسق الرابع يجهل النسق الثاني وهكذا تكون (نقطة ميتة) في حال وجود اختراق للتنظيم.

مثال: (1) رمز القيادة العامة. (2) رمز النواب. (3) اللجان. (4) رمز مسؤولي المكاتب. (5) رمز قادة المجموعات العامة. (6) رمز قادة المجموعات في أرض العدو.

(2-3-4-5-6) على معرفة ب(1) معرفة مباشرة أو غير مباشرة.

(2) على اتصال ب(1-3) ويجهل (4-5-6).

(3) على اتصال ب(2-4) ويجهل (5-6).

(4) على اتصال ب(3-5) ويجهل (6-2).

(5) على اتصال ب(4-6) ويجهل (3-وما بعد الرمز 6 أيًا كان).

◈ مراحل العمليات لخلف الخطوط

1. خطة رئيسية

يتم وضع الخطة حسب المعطيات والإمكانيات المتوفرة وبحسب المعلومات المؤكدة من جهة الرصاد، ويتم تسمية الخطة برمز مفهوم عند القائمين بالعمل.

2. خطة بديلة

خطة يلجأ لها الفرد أو المجموعة في حال وجود موانع تؤدي لفشل الخطة الرئيسية، ويتم تسميتها برمز مفهوم عند القائمين بالعمل.

3. خطة محتملة

وهي خطة يتم وضعها احتياطًا وبناءً على التخوفات المحتملة الحدوث بسبب وجود معلومات بسيطة لم تتوفر القدرة على تأكيدها أو نفيها، تهدف الخطة المحتملة للحيلولة بعدم الوقوع بالمفاجأة والأخذ بكل جوانب المعلومات التي لم تؤخذ بالحسبان في الخطة الرئيسية والبديلة بسبب ضعفها، ويتم تسميتها برمز مفهوم عند القائمين بالعمل.

4. خطة طوارئ

يتم الاعتماد عليها في حال فشلت العملية، فيكون كل فرد في المجموعة يعرف دوره وكيفية الانسحاب، ويتم تسميتها برمز مفهوم عند القائمين بالعمل.

ملاحظة: في كل خطة ضمن خطط العملية الواحدة يكون هناك خط للانسحاب يضمن سلامة الأفراد بعد تنفيذ المهمة، فيكون على علم بكيفية التصرف بعد إتمام العملية بأي خطة تم تنفيذها، أما خطة الطوارئ فهي الخطة الخاصة بالانسحاب بأسلوب خشن أو التعامل بطريقة الاضطرار.

أما تسمية الخطط برموز فهو أمر معلوم وهو بغاية الأهمية ليس فقط تجنبًا للمخاطر في حال كان هناك تنصت، لكن الأمر له أبعادًا نفسية ولذلك يجب انتقاء الرموز بعناية، فمثلًا تسمية الخطة البديلة ب "سيف" أفضل من تسميتها الخطة "ب" وخطة الطوارئ "فداء" أفضل من المناداة "انسحاب" أو "طوارئ" فكل العوامل تؤثر على النفس وتحديدًا أثناء العمل فيجب اختيار ما يذكر النفس ويحضها على الثبات والفداء والإقدام، كذلك في حال سماع العدو لاسم الخطة إن كانت المسميات بطابعها الروتيني سيعطيه فرصة في معرفة كيفية التعامل مع الهجوم أو قد يمنحه فرصة لمعرفة خطوات المهاجمين.

◇ مثال بسيط جدًا لعملية مفترضة

اللواء المجرم سامر يسكن في حي جوبر، يخرج من بيته في تمام الساعة الثامنة صباحًا ليركب سيارته "كيا ريو" سوداء متوجهًا لمقر القيادة وخلفه سيارة نفس النوع بيضاء يركبها المرافقة.

- الهدف اغتياله عن طريق خمس أفراد مهاجمين وتجنب الانشغال بالمرافقة.
- الخطة الرئيسية تقتضي متابعة الراصد للبيت ولحظة رؤية المرافقة تهيأ فهذا يعني اللواء يستعد للخروج فيبلغ الراصد مجموعة الهجوم، المجموعة تهيأ وتقترب لأقرب نقطة ممكنة دون إيقاف السيارة، ولحظة خروج سامر يقترب المهاجمين بسرعة ليأخذوا أماكنهم المحددة مسبقًا والتي تم اختيار نقطة خلف حاوية القمامة ونقطة خلف زاوية بيت مقابل له، سيارة المهاجمين بقيت في مكان قريب آمن ومحركها يعمل.
- الخطة البديلة اضطر لها المهاجمين فلقد تفاجأوا أن حاوية القمامة ليست اليوم موجودة، فاختاروا نقطة مسبقًا يلجؤون لها وكانت خلف إحدى الأشجار على الرصيف المقابل.
- الخطة المحتملة لجأ لها المهاجمون، فقدرًا كان هناك مرور لشخصية قيادية بارزة بالقرب من المكان مما جعل المهاجمين محاصرين من عناصر معادية، فاضطروا لاستدعاء أفراد التغطية المتجهزين بالقرب من المكان.

- خطة الطوارئ كان لا بُد منها إذ أفراد التغطية لم يستطيعوا فعل شيء، فاقتضت خطة الطوارئ تنفيذ أحد أفراد المهاجمين لعملية فدائية ليؤمن انسحاب باقي الأفراد من خلال ثغرة تم عملها ضمن ثواني تنفيذ التفجير.

خطوات العملية

1) الهدف

يتم اختيار الهدف على أساس الغاية من العمل وبغية اختيار أنسب الطرق لتحقيق الغاية. من الأهداف اختيار شخصيات رفيعة المستوى بغية تحقيق مكاسب سياسية أو التأثير العسكري، لكن قد يكون تحقيق الغاية بالأسر أفضل من الاغتيال وقد يكون العكس وقد يتوفر خيارًا واحد، وقد يكون الهدف منشأة عسكرية أو مبنى فيه شخصيات معادية وله دور في إدارة الحرب، فيتم اختيار أنسب الطرق لتحقيق الغاية، فإما هجومًا فدائيًا أو تفجيرًا خارجيًا، ويبقى اختيار أنسب الطرق معتمدًا على باقي خطوات مرحلة العملية.

2) جمع المعلومات

ويُقصد بالمعلومات أي كل ما يخص الهدف وبيئته ومحيطه وتنقله وحركته واحتياطاته ...إلخ، ومنها:

أ- المعلومات العامة المنتشرة حول الهدف والتي لا تُعد سرية ويكون من السهل تحصيلها بدون مخاطرة.

ب- المعلومات الأولية وهي التي تدور حول الهدف ونحتاجها للبحث عن الثغرة والوصول إلى معرفة كيفية الحصول على المعلومات السرية.

ت- المعلومات السرية وهي التي يتم تحصيلها بشكل سري معتمدة على طرق عديدة منها شراء ذمم معادية أو من خلال القدرة على الاختراق أو من خلال المراقبة والرصد.

3) الدراسة

المعلومات الواردة والتي تم الوصول لها تخضع للتحليل والتدقيق بشكل مستمر مع ورود كل معلومة جديدة أو تحديث في البيانات الخاصة عن الهدف، وذلك من خلال:

أ- التحقق من مصداقية المعلومات الواردة من طرق غير آمنة مئة بالمئة كالتي ذكرناها فيما سبق وهي من خلال شراء الذمم أو الاستدراج أو الاستجواب.

ب- دراسة القدرة على القيام بالعملية من خلال المقارنة بين الإمكانيات المتوفرة وبين الهدف وتحصيناته واحتياطاته وموقعه.

ت- توفر أنسب الطرق للعملية والأدوات المناسبة للعمل وإمكانية تنفيذ الأسلوب الأفضل لتحقيق نتيجة إيجابية عالية النسبة مع مراعاة أقل الخسائر الممكنة لإتمام العمل.

4) التخطيط

بعد اختيار الهدف وجمع المعلومات اللازمة ودراستها والتحقق منها، تبدأ الخطوات العملية للعمل، وأهمها التخطيط المحكم ويشمل:

أ- وضع الخطط من الرئيسية إلى الطوارئ.

ب- توقع نسبة نجاح العمل ووضع احتماليات النجاح والفشل لكل خطة من مراحل العمل.

5) الاستعداد

ويشمل:

أ- اختيار الأفراد المناسبين للعملية.

ب- توفير لوازم العمل.

ت- التهيئة النفسية والتجهيز البدني المناسب للعملية.

6) رفع الجاهزية

أ- الاستنفار لأفراد العملية وباقي المجموعة المرتبطة بالعمل بشكل كامل.

ب- التربص بالهدف لاختيار أنسب لحظة ضمن توقيت خطة العمل الموضوعة.

7) التنفيذ

وهو القيام بالعملية كما خطط لها مع التركيز على الهدف الرئيسي وعدم الانشغال بما يعوق الوصول لتحقيق غاية العملية والتعامل مع الثانويات من باب التحجيم والتحييد، وقد يخصص لأي عوائق ثانوية محتملة مجموعة أو فريق.

8) انتهاء العمل

ويصبح العمل منتهيًا في الأحوال التالية:

أ- تحقيق الغاية.

ب- خطة طوارئ.

ت- انتهاء الوقت المحدد للعمل.

9) الاحتياطات الأمنية

وهي التدابير التي يؤخذ بها قبل وأثناء وبعد العملية الواحدة وتشمل:

أ- متابعة الرصد وجمع المعلومات إلى ساعة التنفيذ.

ب- رفع مستوى أمن الأفراد أثناء التجهيزات والاستعدادات.

ج- تلقين الأفراد قصص مخترعة في حال الوقوع بالأسر.

د- خطة تفريغ الأماكن الآمنة التي تم استخدامها بما يخص العمل.

هـ- التفكير بعقلية العدو للتنبؤ بتصرفاته وردة الفعل أثناء العمل وبعده.

و- السرية في جمع المعلومات وإخفاء العمل عن جميع الأفراد إلى اللحظة المناسبة.

وكل ذلك يتعلق بمدى الأمان المتعلق بالأفراد والمجموعات وقدرتهم على التصرف وامتلاكهم الوعي والإدراك اللازم، ويعتبر الأمن الشخصي أساسًا في كل عمل استخباراتي وأمني، إلا أنه فيما يخص خلف الخطوط فالأمن الشخصي يساوي الحياة وهو عصب العمل ولذلك فمن المناسب ذكر بعض النصائح ولاسيما أن جميع وكالات وأجهزة المخابرات لديها رسائل توجيهية للمجموعات الخاصة بها خلف الخطوط، وسنضع كامل الجهد بذكر كل ما يخص الأمن الفردي لمختلف الأفراد العاملة في جميع المجالات.

◇ الأمن العام لمختلف الأفراد

فيما يخص الأمن الشخصي، وهو أمر يشغل كل أجهزة الاستخبارات وأفرع الأمن والعملاء السريين، فكلًا يسعى للحفاظ على مجنديه وموظفيه وأفراده تحت سلطته بنفس قدر الأهمية والانشغال بطرق اختراق الصفوف المعادية.

مكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي "أف بي آي" FBI، وغيره كان لهم توجيهات سرية هامة لعملائهم ملخصة بعدد من التوصيات والنصائح الهامة والمفيدة لكل عامل في مجال الاستخبارات، ومتطورة بشكل مستمر وشبه دوري لكن بعضها لا يتناسب مع العامل المسلم، لذا فيما يلي ننقل شيء من تلك التوصيات بطريقة معدلة مضافًا لها اجتهادي الشخصي، فممكن توظيفها بالشكل الصحيح السليم كما أنه يتنبه لها مختلف الأفراد لمعرفة طرق وأساليب الأجهزة المعادية ويضع خططًا مضادة لها.

1. تنبه لكل أمر مريب غير قابل للتفسير المنطقي، يحصل حولك أو في محيطك.
2. دع من تثق به على اطلاع بمكان تواجدك في المناطق الخطرة والحساسة.
3. اليقظة والحذر تجعل عدوك في ارتباك وهو يعد خطة الاختراق أو الهجوم.
4. الاعتماد على آلية إنذار تطلقه وقت الخطر ليهب للمساعدة صديق أو مُقرب منك ولو لم يكن على علم بتفاصيل عملك.
5. التحركات يجب أن تكون محدودة ومدروسة.
6. كن نشيط الذهن واجعل عقلك دائمًا يقظًا للتعامل مع أي تهديد بشكل سريع.
7. تجنب الانشغال بأمور جانبية لا تخص عملك، ولا تقف عندها طويلًا حتى لا تقع في عامل الارهاق العقلي فتكون حياتك الثمن.
8. تجنب الروتين اليومي في خط السير أو النشاطات والأعمال.
9. تصور أنك مكان العدو واطرح الأسئلة وضع الاحتمالات حول الأمور المحتملة، الأمر سيجنبك كثيرًا من المخاطر.
10. لا تظهر أي نمطية مميزة بك، سلوكية أو عملية تجعل العدو يدرس هذه النمطية ويضع خططًا لاصطيادك من خلالها.

11. لا تجعل لك مكانًا ثابتًا في مواعيد الصداقة أو العمل.
12. لا تسلك طريقًا واحدًا ضمن فترة قصيرة واجعل الأمر متنوعًا غير منضبط.
13. لا تخبر أحدًا عن مكانك أو أماكن الذهاب إلا إن دعت الحاجة، وذلك باستثناء شخص واحد تثق به يعرف الأمر بدون معرفته للتفاصيل.
14. بشكل دائم اعتمد على شخص واحد تثق به وبعيد عن الشكوك التي تدخله دائرة الشك عن أي طرف معادي، دعه يعلم مكانك والوقت الذي ستقضيه حتى في حال الخطر أو مرور وقت معلوم بدون إخطاره بالعودة يمكنه التصرف أو إبلاغ من أخبرته بإبلاغه.
15. تجنب المواعدة وتحديد الوقت والمكان على الهاتف النقال أو الحاسوب، واستخدم الرموز المتغيرة باستمرار، وإن كان لا بُد من ذلك ففور اللقاء غير المكان واتفق مع الآخر على رموز مستقبلية.
16. استخدم الأسماء المستعارة مع من لا تثق بهم أو الغرباء، ودعها أسماء مشهورة منتشرة وليست أسماء غريبة تدعو للاهتمام.
17. اطبع في ذاكرتك صورة "فوتوغرافية" للبيئة المحيطة بعملك ومكان سكنك أو الأماكن التي تزورها باستمرار، وفي كل مرة حاول مقارنة تلك الصورة المحفوظة بالوقت الراهن لتستطيع معرفة إذا ما كان هناك ما يدعو للريبة والغرابة أو ثمة تعديلات بسيطة تجعلك تعدل الصورة بدون قلق.
18. لا تعتمد الألبسة ذات الألوان الفاقعة أو المميزة، كذلك تجنب كل ما يجعل تمييزك سهلًا أو يترك لك أثرًا في ذاكرة الناس.
19. اجعل الأوراق والمستندات والخصوصيات في مكان آمن وتنبه للسارقين والنشالين وليس فقط للعدو، فبعض العمليات والمعلومات يتم اكتشافها بسبب وقوع السرقة من خلال سارق!
20. ابقِ نظرك مرفوعًا أمامك تتفحص طريقك بدون أن تكثر من الالتفات وامنع نفسك من الشرود الذهني والتفكير في غير الجاهزية لأي طارئ أثناء السير.

21. حاول تجنب السير في الطرق المظلمة وابحث عن طرق أكثر إضاءة ولو كانت المسافة أطول، وهذا فقط في حال عدم وجود عمل لديك يتطلب الظلام أو أماكن مظلمة.
22. لا تسلك في الأماكن المهجورة أو تحاول اختصار المسافة من خلال حديقة مهجورة أو مزرعة فارغة أو حي موحش بدون أن تكون جاهزًا لكل الاحتمالات التي قد تستهدفك.
23. بشكل دائم كل طريق تسلكه حاول معرفة طرقه الفرعية والرئيسية والشوارع المسدودة فيه.
24. أثناء المسير حاول التنبه لما يحصل خلفك إما من خلال مرايا السيارة أو من خلال السمع المركز أو من خلال خلق ذريعة تمنحك الالتفات بشكل مباشر أو غير مباشر أثناء المسير.
25. داخل المدن تجنب السير في طريق مستقيم طويل أو شارع واحد، وارتاد الشوارع المتنوعة والفرعية وبدلها كل مرة ترتاد الطريق نفسه.
26. حاول مراقبة من يستعير سيارتك باستمرار وفتشها بعد كل مرة يعيدها لك، وابحث عن أي احتمالية لأجهزة تنصت أو تتبع أو شيء متعلق بالتفجير.
27. فتش هيكل السيارة الخارجي بشكل مستمر قبل ركوبها، لكن اجعل ذلك في وقت يغيب فيه الناس مثل الصباح الباكر أو في وقت متأخر من الليل.
28. درب نفسك على عدم ركن السيارة أو النزول من سيارة الأجرة أمام المكان الذي تقصده.
29. قم بعمل دراسة عن جيرانك في السكن أو العمل المعيشي دون لفت الانتباه أو المبالغة في جمع المعلومات.
30. لا تجعل من منزلك أو مكان عملك موضع ريبة عند الجيران من خلال المبالغة بوجود الأقفال أو تحصين النوافذ بالحديد أو تردد الرفاق بكثرة إليك، كن طبيعيًا وفي الوقت نفسه أنت تضع كامل تدابير حماية المنزل أو مكانك.
31. لا تهمل وضع إنارة أمام باب المنزل أو مكان ركن السيارة، أمام البيت تفييدك بمعرفة الطارق مع التنبه لخداع العدو، وأمام السيارة تربك فرق الاغتيال.

32. عند طرق باب بيتك من قبل أحد، لا تسـأل من الطارق قبل النظر من خلال الثقب المخصص أو طريقة أعددتها مسبقًا لمعرفة من أمام باب المنزل.
33. احمل في جيبك بشكل مستمر سكينًا صغيرة وولاعة ومصباحًا يدويًا صغيرًا.
34. استخدم الخيوط أو أعواد الثقاب أو الشعر لمعرفة إن تم الدخول لبيتك في غيابك أو المكان الذي لا يدخله أحد قبلك، أو الخزائن والصناديق الخاصة بك.
35. اجعل كل الأمور الهامة والحساسة في متناول يدك عند اضطرارك للمغادرة بشكل مفاجئ، لكن دعها في مكان يصعب إيجاده عند غيرك.
36. لا ترمي في القمامة الأوراق الهامة أو المواد الحساسة وقم بإتلافها بشكل تام، من خلال الحرق أو التذويب، وادفن المواد الغير قابلة للحرق أو الإتلاف في مكان بعيد عن عيون الناس.
37. حاول أن تجعل عند أطفالك أو الأطفال القريبين منك، معلومات مغلوطة عنك كالاسم أو تفاصيل قد تكون مهمة عند عدوك، وحذرهم بشكل مستمر بعدم الحديث مع الغرباء.
38. لا تجعل عائلتك تشعر بالقلق من خلال اتخاذك لتدابير الأمان والسلامة بشكل مبالغ فيه، واجعل كل شيء أمامهم طبيعيًا لا يدعو للقلق والارتباك.
39. لا تقع في هاجس أن العدو يراقب كل كلامك وتحركاتك، هذا يورثك الإحباط ويجعلك غير متزن وبعيدًا عن العقلانية والمنطقية.
40. تذكر بشكل مستمر أن الهاتف النقال هو الجاسوس الأخطر الذي ينام ويسكن معك، فضع في حسبانك أنك خلال إجراء المكالمات والمراسلات من خلاله أو من خلال جهاز آخر قريب منه، فقد يكون هناك جهة ثالثة مطلعة على المراسلة الصوتية: أنت والمستلم والمخابرات.
41. قبل إجراء المراسلة عبر الهاتف النقال أو الحاسوب، فكر إن كان بالإمكان وجود طريقة أخرى أكثر أمانًا أو ممكن تأجيل الأمر إلى وقت لقاء المرسل إليه.

42. استخدم التشفير والترميز بينك وبين أقرانك في العمل أو من له علاقة في عمل سري، واحرص على تغيير الرموز بشكل مستمر.
43. لا تتكلم بالأمور الهامة والسرية في الأماكن العامة التي يتردد عليها أشخاصًا قد يكونون ضمن دائرة الاستهداف أو يدعون للريبة، قد تكون المخابرات وضعت أجهزة تصنت أو مراقبة لهم فتكتشفك بطريقها.
44. احذر من التكلم مع أحد بأمور سرية في أماكن يتوفر فيها تقنيات جديدة مثل المقاعد المزودة بخدمة "واي فاي" أو أماكن أخرى يتواجد فيها تكنولوجيا خدمية للعامة.
45. تجنب الأحاديث العقدية إن كنت في أرض العدو حتى لا تضطر أمام الناس لفضح معتقدك من كرهك وبغضك لمعتقد عدوك فتصبح محل لفت انتباه.
46. ابتعد عن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في أرض عدوك، وخذ بأقلها تكليفًا، وهو القلب.
47. تجنب تعريف أصحابك ورفاقك بأهلك أو أقربائك مهما بلغت الثقة، ويكفي أن يعرف ذلك المسؤول عنك فقط.
48. كون صورة عند الجميع في محيطك ضمن أرض العدو تجعلهم لا يأبهون بك، فلا يهتمون بوجودك ولا غيابك.
49. لا تجتهد من تلقاء نفسك وتعمل عملًا دون أمر أو مشاورة رئيسك وتحديدًا في العمل على التجنيد.
50. في مكان سكنك حاول بشكل مستمر تخيل اقتحام الأمن المعادي عليك، ضع سبل الفرار أو الحماية وتدرب عليها.
51. لا تستخدم هاتف العمل من مكان تواجدك أو المكان الذي تتردد له باستمرار، واجعله مغلقًا منزوع الشريحة.
52. لا تحتفظ في جهازك بأي شيء يدل على توجهك أو طبيعة عملك السري.
53. حاول التفكير بعقلية عدوك لتكتشف ما يمكنه فعله أو الثغرات التي قد يكتشفها فيك.

54. تذكر أن عدوك قد يكون اكتشــف أمرك لكن لم يقم باعتقالك بغية الحصــول على المزيد من المعلومات حول المتعاونين معك أو مدى المعلومات التي تحتفظ بها.

هذه نصــائح بعضــها مفيد لمختلف الأفراد وبشــكل كامل هي مفيدة لأفراد خلف الخطوط على وجه الخصوص.

صور من عمليات خلف الخطوط

1. كارلوس الثعلب

هو "إلبيتش راميريز سانشيز" ولد في فانزويلا، واعتنق الإسلام عام ١٩٧٥ مناصرًا القضية الفلسطينية ويعمل لصالح الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

لقب بالثعلب لشدة دهائه في تنفيذ العمليات ثم الإفلات والاختفاء، ومن أشهر عملياته كانت احتجاز ٧٠ شخصًا بينهم ١١ وزيرًا للنفط لدول منظمة الأوبك، ثم نقلهم بالقوة إلى الجزائر من فيينا.

سبق له أن نفذ عمليات متفرقة، ففي ألمانيا اختطف ١١ لاعبًا إسرائيليًا عام ١٩٧٢ واستبدلهم بأسرى فلسطينيين، كما استطاع اختطاف طائرة فرنسية على متنها سياح إسرائيليين إلى أن نفذت مطالبه، وفي عملية جريئة أسقط في فرنسا طائرة إسرائيلية بقاذف "آر بي جي" وفي نفس الأسبوع عاود اقتحام المطار نفسه مع مجموعته بكل جرأة واستطاع احتجاز طائرة إسرائيلية وأخذ من فيها كرهائن حتى تم كذلك تنفيذ مطالبه، وله أكثر من عملية اختطاف للطائرات، ومن نفس العام حاول اغتيال رئيس الاتحاد الصهيوني في لندن لكن لم ينجح، كما قام بسلسلة تفجيرات لبنوك إسرائيلية في دول أوربية .

وفي عام ١٩٨٢ خطط ونفذ عملية استهداف لمفاعل نووي فرنسي قيد الإنشاء لكن المفاعل لم يلحق به أضرار، ومن نفس العام قام بتفجير قطارٍ متجهٍ من باريس إلى وتولوز حيث كان من المفترض أن يكون على متنه الناشط السياسي حينها جاك شيراك، لكن جاك كان في اللحظات الأخيرة غير خطة عمله ولم يستقل القطار، بالإضافة لسلسلة طويلة تكاد لا تنتهي من عمليات تفجير العبوات والسيارات المفخخة.

كان كارلوس الثعلب ماهرًا جدًا بالتنكر وتغيير مظهره بالإضافة للتزوير وخلق شخصيات جديدة مقنعة، إلا أن التعاون بين المخابرات الفرنسية والأمريكية والسودانية والجزائرية والإسرائيلية أثمر بالقبض عليه عام ١٩٩٤ في السودان وهو يحمل جواز سفر لدبلوماسي أردني وذلك بعد مطاردة لعشرين سنة.

مازال كارلوس يقبع بالسجن وربما لن يخرج منه فقد حكم عليه بالمؤبد أكثر من مرة، لكن مازالت قصته مثيرة ومدهشة لرجل يظهر فجأة ويختفي فجأة مخلفًا وراءه عملًا يحدث ضجة كبيرة وقصة تبقى متداولة قبل أن يقوم بعملية جديدة تضاف لسلسلة العمليات.

2. عمليتا أبو مطيبق ونحال عوز

خلال الحرب على قطاع غزة ورد المقاومة بإطلاق عملية العصف المأكول، نفذت كتائب عز الدين القسام عملية خلف خطوط العدو اليهودي استهدفت موقعًا عسكريًا لجيش الاحتلال يسمى أبو مطيبق.

كانت من أقوى العمليات وأكثرها دقة وعبقرية، حيث تسلل ٩ مجاهدين من خلال الأنفاق السرية الممتدة إلى داخل وقرب مواقع العدو، ونصبوا أربعة كمائن ثم مكثوا نحو ستة ساعات قبل أن يأتي الهدف المتحرك المطلوب والمكون من أربعة آليات عسكرية نوع "جيب" كانوا بمهمة دورية ويطلق عليهم اسم "الوحدة ١٨٨" .

وفي اللحظة المناسبة انقض على الدورية مجموعة خلف الخطوط محققين عنصر المفاجأة والمباغتة، مما سهل عليهم إبادة ثلاثة جيبات وفرار الرابعة بالإضافة لمقتل عدد من قوات الاحتلال بينهم ضابط واغتنام بعض الأسلحة، أما المجاهدين فقد ارتقى فرد واحد منهم، وبعد انتهاء العملية قررت المجموعة العودة بدون الحاجة للنفق الذي خرجت منه كالأشباح، فتمكنت من عبور الأسلاك الشائكة الموضوعة بين الأراضي المحتلة والأراضي المطهرة، في الوقت الذي كان رفاقهم في الطرف المقابل يوثقون عملية الانسحاب من كميرات لم تظهر الدقة المرئية الجيدة، لكن وبعد فترة قصيرة استطاع المكتب السيبراني للمقاومة اختراق كاميرات الرصد الإسرائيلية التي كانت في موقع الحدث، وبالفعل استطاعت سحب مقاطع تظهر فيها العملية وكيف المجاهدين ينسحبون بسلام .

لم تكن العملية الأولى ولا الأخيرة، فهناك سلسلة طويلة ألحقت العار بجيش الاحتلال الذي في كل مرة يصبح محل استهزاء القريب والبعيد أمام حقيقة عجزه برغم كل التفوق والتطور والإمكانيات.

أما عملية نحال عوز والتي نفذتها مجموعة خلف الخطوط من كتائب عز الدين القسام، فلقد سبقها وقتًا مضنيًا من الرصد والتحليل والمتابعة للبحث عن أكثر الأهداف حيوية، ومن خلال الرصد استطاع المجاهدين جمع معلومات عن موقع الحماية الأمامية لقوات الاحتلال في موقع نحال عوز.

بدأت تجهيزات المجاهدين وتم اختيار المجموعة الخاصة لتنفيذ العمل، ثم تم توجيهها للتوجه عبر النفق السري المودي لخلف خطوط العدو للمكوث والترقب إلى لحظة الأمر ببدء التنفيذ.

بدأت المجموعة بتنفيذ طلعات اســتطلاع قبيل تنفيذ العملية، ومع لحظة البدء توجه أربع أفراد لموقع العملية عند برج المراقبة لقوات العدو فيما أخذ باقي أفراد المجموعة المشــاركة مواقعهم المحددة لهم.

أسفل البرج كانت الطرائد من جنود العدو متفاجأة من ظهور المجاهدين الذين حققوا عنصر المفاجأة وكسبوا تحقيق الصدمة، لم يدم الاشتباك طويلًا مع عناصر الاحتلال الذين يأيسوا من إيجاد مكان ينحازون له أمام إغارة المجاهدين، مما أســفر عن مقتل نحو تســعة جنود إســرائيليين، كان في المكان أحدهم مصــاب مما جعل أفراد خلف الخطوط يفكرون بأســره وسحبه معهم، راح يرجوهم الجندي الجبان بعدم قتله أو أسره وهو يحاول التشبث بالأرض، كان لا بُد لأفراد خلف الخطوط العودة ضمن الوقت المحدد للعملية والذي تم وضعه بناءً على كثير من الحسابات منها الوقت الذي ستقضيه المؤازرات المعادية من برية وجوية قبل أن تصل الموقع، ذلك دفعهم للتخلي عن فكرة الأســر والخطف واســتبداله بتصــفية الجندي ثم الانسحاب بسلاسة .

لكن تعرض أحد الأفراد للإصــابة مما منعه من الوصــول لعين النفق، المســؤول عن توثيق العملية كانت أولوية في مهمته هي تســليم الكاميرا بأمان للأفراد الذين ينتظرون بالنفق، وبالفعل سلم المادة ثم رجع ليسحب رفيقه ويخليه بأمان وقد تحقق ذلك وانتهت العملية التي هزت أركان العدو لوقت طويل قبل أن تضــربهم عملية أخرى تنســيهم الوجع الســابق وتحل عليهم وجع جديد مضاعف.

3. غزوة منهاتن -أحداث سبتمبر

العام ١٩٩٦ طلب شخص اسمه خالد شيخ محمد، لقاء بقيادة تنظيم القاعدة وبشكل خاص أسامه بن لادن في جبال تورا بورا الأفغانية.

خالد شيخ محمد يتقن أربع لغات وهو كويتي الجنسـية، درس الهندسـة الميكانيكية لكنه ومنذ بداية التسعينات تفرغ بشكل كامل للتخطيط بالهجمات ضد أمريكا وقد خطط وساعد بتنفيذ واحد وثلاثين عملية!، استهدفت ملاهي ليلية ومراكز حكومية.

تم اللقاء الذي حمل فيه خالد الشيخ مجموعة من الخطط والمقترحات لضرب أهداف أمريكية، من بين المقترحات خطف عشرة طائرات وتنفيذ أعمال هجومية داخل أمريكا بتسع طائرات والعاشرة تحبط بسلام ويكون خالد الشيخ على متنها، يلقي خطاب في أمريكا عن أسباب الهجمات.

استمع أسامة بن لادن للخطة بعمق واهتمام لكنه وجدها معقدة وتحتاج تفكير ودراسة، وفي عام ١٩٩٩ كان ابن لادن قد وضع الخطة النهائية وباتت جاهزة للتنفيذ.

كان الخطة تقتضي تجنيد أشخاص مدربين أو يتم تدريبهم على قيادة الطائرات، وبالفعل استطاع خالد تجنيد وتدريب ١٩ شخصًا مناسبين للمهمة، وبحلول عام ٢٠٠١ كانت الخطة قد بدأت تكتمل، وبالفعل في صباح أيلول/سبتمبر الشهر التاسع من السنة وتحديدًا في اليوم الحادي عشر وفي مقهى بكراتشي تابع خالد شيخ محمد من خلال التلفاز اصطدام الطائرة الأولى ثم الثانية بمركزي التجارة ليصرخ بعدها الله أكبر ثم يسجد باكيًا من الفرح، أما الطائرة الثالثة فاستهدفت البنتاغون مقر وزارة الدفاع الأمريكية، أما الطائرة الرابعة كان من المقرر اصطدامها بالبيت الأبيض الأمريكي لكن تم إسقاطها قبل بلوغها الهدف .

نفذ الهجوم ١٥ سعودي وإماراتيان ومصري ولبناني، خضعوا للتدريب المكثف تحت غطاءٍ مناسب لا يلفت الانتباه، وأهم التدريبات كانت على الملاحة الجوية وتعلم قيادة الطائرات في الشركات التي تعطي دورات خاصة، في أحد التقارير فاتني مصدره لكن أذكر أن إحدى المدربات على الطيران وبعد العملية قدمت شهادتها وهي تقول: كنت مستغربة لماذا كان المتدرب يريد التدرب على عملية الإقلاع دون عملية الهبوط!، وبعد العملية فهمت أنه لم يكن بحاجة لتعلم الهبوط.

في الطائرة الأولى التي كان مسؤول عن تنفيذ الهجوم فيها هو محمد عطا المصري، داخل الطائرة حصل عراك بين عطا ومن معه من المعاونين وبين ضابط إسرائيلي كان على متن الرحلة، انتهى العراك بطعن الضابط وقتله ثم استكمال العملية.

المثير للانتباه هو توقيت العملية في هذا التاريخ "٩/١١" حيث أن هذه الأرقام نفسها أرقام الطوارئ المستخدمة في أمريكا للعموم، فهل تقصدت القاعدة تحويل الرقم لكابوس بدل النجدة؟ .

في عام ٢٠٠٣ تعرض خالد للخيانة من ابن عمه! الذي خدعه وقام باستدراجه ثم تسليمه للسلطات مقابل مكافأة أعلنت عنها الولايات المتحدة وقدرها ٢٥ مليون دولار، في العام القادم أي عام ٢٠٢٠ ستبدأ أولى جلسات محاكمته.

لم تكن عملية بل كانت أربع عمليات خلف الخطوط في عملية واحدة، اختطاف أربع طائرات ثم تفجيرها بأهداف معدة مسبقًا هذا أمر جديد لم يسبق أن حصل، لكن سبق لتنظيم القاعدة أن قام بعمليات خلف الخطوط في كينيا وتنزانيا وأمريكا وغيرهم.

عمليات التخطيط كانت صعبة وغاية في الدقة والسرية، لم يكن لهم ليستطيعوا تنفيذ العمل لولا تلقي تدريبات صارمة ومكثفة، وهذا ما حصل بالفعل على فترات من الزمن كانوا يتوجهون لأفغانستان يمكثون أسابيعًا أو أشهرًا قليلة قبل العودة بشكل طبيعي لممارسة نشاطهم العلني، معظمهم كانوا يدرسون كطلاب في الجامعة وبعضهم متفوق في الدراسة مثل محمد عطا المصري، وبقدر الدقة في التخطيط كانت الدقة في التجنيد واختيار العناصر المناسبة لخطة خالد الشيخ، ثم تولى عطا المهمة، فعمل بالرموز للمراسلات، فمثلًا كان يراسل أحد أصدقائه على أنه حبيبة أو صديقة، ويراسل آخر بحجة حل لغز "تحزورة" ! كاتصاله بالمنسق لعملية أيلول ذات يوم قائلًا له: اتصلت عليك لتحل لي أحجية قالها لي أصدقائي وأحتاج منك المساعدة لحلها، عصايتان بعدهما شريطة ثم كعكة لها ساق.

فأجابه رمزي بن الشيبة، بالله عليك هل اتصلت بي وأيقظتني من النوم لهذا؟، أغلق السماعة ودعني أكمل نومي، لكن بن الشيبة فهم الرسالة ومن فوره توجه إلى أفغانستان يخبر القيادة عن موعد تنفيذ العملية، عصايتان "١١" بجانبها شريط "/" بعدها كعكة لها ساق "٩". إنها ٩/١١ يوم سيتغير وجه العالم بعده.

◈ صور من سرايا النبي ﷺ

كعب بن الأشرف

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَن لكعب بن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله. وكان كعب شاعرًا يهجو الرسول والمسلمين ويحرض عليه بحقد أعمى. فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: نعم. قال: فأذن لي أن أقول شيئاً. (أي أن أخدعه لأستدرجه).

فقال النبي: قل، فأتى محمد بن مسلمة كعب بن الأشرف ومعه سرية لتنفيذ المهمة متربصة ولم يظهر معه سوى أبو نائلة وهو أخو كعب من الرضاعة، وقال لكعب: إن هذا الرجل (النبي) قد سألنا صدقة، وإنه قد عنانا وإني قد أتيتك أستسلفك.(أستقرض منك مالًا).

فقال له كعب: وأيضاً، والله لتملُنَّه. (ستملون منه ومن طلباته).

فقال محمد بن مسلمة: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه، وقد أردنا أن تسلفنا وسقًا أو وسقين، فقال كعب: نعم ارهنوني. (ضعوا رهينة حتى تعيدوا المال). قالا أي بن مسلمة وأبو نائلة : أي شيء تريد؟ قال كعب: ارهنوني نساءكم. قالا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟(كان كعب وسيمًا وجميلًا ومتزينًا وغنيًا). قال: فارهنوني أبناءكم. قالا: كيف نرهنك أبناءنا فيُسبُّ أحدهم فيقال رُهن بوسق أو وسقين هذا عارٌ علينا، ولكنا نرهنك اللأمة. (يعني السلاح).

فواعداه أن يأتياه ومعهم الرهان، فجاءاه ليلًا وقد رسموا الخطة التي تقتضي استدراجه، نادوه ودعوه للخروج من البيت لأجل الاتفاق، فهم بالخروج فقالت له امرأته (زوجة كعب) أين تخرج هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة فقالت: أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم. قال: إنما هو أخي محمد بن مسلمة ورضيعي أبو نائلة، إن الكريم لو دُعي إلى طعنةٍ بليلٍ لأجاب.

وكان محمد بن مسلمة قد أخبر السرية بالخطة وقال لهم: إذا ما جاء فإني قائلٌ بشعره فأشمه، فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه.

فنزل إليهم متوشحًا وهو ينفح منه ريح الطيب، فقال ابن مسلمة: ما رأيت كاليوم ريحًا. (يقصد رائحة الطيب جميلة جدًا). فقال كعب: عندي أعطر نساء العرب وأكمل العرب. فقال بن

مسلمة: أتأذن لي أن أشم رأسك؟ قال كعب: نعم. فشمه ثم لما استمكن منه قال مسك برأسه ونادى أصحابه: دونكم، فقتلوه. فقتلوه.

"نلاحظ أن زوجة كعب تتمع بحس أمني عالي حيث شعرت بأمر مريب، لكن اختيار محمد بن مسلمة ليأتي معه أبو نائلة جعل الهدف يطمئن، ومن وجه آخر قد حرص بن مسلمة في اللقاء الأول أن لا يجلب معه السلاح وبهذا جعل الانطباع الأول لكعب الطمأنينة، ولا شك أن هذا جزء من خطة بن مسلمة حيث كان من البداية يعرف أن كعبًا يحتاج لرهان ولن يعطوه إلا السلاح، فاحتاجا اللقاء الأول لبث الطمأنينة ثم لدراسة الخطة عن قرب ولمعرفة موقف كعب، استدراجه كان سهلًا واستغلالًا لغروره وحبه لنفسه سهل على السرية تنفيذ المهمة، وهذه نقطة غاية في الأهمية أن لا يكون المرء مختالًا بنفسه .

أعطني أشم رائحة شعرك، جملة أعجبت كعب وجعلته يشعر بنشوة الرياء والخيلاء، وسهلت لابن مسلمة إنهاء المهمة بأسرع وقت وتجنب العراك والمبارزة، وبالفعل نجحت الخطة بلحظة وبدون أي خسائر".

أبو رافع

أبو رافع الكافر وقد آذى المسلمين باللسان ودعم عدوهم فقد كان تاجرًا غنيًا، فأرسل النبي سرية من المهام الخاصة لتنفيذ عمل خلف الخطوط.

فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي رافع اليهودي رجالًا من الأنصار، فأمَّر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعينُ عليه، وكان في حصنٍ له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرحهم فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإني منطلقٌ ومتلطفٌ للبوّاب لعلّي أن أدخل. فأقبلَ حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجة وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله، إن كنت تريد أن تدخل فادخل فإني أريد أن أغلق الباب، فدخلتُ فكمنتُ، فلما دخل الناس أغلقَ الباب ثم علّق الأغاليق على وتد، قال: فقمت إلى الأقاليد فأخذتها ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسمر عنده، وكان في علالي له، فلما ذهب عنه أهل سَمَرِه صعدت إليه، فجعلت كلما فتحت باباً أغلقت عليَّ مِن داخل، قلت: إنِ القوم نُذِرُوا بي لم يخلصوا إلي حتى أقتله، فانتهيت إليه فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا أدري أين هو

من البيت، فقلت: يا أبا رافع! قال: مَن هذا؟ فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئًا، وصاح فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمك الويل، إن رجلًا في البيت ضربني قبل بالسيف، قال: فأضربه ضربةً أثخنته ولم أقتله، ثم وضعت ظبة السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت أني قتلته، فجعلت أفتح الأبواب بابًا بابًا حتى انتهيت إلى درجة له، فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة، فانكسرت ساقي فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب، فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته. فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال: أنعي أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته، فقال: ابسط رجلك، فبسطت رجلي، فمسحها فكأنها لم أشتكها قط.

"عبد الله بن عتيك أمير السرية، قبل تنفيذ العمل احتاج جمع بعض التفاصيل وزيادة المعلومات الواردة عنده، فنلاحظ حين هم بتنفيذ العملية كان قد عرف أن أبو رافع في حصن منيع وله أقفال وعليه حراس، فوجد خطة ما كانت لتخطر ببال أحد، فاختياره لهيئة وكأنه يقضي حاجة قرب باب الحصن قبيل إغلاق الأبواب كان أمرًا ينم عن عقلية محنكة، فلو حاول الدخول بنفسه والأبواب مفتوحة لكان الحرس سيستوقفه ليعرف أهو من أهل الحصن أم لا!، ولكن نداء الحرس له وهم يغلقون الأبواب ظانين أنه من أهل الحصن سهل عليه تجاوز التفتيش والاستجواب وإيهامهم أنه من أهل الحصن، وهنا نقطة هامة وهي أنه كان ملثمًا ومع ذلك لم يطلب منه أحد كشف وجهه!، وذلك أن العادة عند قضاء الحاجة يتلثم الرجل كنوع من الخجل أو الحياء، وفعل ذلك بمكان قريب من أبواب الحصن وحرص على أن يكون تحت أنظار الحرس ليروه، فإن نادوه تكون الخطة نجحت ونفذ للحصن وإن لم يناديه أحد وشك بأمره فيمكنه أن ينكر نيته بدخول الحصن ويستطيع القول بأنه عابر سبيل يقضي حاجته .

وبعد دخوله الحصن حرص على معرفة مكان مفاتيح الأقفال ومراقبة حرس البوابة، ثم استغل اللحظة المناسبة وأخذ المفاتيح ثم تربص بهدفه الذي علم مسبقًا عنه أنه يهوى السمر والسهر مع مجموعة من أصحابه، فأراد انفضاض المجلس وتكون الناس قد أسكرت، ثم أنه مسبقًا جمع المعلومات حول موقع غرفة أبو رافع، وبدأ يشق طريقه نحوها وهو يحرص على قفل كل باب يدخله ولذلك حمل معه المفاتيح بغية عدم نجدة أبو رافع لو حس بشيء ويتسنى

لأبو عتيك تنفيذ المهمة أو الفرار وعدم الوقوع بأيديهم وهذا من متطلبات عمل خلف الخطوط، الحرص والحيلولة دون الوقوع بالأسر أو القتل بدون تحقيق فائدة .

من الأمور المدهشة والتي تنبي عن العقلية الفذة، عندما دخل غرفة أبو رافع وكانت مظلمة جدًا!، كيف له أن يعرف مضجع أبو رافع من مضجع زوجته وأولاده؟، فنادى بصوت خافت متربصًا بمصدر أي صوت يأتيه، وبالفعل جفل أبو رافع وقال من هناك؟، فتحسس موقعه وضربه ضربة سريعة ثم هم بالفرار، لكن تذكر أن ضربته قد لا تكون قاتلة، فرجع للغرفة ولم يكن ابتعد وأبو رافع كان يصرخ ويسكت، فلما دخل عليه سكت فقال له : ما الذي يجري يا أبا رافع . وكأنه أوهمه بأنه أحد حرس الباب ولا شك أنه غير صوته، وبالفعل أجابه أبو رافع أنه ثمة دخيل يريد قتله، فعرف مكانه بدقة وهوا عليه بضربة تأكد من مقتله، ومع ذلك وبعدما خرج من الغرفة كانت تساوره شكوك (هل قتل أم قد ينجو؟) وهو كذلك وإذ به يقع من أحد الأبواب المكشوفة في أعلى الحصن، وينتهي به الأمر خارج الحصن وقد كسرت قدمه، لكن لم يهتم فربطها بعمامته وأصر أن يتربص الأخبار، وجعل ينتظر الفجر ليسمع أينعاه أحد أم لا، وهذا يدل على الحرص الشديد والدقيق في تنفيذ العمليات، ولم يرد الجندي العودة للقائد وهو لا يعرف نتائج العملية، عند الفجر تأكد بشكل لا يدع مجالًا لأي شك، فهم بالزحف حيث ترك باقي سرية المؤازرة وأكد لهم قتل أبو رافع، فحملوه وعادوا يبشرون القائد، هذا والله أعلم".

أبي عفك

وهو شاعر عجوز ما ترك طريقة ولا كلمة إلا وهجا فيها النبي وأصحابه محرضًا على قتالهم وقتلهم، فنذر أحد أصحاب النبي قتله وهو الصحابي سالم بن عمير العمري.

تربص سالم بن عمير بأبي عفك وبدأ يجمع المعلومات حوله لاختيار أنسب الطرق وأفضل وقت، فعلم أن أبي عفك له ساعة ينام بالفناء وقتًا يكون الجو صافيًا، وبدأ يتسلل خفية حتى وصل موقع تنفيذ العملية والهدف مستقر مكانه نائمًا في ساعته، فأقبل مغمد السيف في كبده حتى وصل فراشه، فصرخ أبي عفك مما جعل الناس تتنبه له، فهم سالم بالفرار وقد رسم خطة الانسحاب بسلاسة واتقان وذلك أنه أعد الخطة وواظب على جمع المعلومات ثم

الرصـد والمتابعة ووضـع الاحتمالات التي قد تصـادفه، وبالفعل نفذ العمل كما خطط له ودون أي خسائر أو خلل.

خالد بن سفيان الهذلي

جاء في البداية والنهاية الجزء الرابع عن ابن عبد الله بن أنيس، عن أبيه عبد الله بن أنيس قال: دعاني رســول الله ﷺ فقال: إنه قد بلغني أن خالد بن ســفيان بن نبيح الهذلي يجمع لي الناس ليغزوني، وهو بعرنة فائته فاقتله. (وكان خالد الهذلي يجمع الناس في معسـكر قرب مكة ليدربهم على العمليات الخاصة بغية قتل النبي ﷺ)

قال بن أنيس: يا رسول الله انعته لي حتى أعرفه. (أي ما هي مواصفات هذا الرجل حتى أميزه).

قال رسول الله: إذا رأيته وجدت له قشعريرة. (وفي رواية قال: علامة الرجل أنك إذا رأيته تهابه، وكانت العرب تقول خالد بألف رجل من شدته وبأسه ومهابته).

قال بن أنيس: فخرجت متوشحًا سيفي حتى وقعت عليه وهو بعرنة مع ظعن يرتاد لهن منزلا، وحين كان وقت العصر، فلما رأيته وجدت ما وصف لي رسول الله ﷺ من القشعريرة، فأقبلت نحوه وخشيت أن يكون بيني وبينه مجاولة تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوه أومئ برأسي للركوع والسجود، فلما انتهيت إليه قال الهذلي : من الرجل؟

قلت بن أنيس: رجل من العرب ســمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لذلك. (فجاءك لذلك تحتمل التأويل وهي تورية، فلم يقل له جاءك للمشاركة أو نحوها، بل يقصد جاءك لذلك، أي لينهي عملك، لكن فهمها خالد الهذلي بما يظن)

فأجابه خالد: أجل أنا في ذلك. قال بن أنيس: فمشيت معه شيئًا، حتى إذا أمكنني حملت عليه السـيف حتى قتلته، ثم خرجت وتركت ظعائنه مكبات عليه (ظعائنه أي أصحابه في مشروعهم)، فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآني وقال: أفلح الوجه.

قال: قلت: قتلته يا رســول الله. قال: صــدقت، ثم قام معي رســول الله ﷺ فدخل في بيته، فأعطاني عصًا فقال: أمسك هذه عندك يا عبد الله بن أنيس، فخرجت بها على الناس فقالوا: ما هذه العصــا؟ فقال: قلت أعطانيها رســول الله ﷺ وأمرني أن أمســكها، قالوا: أولا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله عن ذلك. قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله لم أعطيتني

هذه العصا؟ فقال النبي: آية بيني وبينك يوم القيامة إن أقل الناس المتخصرون يومئذ. فقرنها عبد الله بسيفه فلم تزل معه، حتى إذا مات أمر بها فضمت في كفنه، ثم دفنا جميعا.

"نلاحظ كيف أن الجندي عبد الله بن أنيس كان حريصًا قبل المهمة على جمع المعلومات المتوفرة، فأعطاه النبي علامة فارقة لا تجعل الجندي يتكلف عناء البحث، كما أخبره القائد عن سبب المهمة والهدف منها، الجندي كان حريصًا في عمله وحذرًا، وفي نفس الوقت نرى الحرص على الصلاة في موضع خطير ومهمة تكلف بها من النبي ﷺ، لكن إقامة الصلاة قد تجعل أحدًا ما يشعر أو يتنبه له ولو حاول التخفي بصلاته، فقرر الصلاة المرخصة وجعلها بالإيماء حرصًا على نفسه ودينه ومهمته.

لما سأله خالد الهذلي عن نفسه، كان جوابه غاية في البداهة والثقة، فأجابه ولم يقع في الكذب بل عمل في التورية، وبقي حريصًا على قرب المسافة حتى يتربص اللحظة المناسبة لقتله، وبالفعل استغل كسب ثقة الهذلي وقد ذكرت بعض الروايات أن الهذلي أعجب بابن أنيس وقربه منه، وذات ساعة كانا خلف الخيام يستدرجه عبد الله بن أنيس وقد يكون عملية الاستدراج كانت من خلال جذب الهذلي بحديث عبد الله بن أنيس في خطة يرسمها لتنفيذ المهمة التي يريدها الهذلي، فاهتم للأمر وسار مع عبد الله، وفي لحظة سحب عبد الله سيفه وطعنه أو قطع رأسه، ثم بادر بخطة الانسحاب والله أعلم".

الأسود العنسي

وقد ذكرت مصادر كثيرة قصته وكيف تم كف شره بطريقة غاية في الصعوبة لما له من شياطين ينقلون له الأخبار، وقد ادعى النبوة وأن الشياطين هي الوحي من الله تعالى عما قال وكذب، في قصته سنجد مدى الدقة والخطورة البالغة حتى تم إتمام العملية وقتله، وكيف تم التخطيط والاستدراج لمعرفة من يمكن أن يتعاون مع المنفذين، وكانت زوجة الأسود العنسي مسلمة مؤمنة ساهمت بقتله، بل كان لها دورًا بارزًا بعدما استطاع المنفذين من قبل معرفة موقفها وهل من الممكن أن تتعاون أو تحجم!.

ولدقة التفاصيل والعملية سنوردها كما جاءت في البداية والنهاية الجزء السادس.

الأسود العنسي واسمه عبهلة بن كعب بن غوث من بلد يقال لها: كهف حنان في سبعمائة مقاتل وكتب إلى عمال النبي ﷺ أيها المتمردون علينا أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ووفروا

ما جمعتم فنحن أولى به، وأنتم على ما أنتم عليه، ثم ركب فتوجه إلى نجران فأخذها بعد عشر ليال من مخرجه، ثم قصد إلى صنعاء فخرج إليه شهر بن باذام فتقاتلا فغلبه الأسود وقتله، وكسر جيشه من الأبناء، واحتل بلدة صنعاء لخمس وعشرين ليلة من مخرجه، ففر معاذ بن جبل من هنالك، واجتاز بأبي موسى الأشعري فذهبا إلى حضرموت، وانحاز عمال رسول الله ﷺ إلى الطاهر، ورجع عمر بن حرام وخالد بن سعيد بن العاص إلى المدينة، واستوثقت اليمن بكمالها للأسود العنسي، وجعل أمره يستطير استطارة الشرارة، وكان جيشه يوم لقي شهرا سبعمائة فارس، وأمراؤه قيس بن عبد يغوث، ومعاوية بن قيس، ويزيد بن محرم بن حصن الحارثي، ويزيد بن الأفكل الأزدي، واشتد ملكه واستغلظ أمره، وارتد خلق من أهل اليمن، وعامله المسلمون الذين هناك بالتقية، وكان خليفته على مذحج عمرو بن معدي كرب، وأسند أمر الجند إلى قيس بن عبد يغوث، وأسند أمر الأبناء إلى فيروز الديلمي وداذويه، وتزوج بامرأة شهر بن باذام وهي ابنة عم فيروز الديلمي واسمها زاذ، وكانت امرأة حسناء جميلة وهي مع ذلك مؤمنة بالله ورسوله محمد ﷺ ومن الصالحات، قال سيف بن عمر التميمي: وبعث رسول الله ﷺ كتابه حين بلغه خبر الأسود العنسي مع رجل يقال له: وبر بن يحنس الديلمي يأمر المسلمين الذين هناك بمقاتلة الأسود العنسي ومصاولته، وقام معاذ بن جبل بهذا الكتاب أتم القيام، وكان قد تزوج امرأة من السكون يقال لها: رملة، فحزبت عليه السكون لصبره فيهم، وقاموا معه في ذلك، وبلغوا هذا الكتاب إلى عمال النبي ﷺ ومن قدروا عليه من الناس، واتفق اجتماعهم بقيس بن عبد يغوث أمير الجند، وكان قد غضب على الأسود واستخف به وهم بقتله، وكذلك كان أمر فيروز الديلمي قد ضعف عنده أيضا وكذا داوذيه، فلما أعلم وبر بن نحيس قيس بن عبد يغوث وهو قيس بن مكشوح كان كأنما نزلوا عليه من السماء، ووافقهم على الفتك بالأسود، وتوافق المسلمون على ذلك وتعاقدوا عليه.

فلما أيقن ذلك في الباطن اطلع شيطان الأسود للأسود على شيء من ذلك، فدعا قيس بن مشكوح فقال له: يا قيس ما يقول هذا؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: عمدت إلى قيس فأكرمته حتى إذا دخل منك كل مدخل وصار في العز مثلك، مال ميل عدوك وحاول ملكك، وأضمر على الغدر، إنه يقول: يا أسود يا أسود، يا سوآه يا سوآه، فطف به وخذ من قيس أعلاه وإلا سلبك وقطف رقبتك.

فقال له قيس وحلف له فكذب: وذي الخمار لأنت أعظم في نفسي، وأجل عندي من أن أحدث بك نفسي. فقال له الأسود: ما أخالك تكذب الملك فقد صدق الملك (الشيطان)، وعرف الآن أنك تائب عما اطلع عليه منك.

ثم خرج قيس من بين يديه فجاء إلى أصحابه فيروز وداوذيه وأخبرهم بما قال له ورد عليه. فقالوا: إنا كلنا على حذر فما الرأي؟ فبينما هم يشتورون إذ جاءهم رسوله فأحضرهم بين يديه.

فقال: ألم أشرفكم على قومكم؟ قالوا: بلى. قال: فماذا يبلغني عنكم؟ فقالوا: أقلنا مرتنا هذه. فقال: لا يبلغني عنكم فأقيلكم. قال: فخرجنا من عنده ولم نكد وهو في ارتياب من أمرنا، ونحن على خطر فبينما نحن في ذلك إذ جاءتنا كتب من عامر بن شهر أمير همدان، وذي ظليم، وذي كلاع وغيرهم من أمراء اليمن يبذلون لنا الطاعة والنصر على مخالفة الأسود، وذلك حين جاءهم كتاب رسول الله ﷺ يحثهم على مصاولة الأسود العنسي، فكتبنا إليهم ألا يحدثوا شيئا حتى نبرم الأمر.

قال قيس: فدخلت على امرأته زاذ فقلت: يا ابنة عمي قد عرفت بلاء هذا الرجل عند قومك قتل زوجك، وطأطأ في قومك القتل، وفضح النساء فهل عندك ممالأة عليه؟

قالت: على أي أمر؟ قلت: إخراجه. قالت: أو قتله؟ قلت: أو قتله. قالت: نعم والله ما خلق الله شخصًا هو أبغض إلي منه فما يقوم لله علي حق ولا ينتهي له عن حرمة فإذا عزمتم أخبروني أعلمكم بما في هذا الأمر. قال: فأخرج، فإذا فيروز وداوذيه ينتظراني يريدون أن يناهضوه فما استقر اجتماعه بهما حتى بعث إليه الأسود فدخل في عشرة من قومه.

فقال: ألم أخبرك بالحق، وتخبرني بالكذابة إنه يقال: يا سوأة يا سوأة، إن لم تقطع من قيس يده يقطع رقبتك العليا حتى ظن قيس أنه قاتله. فقال: إنه ليس من الحق أن أهلك وأنت رسول الله، فقتلي أحب إلي من موتات أموتها كل يوم، فرق له وأمره بالانصراف، فخرج إلى أصحابه فقال: اعملوا عملكم، فبينما هم وقوف بالباب يشتورون، إذ خرج الأسود عليهم وقد جمع له مائة ما بين بقرة وبعير، فقام وخط وأقيمت من ورائه، وقام دونها فنحرها غير محبسة ولا معلقة ما يقتحم الخط منها شيء، فجالت إلى أن زهقت أرواحها. قال قيس: فما رأيت أمرًا كان أفظع منه ولا يومًا أوحش منه.

ثم قال الأسود: أحقًا ما بلغني عنك يا فيروز؟ لقد هممت أن أنحرك فألحقك بهذه البهيمة، وأبدى له الحربة. فقال له فيروز: اخترتنا لصهرك، وفضلتنا على الأبناء، فلو لم تكن نبيًا ما بعنا نصيبنا منك بشيء، فكيف وقد اجتمع لنا بك أمر الآخرة والدنيا فلا تقبل علينا أمثال ما يبلغك فإنا بحيث تحب. فرضي عنه وأمره بقسم لحوم تلك الأنعام، ففرقها فيروز في أهل صنعاء ثم أسرع اللحاق به.

فإذا رجل يحرضه على فيروز ويسعى إليه فيه، واستمع له فيروز، فإذا الأسود يقول: أنا قاتله غدا وأصحابه، فاغد علي به، ثم التفت فإذا فيروز فقال: مه، فأخبره فيروز بما صنع من قسم ذلك اللحم فدخل الأسود داره، ورجع فيروز إلى أصحابه فأعلمهم بما سمع، وبما قال، وقيل له، فاجتمع رأيهم على أن عاودوا المرأة في أمره، فدخل أحدهم - وهو فيروز - إليها، فقالت: إنه ليس من الدار بيت إلا والحرس محيطون به غير هذا البيت، فإن ظهره إلى مكان كذا وكذا من الطريق، فإذا أمسيتم فانقبوا عليه من دون الحرس، وليس من دون قتله شيء، وإني سأضع في البيت سراجا وسلاحًا، فلما خرج من عندها تلقاه الأسود فقال له: ما أدخلك على أهلي؟ ووجأ رأسه، وكان الأسود شديدًا فصاحت المرأة فأدهشته عنه، ولولا ذلك لقتله، وقالت: ابن عمي جاءني زائرًا.

فقال: اسكتي لا أبالك قد وهبته لك. فخرج على أصحابه فقال: النجاء النجاء وأخبرهم الخبر، فحاروا ماذا يصنعون، فبعثت المرأة إليهم تقول لهم: لا تنثنوا عما كنتم عازمين عليه، فدخل عليها فيروز الديلمي فاستثبت منها الخبر، ودخلوا إلى ذلك البيت فنقبوا داخله بطائن ليهون عليهم النقب من خارج، ثم جلس عندها جهرة كالزائر فدخل الأسود فقال: وما هذا؟ فقالت: إنه أخي من الرضاعة، وهو ابن عمي، فنهره وأخرجه فرجع إلى أصحابه، فلما كان الليل نقبوا ذلك البيت فدخلوا، فوجدوا فيه سراجًا تحت جفنة، فتقدم إليه فيروز الديلمي والأسود نائم على فراش من حرير قد غرق رأسه في جسده، وهو سكران يغط، والمرأة جالسة عنده، فلما قام فيروز على الباب أجلسه شيطانه وتكلم على لسانه - وهو مع ذلك يغط - فقال: مالي ومالك يا فيروز؟ فخشي إن رجع يهلك وتهلك المرأة فعاجله وخالطه وهو مثل الجمل فأخذ رأسه فدق عنقه، ووضع ركبتيه في ظهره حتى قتله، ثم قام ليخرج إلى أصحابه ليخبرهم فأخذت المرأة بذيله وقالت: أين تذهب عن حرمتك فظنت أنها لم تقتله، فقال: أخرج لأعلمهم بقتله، فدخلوا عليه ليحتزوا رأسه، فحركه شيطانه فاضطرب، فلم يضبطوا أمره حتى جلس اثنان على ظهره،

وأخذت المرأة بشعره، وجعل يبربر بلسانه فاحتز الآخر رقبته، فخار كأشد خوار ثور سمع قط، فابتدر الحرس إلى المقصورة فقالوا: ما هذا؟ ما هذا؟ فقالت المرأة: النبي يوحى إليه، فرجعوا، وجلس قيس وداذويه وفيروز يأتمرون كيف يعلمون أشياعهم، فاتفقوا على أنه إذا كان الصباح ينادون بشعارهم الذي بينهم وبين المسلمين، فلما كان الصباح قام أحدهم وهو قيس على سور الحصن فنادى بشعارهم فاجتمع المسلمون والكافرون حول الحصن، فنادى قيس، ويقال: وبر بن يحنش الأذان أشهد أن محمدا رسول الله، وأن عبهلة كذابًا، وألقى إليهم رأسه، فانهزم أصحابه وتبعهم الناس يأخذونهم، ويرصدونهم في كل طريق يأسرونهم، وظهر الإسلام وأهله، وتراجع نواب رسول الله ﷺ إلى أعمالهم، وتنازع أولئك الثلاثة في الإمارة، ثم اتفقوا على معاذ ابن جبل يصلي بالناس، وكتبوا بالخبر إلى رسول الله ﷺ وقد أطلعه الله على الخبر من ليلته.

"نلاحظ أن زوجة الأسود مدعي النبوة كانت مؤمنة ولها الدور المحوري والرئيسي في عملية قتل المجرم المرتد أسود العنسي، بل كانت محفزة ومثبتة للمجموعة التي همت بالتخطيط لاغتياله، كما سهلت عليه تنفيذ العملية حيث أعطتهم نقاط الضعف ووافتهم بالاستطلاع الاستخباراتي اللازم، وحتى بعد قيام فيروز بقتله كانت أسد الحرص على التأكد اليقيني من موته، فمسكت بثوب فيروز وأثنته عن الخروج من البيت قبل أن يقطع رأسه.

الأسود العنسي كان يشغل الشياطين بين يديه لينقلوا له الأخبار ويرصدوا له المؤامرات ضده، وقد لعبت الشياطين دور الجواسيس الذين يسربون المعلومات، لكن الأسود العنسي فيما يبدو كان ليس بالذكاء الكافي حيث استطاع فيروز وقيس خداعه مرة بالإنكار ومرة باللعب على وتر العاطفة، مع حذرهم منه ويتبين ذلك من خلال استراق فيروز السمع في مجلس الأسود حيث سمع تخطيط الأسود للتخلص منه في اليوم التالي، إذ لم يكن معتمدًا فقط على المعلومات الواردة من زاد، بل حرص على كل الوسائل التي تجعله على علم بما يخطط ويفكر به العنسي.

كما نلاحظ أن المجموعة خلف الخطوط كانت قد استخدمت شيفرة فيما بينهم وبين باقي المسلمين الذين أخفوا إيمانهم (لحظة المناداة: أشهد أن محمد رسول الله وأن عبهلة كذاب)، ولذلك بعدما سمعوا الإشارة والعلامة انتفضوا بين الجموع وكأنهم كانوا ينتظرونها بل كانوا

كذلك بالفعل، فانقضوا على أتباع الأسود العنسي وحراسه حول الحصون وطاردوهم. وطويت صفحته القذرة على يد أبطال خلف الخطوط".

ولقد جاءت روايات وقصص كثيرة موثقة عن عمليات خلف الخطوط أو ما يمكن أن نجدها تحت عنوان غزوات السرايا، مثل مهمة أو غزوة قتل رفاعة بن قيس الجشمي، ومحاولة اغتيال أبي سفيان بن حرب، وقتل العصماء رغم ضعف القصة، وغيرهم الكثير من العمليات الدقيقة التي نجحت، ولم تقتصر تلك المهام خلف الخطوط فقط على عمليات تنفيذ الاغتيال، بل بعضها كان له أهدافًا حول فك أسرى وأخرى كانت بهدف استعادة جثامين شهداء المسلمين كعملية استعادة جثمان خبيب بن عدي الذي قتلته قريش وصلبوه على خشبة في الساحة، فبعث النبي ﷺ عمرو بن أمية في مهمة استرجاع الجثمان، وغيرها الكثير من قصص البطولات الخالدة التي تؤكد أن العهد الأول وحتى ما بعده شهد أخطر وأنجح العمليات، وكقصة مرثد بن أبي مرثد الغنوي، الذي كان يأتي من المدينة إلى مكة راجلًا حتى يحرر أسارى المسلمين في الليل، إذ كان المشركون يربطون المستضعفين في البطحاء في الصباح ويتركونهم كذلك في المساء، فكان مرثد يتسلل ويحرر الأسرى.

الخاتمة

من الواضح أن نمط السرد في هذا الكتاب كان يشير إلى دلالات كثيرة واضحة، أهمها التنبه لمثل هذه الحروب التي تكون صامتة تعمل بشكل هادئ وخفي بعيدًا عن صخب الأحداث الظاهرة، لكن نرى نتائجها فيما بعد حيث ننبهر أو نتألم، كذلك كان من الواضح أهمية جهاز المخابرات الكامل والحقيقي الذي يوفر الأمان لقضيتنا ويدخل معترك الصراع مع الأجهزة المعادية لقطع أذرعها وقطع الطريق على المكائد المتربصة بنا وبالمستضعفين وفي نفس الوقت استغلال الفرص المناسبة واستثمار الثغرات التي لا يمكن للعسكريين والسياسيين رؤيتها بدون رجال استخبارات تعمل في الخفاء تمدهم بالتقارير والمعلومات كما أنها تكون قادرة على توجيه مجموعات خاصة خلف الخطوط .

لكن الهدف الرئيسي الذي أردته وأنا على قناعة مطلقة به، هو أن قيام الدولة يبدأ من خلال نجاح التجنيد العام وعلى وجه الخصوص التجنيد العسكري والاجتماعي وهذا يحتاج جهاز مخابرات قائم.

إن الثورات والنضال الشعبي لا يمكن أن يثمر وينتج عنه قيام دولة بدون عوامل لا بُد منها، بعضها قاسي قد يتفاجأ بها البعض لكن هي في حقيقة لا نملك تغييرها، فمثلًا لا يوجد ثورة ثبتت أركانها بعد النصر على العدو الرئيسي بدون قوة عسكرية فيما بعد، نعم فالثورة أو الحراك الشعبي والكفاح العام سيصل لمرحلة لا بُد من قوة عسكرية تفرض سيطرتها وسط الصراعات الناتجة عن نصر أي ثورة، بعضها نسميه صراع أحزاب سياسية لكن في الغالب هي كذبة يقف خلفها قوة عسكرية تنافح لقطف ثمار النصر الثوري ثم تأسس لدولة ما بعد الثورة وفق رؤيتها التي في الغالب كذلك لا تتقبل الرؤى الأخرى، بالمحصلة هو أمر واقعي أن تلتفت النخب الثورية والكوادر لذلك بعد النصر، هذه القوة العسكرية المتفرقة لا يمكنها السيطرة على الحكم وحدها وإلا ستكون الفاتورة سيل دماء أو ربما ثورة جديدة تحت مسميات تصحيح المسار أو فرصة لثورة مضادة تعيد الفلول، إن من يمتلك أساسًا متينًا وقاعدة قوية لا شك هو الكاسب النهائي وسيتجنب الكثير من الصعاب، كما أنه سينجح في تجنيد كوادر ونخب ليرتفع رصيده الشعبي ويثبت جدارة في إدارة الدولة، ولقد مر معنا كثير من الشواهد في الكتاب عن أهمية التجنيد في تأسيس قاعدة شعبية قوية، كما مر معنا كيف

أن بعض الدول التي قامت وبقوة كان قد سبقها جهاز استخباراتي تمرس من خلال تجربته التي خاضها دون خوف إذ لا مقدرات يخشى ضياعها ولديه الفرصة كاملة إلى أن ينهض بالدولة .

إن بناء جهاز المخابرات لهو بقدر الصعوبة سهل، حيث تكمن الصعوبة الأولى في القناعة ومرض التأطير ونظرية المؤامرة الكونية وحالة النخبوية التي تكون عائقًا بين الطليعة والأمة، وبعدها كل الصعاب تزول من خلال اللجوء للخالق ثم التفكير العميق والعمل بحكمة وهدوء وتروي، فالخسارة في الحرب الاستخباراتية لا تتطلب ردة فعل كحال خسارة عسكرية لموقع استراتيجي أو خطاب سياسي متشنج كردة فعل على نظيره من السياسيين، هي حرب التربص وكتم الجراح وتجنب التشنج والخروج من بوتقة التهور والارتجالية في غير موضعها.

نعترف أن الحالة الثورية التي أتاحت لنا الفرصة كانت فجائية ولم تكن مدروسة ومعتمدة على استراتيجية حقيقية نمضي نحو تحقيقها، لكنها فرصة جاءت ثم كتب الله لها أن تستمر دون أي تغيرات في المبادئ الرئيسية أو قدرة للثورة المضادة على اختطافها وهذا بحد ذاته يجب أن يكون دافعًا جوهريًا لنا حتى ندرك ونعي أن الله تعالى مازال يعطينا فرصة ذهبية يجب أن نكون على قدر التشرف بها وإثبات الجدارة، فمن غير المعقول بعد مضي نحو عشر سنوات وما زلنا نجهل استراتيجية يتبناها كل فرد مهما كان حاصل الاختلاف بالآراء ومشاربها!، ولا شك عندي إذ أني مقتنع تمامًا أن دور تبني الاستراتيجية يقع بالمسؤولية الأكبر على عاتق عصب جسم الثورة والجهاد، وهذا العصب يتمثل بجهاز إدارة الصراع وهو جزء أساسي بعمل المخابرات.

ولدت القضية في ساحتنا من الحس الإسلامي وحب المناصرة للضعيف كنوع من أنواع الواجب المحتوم لتحقيق حقيقة الجسد الواحد، ثم بدأت تبصر النور من المساجد وهذه لفتة مشرفة نفتخر بها وهي تؤرق المتسلقين من العلمانيين، ثم كانت الشعارات أوضح من الشمس حيث تعبر عن حقنا كأغلبية بأن تحكمنا شريعتنا بدون إفراط ولا تفريط وأكدت تلك الشعارات مدى حنيننا لمجد أمتنا ومدى حبنا والتزامنا بديننا، ما لبثت أن تحولت لجهاد وكفاح ضد المجرم السفاح ثم المحتل الغاصب، وبرغم الفاتورة الضخمة التي دفعناها وسندفعها إلا أن المسلمين ما زالوا مستعدين لتقديم مزيد من التضحيات في سبيل تحقيق ما خرجنا لأجله دون أي تنازل، وبما أنها كذلك فلماذا لا نطبق التجربة النبوية ؟ وسننجح بإذن الله، وهو أفضل من التفكير بتجربة تجارب جديدة أو لاحقة قد تنجح وقد تفشل! قد يتبادر

سؤال ملح: ما هي التجربة المقصودة بعينها؟، أولسنا نتبع النبي ﷺ في عملنا؟ نحسب أننا نعمل جهدنا في اتباعه ونسأل الله السداد، لكن لا أجد من يختلف معي أننا في حالة تقصير كبيرة وللأمر أسباب متفرقة، منها خارج الإرادة وأغلبها مما كسبت أيدينا ولست في صدد جلد الذات ولا تقريع النفس فإني أبتغي التلويح لا التعريض لعل العقول تقول: آن لنا أن نتق الله تعالى في أنفسنا وفي أمتنا ونتدارس كيف أن النبي ﷺ بدأ لتأسيس دولته ونجح بثورة داخلية على المشركين وثورة خارجية على الكافرين.

إن كل فرد ضمن جماعة أو بمعزل عنها هو بالمحصلة ينتسب لجماعة الأمة، عليه واجب ومطلوب منه دور إيجابي يصب في صالح النهضة بعيدًا عن الأزمات النفسية التي ابتلينا بها وبعيدًا عن حب النأي بالنفس أو العيش في حالة الوسواس القهري من المصير، بل من يدعي انتسابه للأمة مناصرًا قضاياها العادلة وجب عليه أن يكون جزءً من منظومتها الدفاعية أقل ما يمكن والهجومية لمن وفقه الله واختاره لهذه المهمة التي يتشرف بها أي مسلم، أما الانتماء بالبطاقة الشخصية والادعاء باللسان فقط، فأخشى أنها من النفاق وليست كما يحاول المرء التبرير لنفسه على أنها من الضعف والخوار، ولا شك أننا كمجاهدين وثوار نتحمل جزءً من الخلل حيث لا يمكن تبرير هذا الخلل بأسباب واهية تقنع ذواتنا لتُسكن صوت العقل الذي يأن من فشلنا داخل أدمغتنا، فمثلًا لو نظرنا للساحة السورية ذات الأغلبية السنية بأضعاف مضاعفة عن غيرها، نجد أن معظم من تحول لخونة وعملاء "جماعة المصالحات" هم محسوبون على أبناء السنَّة!، بل كانوا ذات يوم بين صفوفنا، فكيف للعدو الشيوعي الروسي أن ينجح في سحبهم من بيننا ونحن نجد صعوبة في تجنيد أقرب الناس لنا!، هنا يكمن دور المخابرات وأساليبها وليست القصة أبعد من ذلك، فلو راجعنا التاريخ الذي عشناه خلال السنوات العشر لوجدنا أنه كان من الممكن تفهم وجود مثل هذه الخيانات لو وقعت مع العدو المجوسي الشيعي الإيراني من خلال كذبة "سنة وشيعة واحد" أو بالطرق والأساليب التي يلعب عليها الروافض في العراق ولبنان ويخدعون الأغبياء لتحييد أكبر عدد ثم سحقهم مع أول فرصة مواتية، لكن الخيانة حصلت مع عدو لا دين يستغله ولا حق يدعيه فهو علاوة على الشيوعية فإنه محتل بما لا يمكن لبشر فهمه بغير تلك الصورة، ومع التأكيد على أن الخونة وضعاف النفوس لا تهتم لهذا، لكن نحن هنا نتكلم عن آلاف من المقاتلين فجأة انقلبوا، نتكلم عن شعب مثل درعا سكت وأخذ لحظة صمت وهو من احتضن الشرارة الأولى

بين ضلوعه واكتوى بها، كيف حصل ذلك؟، ولماذا في هذه الأثناء عادت درعا للحراك مجددًا؟، عودتها طبيعية وهي بمثابة صحوة جديدة، لكن أليس هذا يؤكد أنها صحوة من خبث استخباراتي نجح بترويضها وخداعها لوقت من الزمن؟، لماذا نجح المحتل الشيوعي وفشلنا نحن حتى الآن على الأقل!، في حين لو راجعنا السنة النبوية وقد مر معنا في الكتاب صور من طرق النبي ﷺ في تحييد أشد الأعداء وتجنيد آخرين، فهل نجحنا نحن بأي شيء من ذلك؟! لا أريد الاستزادة في ضرب الأمثلة وتنشيط العقل الباطني إذ أعتقد أن الصورة واضحة كما أن الفرص لدينا واضح أنها كثيرة بإذن الله، وما زال يسعنا قلب الموازين واستثمار أوراق جديدة تصيب عدونا المحتل وأذنابه بمقتل وتلوي ذراعه ونحقق المطلوب في خلق بيئة جيدة تستقطب شباب الإسلام وتحملهم المسؤولية الضمنية في ضمائرهم، ولئن حققنا ذلك لنا أن نتخيل ما الذي من الممكن أن يجري في مناطق العدو ذات الأغلبية السنية المضطهدة بل المكتوية بازدياد مع كل مرة يشعر العدو أنه حقق نصرًا وشارف على كسب الصراع، ومن الواضح أن الأمة والشعب السني أدرك معنى أن ينتصر العدو ونتائج ذلك على المحايد حتى، كما أدركت الفصائل المتنازعة هذا مؤخرًا فوضعت الخلافات جانبًا والتحمت بصفوفها وكأنها تقول ما قاله أحد ملوك الطوائف وهو المعتمد بن عباد حين دب الخلاف بينه وبين دولة المرابطين في المغرب الاقصى، فأشار إليه أحد وزرائه بأن يتحالف مع "ألفونسو" الإسباني على حساب الدولة الإسلامية المرابطية.

فكان جوابه: لئن أرعى الجمال عند ابن تاشفين في الصحراء خير لي من أن أرعى الخنازير عند "ألفونسو" في قشتالة.

فنسأل الله أن ييسر لنا ما يعيننا ويسخر لنا الأسباب ويقيض لنا ما فيه الرشد والرشاد، فإننا موقنون بالنصر وهو آتٍ لا محالة لكن نطمح أن يكون لنا الشرف فيه وإن قضى الله أن نكون من الأموات فيكفينا تشريفه لنا بأن نموت على الطريق الذي يرضاه لنا ثابتين صابرين محتسبين، فاللهم اربط على قلوبنا وثبت منا الأقدام وخذ من دمانا حتى ترضى وهيء لنا الأسباب وآتنا العلم والحكمة.

اللهم بلغ عنا نبيك أننا نحبه ونحب من يحبه وأننا مشاقين له ولأصحابه اللهم بلغه الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين.

أدهم عبد الرحمن الأسيف أبو أسيد

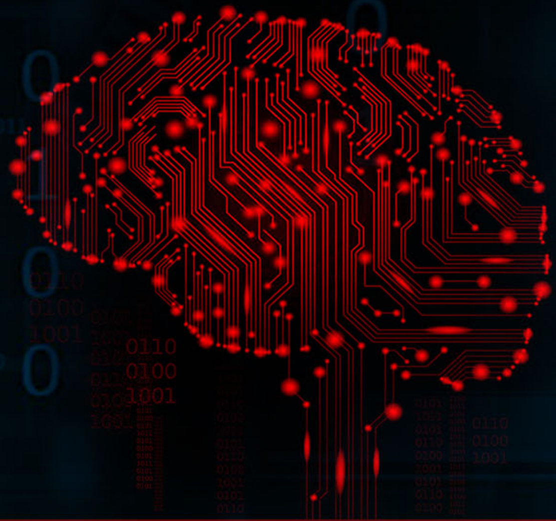

،، إن أشد الحروب فتكًا هي تلك التي تكون بدون دماء، تلك التي تخطف كل شيء وتترك الأرواح تموت كمدا، ولقد أبدعت البشرية بمثل هذا النوع من الحروب، فلقد أنهت حروب الاستخبارات دولًا وأقامت دول، كل ذلك حصل بشكل صامت لكن ألبس قناع السياسة ورداء العسكرة ليبدو أكثر منطقية للبشر، فالحروب تخوضها العقول وليس السلاح من يحدد فوارق القوة ،،

« أسيف عبدالرحمن